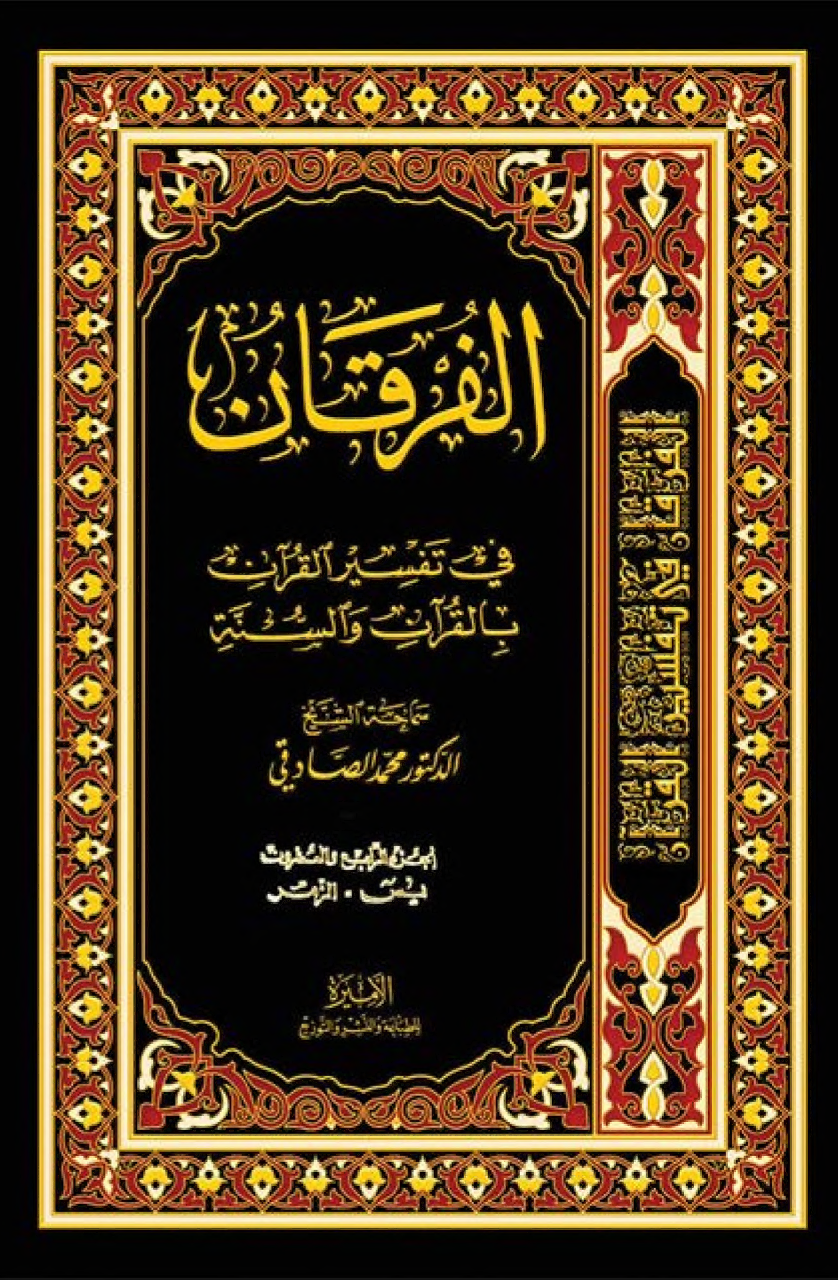

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الرابع والعشرون
يس - الزمر
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنَّة

الفرقان

في تفسير القرآن

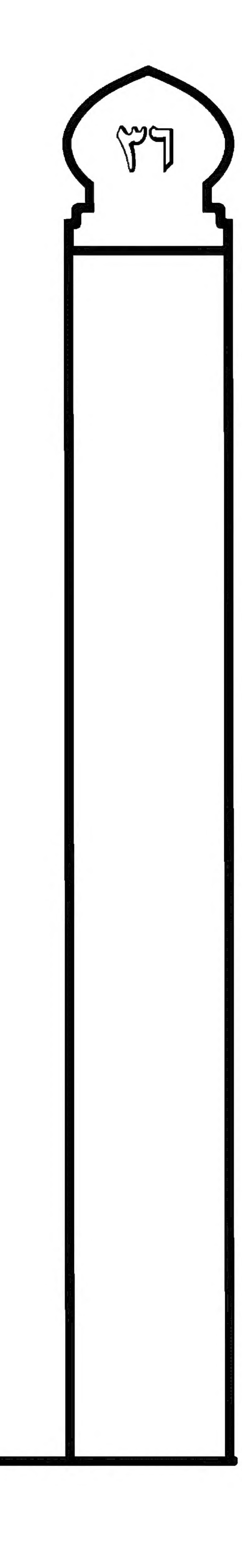
بالقرآن والسُّنة

الجزء الرابع والعشرون



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



تتمة

سُورَة يس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

آيات خمس ذات دلالات على وحدانية المبدإ الخالق المدبر المعبود وإمكانية ولزوم المعاد، نعيشها طول حياتنا ليل نهار ونحن عنها غافلون.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣﴾:

الأرض الميتة بموتتها الأولى قبل حياتها، وبموتات لها تترى، إنها آية لميتاتهم، أولاها لأولاها وأخراها لأخراها: ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ عن موتتها الأولى، ويستمر إحياؤها طول كونها قبل قيامتها الكبرى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[1] أفلا يدل هذا الواقع المكرور على إمكانية إحيائكم بعد موتكم؟ ومن ثَمَّ على لزومها في ميزان العدل والفضل كما ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ فذلك الحب الكامن في الأرض لا يخرج ليؤكل إلّا بإحياء الأرض بالماء، وكذلك معادن الإنسانية وكنوزها لا تخرج كاملة شاملة إلّا بإحيائها بعد موتها، إذ لا نرى محاصيل أعمالها ومساعيها خيراً أو شراً في أولاها فلتخرج في أخراها.

ففي الحياة بعد الموت أولويتان اثنتان بالنسبة للحياة الدنيا، أولاها بجنب القدرة الإلهية أنها أهون على الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[2] وأخراها بجنب العدل والفضل حيث الأولى قضية الفضل والأخرى قضية العدل والفضل.

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾:

في حياة الأرض جنات وعيون، ليأكلوا من ثمر ذلك الإحياء[3] أو الجعل، أم ثمر الله ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ نفياً واثباتاً[4] ليأكلوا من ثمره ولم

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٣) الضمير الغائب لا يصلح رجوعه أدبياً ومعنوياً إلا إلى الإحياء المستفاد من أحييناها أو لجعل الله المحيي الجاعل.

(٤) «ما» هنا تعني النافية والموصولة معاً فالمعنيان معنيّان وهما متقاربان.

تعمله أيديهم كله، حيث الأرض بأشجارها وعيونها ليست من عملهم، وإنما يعملون فيها فتثمر لهم أكثر مما عملوا، و﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ ومن ما عملته أيديهم، فهنالك ثمر لم تعمله أيديهم وهو الأكثر من كيان الثمر، وهناك ثمر عملته أيديهم وهو الأقل من محاولات صورية لنضد الثمر ونضجه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله فيما أثمر لهم من إحياء الأرض وعمل الأيدي؟ ثم هم وأيديهم - كما الأرض - من عمله سبحانه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ فيختلقون معاذير كأنها تُحيل الحياة بعد الموت: استبعاداً لإحياء الموتى؟ ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ ونحييها بعد موتات طول كونها!

أو استحالة لأنه من إعادة المعدوم الممتنعة عقلياً؟ وليس المُعاد في المَعاد إلَّا الروح بعينه والبدن بمثله، والمادة من مادته الأولى، فكما المُعاد في ثمرات الأرض الميتة هي أمثالها في صورها وأعيانها في موادها، كذلك الأحياء في الإحياء هي أولى حيث الأرواح هي عين الأرواح! وإنما تماثلها الأجساد.

أو استحالة حيث استئناف الحياة بحاجة إلى استعداد البدن لقبول الحياة، واكتماله بمضي المراحل الجنينية؟ وخالق الاستعداد ليس محصوراً في خلقه بصورة واحدة كما في هذه النشأة، بل قفزة في الأخرى كما في الخلق الأول هنا: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1] وكما الأرض تحيى لمرات تترى، والله هو الذي يعيدها في طائل الزمن أم قصيره!

أم إن الحياة بعد الموت لا غاية فيها ترجحها أو تلزمها؟ و﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ في إحياء الأرض بعد موتها بيان لغاية قصوى من إحيائها ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مثالاً لثمرات الصالحات أنها تربو أعمال أيديهم في وجه النفي من «ما عملت» أم وفي الإثبات أيضاً حيث الثمر ليس عمل أيديهم!

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

بل كل ذلك من يد الله وأياديه، فكما قدرت الزرع على الحياة والنماء، كذلك أقدرتهم على العمل ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ وكذلك يكون الثمر في اليوم الآخر حيث يُخرج الله من المكلفين حبوبهم وثمارهم ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾(١) وذلك الكتاب هو مجموعة العقائد والنيات والأقوال والأعمال، وهي هي جزاء أصحابها بما تظهر في ملكوتها وحقائقها فـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) إلّا أن العقاب ليس إلّا عدلاً جزاءً وفاقاً دون زيادة على العمل بل وقد ينقص، ولكنما الثواب فضل وعطاء غير مجذوذ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٣) ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ كعلة غائية قصوى للإحياء في الأولى ثم الأخرى، والأولى قائد الأخرى ورائدها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٤).

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

ما سوى الله كلّها أزواج، فـ ﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ تعني الكائنات كلها سوى الله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾(٥) (٦) فكل ممكن زوج تركيبي، مزدوج الكيان، فليس بالإمكان

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٣.
(٢) سورة الطور، الآية: ١٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٥) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.
(٦) تجد بحثه الوافي في الفرقان ج ٢٧ وفي الدر المنثور ٥ : ٢٦٢ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦] قال: الأصناف كلها الملائكة زوج والإنس زوج والجن زوج وما تنبت الأرض زوج وكل صنف من الطير زوج =

كونه إلّا في زوجية مّا أياً كان، فلا كائن فرداً بسيطاً إلّا الله، فلا غنيّ مطلقاً إلّا الله ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١) فـ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا...﴾ أن يتخذ منها شريكاً والكل فقراء إلى الله فكيف يفتقر إليها الله؟!

وزوجيته كلِّ شيءٍ هي لأقل تقدير ذات بعدين، في ذاته، وبالنسبة لسواه، فحاجة ذات بعدين يتعلق فيها بالله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ حيث ازدواجية الرباطات المنضَّدة بوحدة القاعدة الضابطة في التكوين، إنها تشي بوحدة اليد المزدوجة المبدعة على اختلاف الأشكال والأحجام والميِّزات والسمات فـ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا...﴾ من شريك أو ندٍ، أو عجز أو ظلم أمّا ذا من نقص في ساحته أو ركس في سماحته.

ومن ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مثل ثلاثي عن الأزواج كلها، كنموذج شامل يمثل لنا الأزواج كلها، فإن أرض الأزواج كسمائها، متماثلة في طولها وعرضها و﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تعم ما لا نعلمه أو لن نعلمه.

و﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ تشمل نباتاتها الجمادية والنباتية والحيوانية وكما الإنسان: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾(٢) فـ ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ تخصيص لذكر الإنسان بعد تعميم فإنه المحور في ذلك التذكير.

ثم ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يشمل من كائنات الأرض وسواها ما نجهله، وعلمنا وجودها كالروح، أم لم نعلم ككائنات في الأرض أو في السماء لمّا عرفناها، ومما سوف نعلمه كما عرفنا الذرة بأجزاء لها بعد قرون من نزول

= ثم فسر فقال: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ - الروح لا يعلمه الملائكة ولا خلق الله لم يطلع على الروح أحد وقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾: لا يعلم الملائكة ولا غيرها.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٧.

القرآن، وما لن نعلمه رغم التأكُّد من وجوده كالمادة الأولية الأم بتركُّبها الثنائي، حيث العلم بحقيقتها يساوق القدرة على إيجادها وإفنائها، وهو منحصر في الخالق منحسر عن غير الخالق، فـ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تعم كل من له أن يعلم دون خصوص الإنسان.

إذاً ففي الكون مثلث ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ثالثه مما لن نعلمه، وصاحباه ما لم نعلمه ثم عَلِمناه أو عُلِّمناه أم نستكمل معرفتنا إياه.

فالروح من الأزواج ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾(١) فهي مما لا يعلمون، والمادة الأم من الأزواج وهي مما لن يعلموه، والذرة من الأزواج وقد علموها شيئاً مَّا!

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾:

أترى الليل لابس لباسَ النهار حتى يُسلخ منه النهار ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾؟

وكلٌّ من الليل والنهار حالة تعرض الأثير بإشراقة الشمس عليه أو إطباقتها عنه! ولماذا الليل نسلخ منه النهار دون النهار نسلخ منه الليل؟

هذا تعبير قاصد لمَثَل آخر زماناً بعد المكان يمثِّل تواتر الموت والحياة، إحياءً لمَيْت المكان: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ ثم إماتته هناك، وإماتة لحي الزمان ثم إحياءه كما هنا، يصور لنا الليل ملتبساً بالنهار، فكما الحياة للأرض المكان كانت عارضة متواترة، كذلك الحياة النور لليل الزمان عارضة متواترة، أصالة الموت في المكان والزمان، وعارضية الحياة فيهما، والأثير المظلم في أصله يصبح بإشراقة الشمس نهاراً، فإذا سُلخ منه لباس النهار يرجع ليلاً كما كان.

إن الجو بالزمان ككل هو مدار الليل الأصل والنهار الفرع: ﴿يُكَوِّرُ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾[١] ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ﴾ توحيداً للمبدأ وتحقيقاً للمعاد ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ الخامل بظلامه مثالاً لميت الزمان ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نزعاً للباس النهار عن الجو ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ فالأرض الكروية بفضائلها في دورتها حول نفسها في مواجهة شمسها، تمر كل أفق ونقطة منها بضوء الشمس فتحيا بالنهار، ثم يُسلخ منها وإلى نقاط وآفاق أخرى ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾: داخلون في الظلام.

تعبير يصور الحقيقة الدائبة المتواترة الكونية بأدق تصوير، فليس النهار لابس الليل حيث الأصل في الأثير، الجوُّ الظلام، ثم يلبس النور النهار، وبانتقالة الشمس عن كل أفق يسلخ النهار عن الجو فيرجع ليلاً كما كان.

وما ألطفه تعبيراً ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ والسلخ هو إخراج الشيء مما لابسه والتَحم به، فكلٌّ من الليل والنهار متصل بصاحبه اتصال الملابس بأبدانها، لا - بل الجلود بحيوانها، ففي تخليص أحدهما من الآخر لحد لا يبقى منه شيءٌ، آية باهرة للمبدأ والمعاد، أن الله تعالى يسلخ لباس الحياة عن هذا البدن فيبقى ميتاً لا حياة فيه، ثم يرجعه حياً كأنه لم يمت قط!

فسلخ النهار من الليل ثم رجعه إليه ثم سلخ ورجع، آية ذات بعدين للحياة بعد الموت، أن الموت أصيل تعرضه الحياة ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾[٢] وأن عارضة الحياة متواترة متلاحقة متلاصقة.

فكما أن في الحياة الدنيا - مكاناً وزماناً - لبسٌ للحياة وخلعٌ، كذلك الموت خلعٌ للروح عن هذا البدن ثم لبسه للحياة الأخرى، طالما الحياة العارضية العادية هنا تصبح أصيلة دائبة هناك في الأخرى.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

وكما أن في إحياء الأرض بعد موتها إخراجٌ لحبِّها وثمرها فمنه يأكلون كذلك في لبْس الليل بالنهار وتكوير النهار على الليل حركات للحياة، فهما إذا آيتان للمبدأ والمعاد نعيشهما في كل مكان وزمان.

فليس سلخ النهارِ الضوء من الليل إلَّا بانسلاخ الشمس غاربةً في آفاقها، فإنها تجري لمستقر لها، فإن الظلمة عَرض قائم بالأثير لزامٌ، والنور عرض يعرض ذلك العرض بمعروضه، والنور تموُّج، وإذا كثرت الموجات النورية في الثانية الواحدة آلاف الملايين تصبح ضوءاً أحمر وأصفر وبرتقالياً وبنفسجياً إلى سائر الألوان السبعة، فإذا تعددت في الثانية الواحدة زهاء (٧٠٠) مليون تصبح ضوء النهار المرسل من الشمس وهو لباس على الظلمة العارضة على الجو، فإذا غربت الشمس سُلخ النهار من الليل ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾: جوهر مظلمٌ ألبس نوراً، فإذا سلخ منه النور رجع كما كان مظلماً.

ندرس على ضوء هذا السلخ، وذلك الإحياء للأرض، أصالة الموت وعارضية الحياة المتواترة على الميتات، الأرض الميتة تُحيى للإثمار، والليل المظلم يضاء لمنافع منها الإثمار، وكما الحياة الدنيا للإثمار كذلك الأخرى ويأحرى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[١].

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾:

و﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ ثالثة ﴿وَالشَّمْسُ﴾ حال أنها ﴿تَجْرِي﴾ طول حياتها وبجريها الدائب تَسلخ النهار عن الليل، ولولا حراكها لكان النهار سرمداً في أفقها، والليل سرمداً في آخر، ولكنها تجري، وبجَريْها تسلخ النهار عن الليل.

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

وهل إن جريها هو حركتها الدورية حول الأرض كما يُتراءى؟ وقد أثبتت النظرية العلمية أن الأرض هي التي تجري حول الشمس كما تجري حول نفسها!

أم إن جريها أعم من هذه الحركة وهي على أقل تقدير غير ثابتة، ومن حركات أخرى كشف العلمُ النقابَ عن وجه البعض منها وبقيت الأخرى؟ والمتراءى من جريها من مشارقها إلى مغاربها ليس إلّا صورة ظاهرة عن جري الأرض حولها! فكما أن راكب الطائرة يُخيَّل إليه أن الجاري هو الفضاء بما فيه حولها، كذلك سفينتنا الفضائية «الأرض» الجارية في يمّ الفضاء وخِضَمِّ الأثير تتراءى لركابها كأن الشمس والقمر هما الجاريان حولها و﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] وليست الأرض أجلاً لهما ولا مسمى، فلا يعني جريها حول أرضها.

فللشمس جريانات واقعية وأخرى خيالية علَّ منها أو أنها ما نراه من حركة الشمس حول الأرض، ومن الأولى حركتها حول نفسها دورية، وحركتها مع سياراتها نحو النسر انتقالية أماذا؟

وترى ما هو ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؟ هل هو - فقط - الأجل المسمّى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؟ وقضيتُه «إلى مستقر لها» الصريحة الخاصة لمنتهى الغاية الأخيرة من جريها!.

أم إن مستقرها هو الفلك الذي تجري عليه، والجادة الفضائية التي تسري فيها، فهو مستقر الجري، قرار جري بنظام دون قرار، وكما الأرض على حدّ تعبير الأمير عليه السّلام «وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال وأرساها على غير قرار...»؟ وليس ذلك لها أجلاً مسمًّى و﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾!

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ كجنس تناسب لها مستقرات عدة، تعنيها المصدر الاستقرار، واسم زمانه، ومكانه، وهي بين ما يتراءى لها، من مستقرات غروباتها عن كل أفق حيث تسلخ عندها الأنهار، وهذا مستقر لها فيما نرى كما ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾(١) ولا واقع لغروبها فيها ولا لأي مغرب إلَّا وجدان الرؤية وهي شارقة منذ خلقها إلى تكويرها وتكديرها، فغروبات الآفاق الأرضية ليست إلَّا لدوران الأرض حولها، وهذه من مستقراتها الزمانية والمكانية المتكررة في حياتها، وكما أن غاية ارتفاعها صيفاً وغاية انخفاضها شتاء هما من مستقراتها السنوية.

ومن ثم لها مستقر فيهما نهائياً في قيامتها وهي أجلها المسمى، وهو تكديرها النهائي عند تكويرها حين لا تبقى شمس تجري أو تسكن حيث تستقر عن كونها وكيانها فضلاً عن جريها، كما مستقرها البدائي هو تقدير العزيز العليم وبينهما متوسطات: بين المبدأ والمعاد.

ولا جامع بين هذه المستقرات في بُعديها أدبياً إلّا «لِ» دون «إلى» مع العلم أن الأهم هنا مستقرها المبدأ ومستقرها المعاد المسمى في أجلها كما في آيات عدة.

فـ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ تعم مصدر المستقر لاستقرارها طول جريها بتقدير الله وكغاية لها في جريها بقصده، واسم زمانه ومكانه في دنياها وأخراها، مهما كانت الأصالة المعنية مبدأها وأجلها المسمّى، و﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾: تقديراً لها حَيَوياً سلخاً للنهار ولباساً له، كحياة وموت متواترَين تِلوَ بعض في جريها الدائب على فلكها، وتقديراً لتكويرها في مستقرها الأخير وأجلها المسمى، ثم يجدد الله حياتها بعد تكويرها حين ﴿لَا

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

﴿يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[(١)] كميِّزة لأهل الجنة، فلولا وجود الشمس يوم القيامة، كان أهل الجنة وأهل النار سواء في عدم رؤيتها والزمهرير، مهما كانت هي الوحيدة في هذه اللمحة بين الـ(٣٣) من آيات الشمس!.

في قيامة الإماتة تُكوَّر الشمس كما سائر الأحياء إلّا من شاء الله، ثم في قيامة الإحياء تُحيى الشمس كما سائر الأحياء دونما استثناء، ففي جري الشمس لمستقر لها آية القدرة الإلهية، وكما في توالي الموت والحياة حتى لغير المكلفين، فهم أحرى بذلك في ميزان العدل والرحمة و﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وأين هذه المستقرات للشمس الجارية و«لا مستقر لها» كما يروى عن الأئمة الثلاثة[(٢)] نفياً مستغرقاً لأي استقرار، وهي على أقل تقدير لها مستقر التكوير بالمُبدىء العلي القدير، وساحة الأئمة براء عن كل تجديف وتحوير!

ولأن الشمس من الكواكب وهي كلها في السماء الدنيا، فلتطرح الرواية بجريها في السماوات السبع[(٣)] أو تؤوّل كما يناسب القرآن، فقد تعني

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

(٢) مجمع البيان وروي عن علي بن الحسين زين العابدين وأبي جعفر الباقر وجعفر الصادق عليهم السلام «لا مستقر لها» بنصب الراء. أقول وهذا باطل لفظياً حيث يحمل فرية التحريف ومعنوياً كما بيناه في المتن.

(٣) نور الثقلين ٤ : ٣٨٥ ج ٤٧ في كتاب التوحيد بإسناده إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: كنت آخذاً بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونحن نتماشى جميعاً فما زلنا ننظر إلى الشمس حتى غابت فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! أين تغيب؟ قال: في السماء ثم ترفع من سماء إلى سماء حتى ترفع إلى السماء السابعة العليا حتى تكون تحت العرش فتخر ساجدة فتسجد معها الملائكة الموكلون بها ثم تقول: يا رب من أين تأمرني أن أطلع أمن مغربي أم من مطلعي؟ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] يعني بذلك صنع الرب العزيز في ملكه بخلقه فيأتيها جبرائيل بحلة ضوء من نور العرش على مقادير ساعات النهار في طوله في الصيف وفي قصره في الشتاء أو ما بين ذلك في الخريف والربيع قال: فتلبس تلك الحلة كما يلبس أحدكم ثيابه ثم تنطلق بها في جو السماء حتى تطلع من مطلعها قال =

سجدتها تحت العرش خضوعها لإرادة الرب في عرش التدبير فـ «مستقرها تحت العرش»[(١)] تعني لها مستقراً لجريها هو ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ تقديراً لجريها كماً وكيفاً، وتقديراً لعُمرها وكل أمرها.

فالشمس تجري لمستقر تقدير العزيز العليم دونما فوضى، لكافة مستقراتها وجرياناتها في أولاها وأخراها، دونما تخلف ولا قيد شعرة ولا آن عن ذلك التقدير العزيز العليم!

إذاً فـ «لا مستقر لها» كـ «إلى مستقر لها» لا مستقر لها لفظياً ومعنوياً، فإن ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ تجمع كل مستقراتها من قراراتها في جرياناتها يوم دنياها، وإلى قرارها عند تكويرها[(٢)] في قيامتها، وإلى تجديد حياتها

= النبي ﷺ: كأني بها قد حبست مقدار ثلاث ليال ثم لا تكسى ضوءاً وتؤمر أن تطلع من مغربها فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ١-٢] والقمر كذلك من مطلعه ومجراه في أفق السماء ومغربه وارتفاعه إلى السماء السابعة ويسجد تحت العرش ثم يأتيه جبرائيل بالحلة من نور الكرسي فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

أقول سير الشمس والقمر في السماوات وسجودها تحت العرش بانتظار أمر الرب، كل ذلك تعبيرات عن مستقر تقديره تعالى، فـ ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] تبتدئ من المستقر الربوبي وتنتهي إلى مستقر قيامتها.

(١) الدر المنثور ٥: ٢٦٣ - أخرج عبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال: يا أبا ذر! أتدري اين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] قال: مستقرها تحت العرش، وأخرج عند جماعة عنه ﷺ عن الآية قال: «مستقرها تحت العرش» وفي نقل ثالث عنه قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي ﷺ جالس فقال: يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حين تسجد بين يدي ربها فتستأذن في الرجوع فيأذن لها ربها وكأنها قيل لها اطلعي من حيث جئت فتطلع..

أقول: فهذه رواية واحدة عن أبي ذر تشترك في قوله ﷺ: «مستقرها تحت العرش» والمعنى المناسب أن مستقرها في كل قرار هو أمر الرب، جرياً ووقوفاً أم أياً كان.

(٢) راجع سورة التكوير ج ٣٠: ١٣٧ للتعرف إلى تكويرها.

لقرارات أخرى في أخراها، فكل جري لها وكل قرار باديءٌ من مستقر التقدير من عزيز حكيم، ومُنتهٍ إلى ذلك المستقر من العزيز الحكيم فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

وللشمس في مستقرها الأخير يوم التكوير آراء متهافتة، من مائل إلى أنها سرمد في حراكها، كما العالم أجمع كقسم من الدهريين، ومن قائل على ضوء العلم أنها تجري إلى انقراضها[2] ولا نجد تعبيراً كالذي في القرآن عن جريها لمستقر لها وتكويرها وجمعها مع أخيها القمر، فلها كورها بعد دورها كما لكلٍّ كائن دور وكور و﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

تقدير بعزة وعلم ولا تقدير إلَّا بعد عزة وعلم، وبعد التقدير قضاء وإمضاء وكما سئل العالم: الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: كيف علم الله؟ فقال: علم وشاء وأراد وقدَّر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدر، وقدر ما أراد، فبعلمه كانت المشية وبمشيته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير وبتقديره كان القضاء وبقضائه كان الإمضاء، والعلم متقدم المشية، والمشية ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فللّه تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء، فلا بداء، فالعلم في المعلوم قبل كونه، والمشية في المُنشأ قبل عينه، والإرادة في المراد قبل قيامه، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الأجسام المدركات بالحواس من ذوي لون وريح ووزن وكيل ومأدب ودرج من إنس وجن وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس فللّه تبارك وتعالى فيه البداء مما لا عين له، فإذا وقع العين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) المصدر.

المفهوم المدرك فلا بداء والله يفعل ما يشاء، فبالعلم علم الأشياء قبل كونها، وبالمشيَّة عرف صفاتها وحدودها وأنشأها قبل إظهارها، وبالإرادة ميَّز أنفسها في ألوانها وصفاتها، وبالتقدير قدر أقواتها وعرف أولها وآخرها، وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلهم عليها، وبالإمضاء شرح عللها وأبان أمرها و﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[(١)].

وختامه المسك لمحة لامعة أن جري الشمس ومعه كل جري ليس إلَّا بتقدير العزيز العليم، فللكل مبدأ ومعاد وبينهما متوسطات الحياة، فلجري الشمس مستقر التقدير من الله إلى مستقر التكوير وبينهما عوان من مستقرات غروباتها وجريها في فلكها، ومن الفارق بين المستقر وسواه أنه مصدر لفظياً ومعنوياً وسواه صادر اسم زمان أو مكان.

فالشمس إذاً تجمع بين مستقرات لها فعلية هي لزامها في كونها وكينونتها، ومستقرات مستقبلة في أمكنة وأزمنة آتية يومياً وسنوياً وعند تكويرها ومن ثم خلفها مرة أخرى.

فكما أن مستقرات الغروبات للشمس - المتكررة يومياً - ليست إلَّا مرئيات وهي في الحق شارقة دوماً، لا غاربة ولا لحظة، كذلك الأموات هم في الحق أحياء مهما نراهم في ظاهر الأمر أمواتاً، فليس الموت فناءً وفوتاً حتى تُستبعد رجعة الحياة، فالروح بعد الموت هو الروح وأروَح منه، والبدن هو البدن بمادته، فعملية الإحياء ليست إلَّا خلق الأمثال للأبدان ونقل الأرواح إليها.

وكما أن المستقر الأخير للشمس في التكوير ليس هو الأجل الأخير حيث ترجع بمثلها، كذلك الإنسان لا يعني موته عن هذه الحياة فوته عن أية حياة.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٥ ج ٤٨ في أصول الكافي الحسين بن محمد عن معلى بن محمد قال سأل العالم (عليه السّلام). . .

وكل ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فله القدرة على كل تحوير وتغيير وتقدير، وله العلم كذلك دون أي مانع ونكير!.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾:

«و» آية لهم رابعة ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ له في جريه كما يتراءى مكاناً ومكانة وزماناً، ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ كما بدأ في منزله الأول ليلة هلاله واستهلاله ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وهو عذق النخلة اليابس إذا قدم فانحنى.

فالقمر في منازله الثمانية والعشرين، يبتدئ من هلاله مبتدراً كالعرجون القديم إلى ختامه كالعرجون القديم كما بدأ، فهو كالولد حين يولد ثم يكبر رويداً رويداً حتى بدْرِه الأربعين، ثم يتنازل شيئاً فشيئاً منكَّساً ويرجع كالولد ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[1] ثم يموت ومن ثم الحياة كما بدأ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[2].

وهذه آية لتواتر الموت والحياة تلو بعض، وكما القمر في منتقص منازله يتراءى للناظرين ناقصاً عن بدره لحد الانمحاء التام، ولكنه لا ينتقص في واقعه، وإنما يحتجب بحُجُب، كذلك ميت الإنسان ليس بميِّت وإنما الحياة الروح تحتجب عن هذا البدن ثم تعود إليه يوم المعاد.

وعلَّ العود كالعرجون القديم لمحة إلى أن المُعاد في المَعاد ليس كل البدن، وإنما أصله العرجون الذي عاشه طول حياته، فالأقمار الإنسانية وأضرابها تُقدَّر منازل في سيرها الحيوي حتى تنمحي ثم تعود كأصغر ما كان كالعرجون القديم، حيث يمثِّل كيان الإنسان كأصلٍ عاشه في حياته خيِّرة وشرِّيرة.

أهلَّة القمر الثمانية والعشرون تفيدنا مواقيت الشهور والحج ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[١] وتفيدنا إمكانية المعاد وكيفيته لوجه ما.

للقمر في منازله أشكال حسبها كما قدرها العزيز العليم، من منزل المحاق أو الاقتران والاجتماع والتوليد، لا يرى فيه لأن وضعه مجاور جداً في الظاهر للمحل الذي تشغله الشمس في السماء، فيوجه نصف كرته المظلم المحجوب عن الأشعة الشمسية نحو الأرض ماكثاً في استتاره يومين أو ثلاثة، ولكن لحظة الاقتران المضبوطة التي يستدل عليها من السنويات الفلكية، تحصل متى كان للشمس والقمر طول واحد.

وفي اليوم الثاني أو الثالث بعد تلك اللحظة يظهر القمر ليلاً بعد غروب الشمس بمدة قليلة على شكل هلال رفيع تحدُ به نحو القطعة التي توجد فيها الشمس تحت الأفق، وبسبب الحركة اليومية يغرب القمر بعد قليل في الأفق الغربي.

وفي اليوم التالي تحصل الحالة بعينها ولكن الجزء المستنير فيه أعظم، ولأنه فيه أبعد من سابقه عن الشمس يتأخر غروبه.

وفي اليوم الرابع بعد الاقتران يغرب بعد الشمس بثلاث ساعات.

وبعد اليوم الرابع يسمى التربيع الأوّل، ثم ينمو شيئاً فشيئاً، وبين اليوم السابع والثامن من لحظة الاجتماع يظهر لنا نصف دائرة ويرى في النهار مدة، والحركة اليومية لا تأتي به في مستوى الزوال إلَّا بعد مرور الشمس به بست ساعات تقريباً.

وبين التربيع الأول والبدر تمضي سبعة أيام أخر، في غضونها يقرب الجزء المستنير شيئاً فشيئاً حتى يصبح دائرة تامة وبدراً كاملاً.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

وبعد الاقتران بخمسة عشر يوماً يظهر لنا قرصاً بأكمله مستنيراً، ولحظة شروقه - إذاً - كلحظة غروب الشمس حيث تشرق عند غروبه، ومتى ارتقى إلى أعلى نقطة من سيره وهو بمستوى الزوال يكون نصف الليل، وفيه تمرُّ الشمس تحت الأفق بمستوى الزوال الأسفل بحيث يكون القمر مقابلاً للشمس بالضبط بالنسبة للأرض.

وبعد ذلك يتناقص على التوالي ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وفي البين له التربيع الثاني نازلاً عكس التربيع الأول صاعداً.

فالمنازل الرئيسية هي المحاق والهلال والتربيع الأوَّل والبدر والتربيع الثاني ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

ولأن قِدَم العرجون لأقل تقدير هو ستة أشهر فقد يصدق عليها القديم لأقل تقدير، فقد نصدِّق الرواية القائلة بسناد الآية أنها من القديم(١) حيث القرآن أطلق عليها القديم.

ولأن العرجون القديم هو عَذْق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته، وقديمه المنحنى المقوَّس بصفرته، فوجه الشبه إذاً هو مثلث الاصفرار والدقة والاعوجاج، وهو بداية المنازل، ونهايتها العودة كما بدأت.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٨٦ القمي حدثني أبي عن داود بن محمد النهدي قال: دخل أبو سعيد المكاري على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال له: أبلغ من قدرك أن تدعى ما ادعاه أبوك؟ فقال له الرضا عليه السلام: ما لك أطفأ الله نورك وأدخل الفقر بيتك أما علمت أن الله عز وجل أوحى إلى عمران أني واهب لك ذكراً فوهب له مريم ووهب لمريم عيسى فعيسى من مريم ومريم من عيسى وعيسى واحد وأنا من أبي وأبي مني أنا وأبي شيء واحد فقال له أبو سعيد: فأسألك عن مسألة قال: سل ولا أخالك تقبل مني ولست من غنمي ولكن هاتها فقال له: ما تقول في رجل قال عند موته: كل مملوك لي قديم حر لوجه الله؟ قال: نعم ما كان لستة أشهر فهو قديم حرّ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فما كان لستة أشهر فهو قديم حر قال: فخرج من عنده وافتقر وذهب بصره ثم مات لعنه الله وليس عنده مبيت ليلة.

و﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ دون «قدرنا له منازل» أم «ذا منازل» كما تكلفوهما تقديراً، علَّه لأن منازله ظاهرة في نفسه بالمحاق والهلال والتربيعين والبدر، بين منازل الصعود والنزول، مهما كانت له منازل في مسيره ليل نهار، ولكنما المقصود هنا منازله الأولى التي تنتهي إلى العرجون القديم.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

في تقدير العزيز الحكيم نظام دائب حَيَوي دونما فوضى جزاف فـ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في جريها لمستقراتها الحيوية، وهي أكبر منها وأقدر بملائين الأضعاف، لاختلاف الفلك المجرى المقدر لكلٍّ منها، واختلافهما في جريهما كماً وكيفاً، فلو أدركته في سيره بمسيره لكان في شهر واحد صيف وشتاء أمَّا ذا من فوضويات التكوين! فإذا كان القمر على أفق المشرق أيام الاستقبال كانت الشمس على أفق المغرب تقابله، ويطلع القمر عند غروبها ويغرب عند طلوعها، فلا ينبغي للشمس أن تدرك القمر، ولو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه، وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عنه ولا تدركه، لبقيا لمدة مديدة في مكان واحد، لأن حركة الشمس كل يوم درجة، فقدر العزيز العليم في السيارات حركاتٍ أخرى دون حركة الشهر والسنة هي الدورة اليومية، فلا تسبق - إذاً - سيارةٌ أخرى، إذ تطلع كلٌّ وتغرب مقابلها، وفي ذلك النظام ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا . . .﴾.

كما ولا ينبغي لها أن تدركه في ميِّزاته الذاتية وتأثيراته الخاصة فضلاً عن أن يدركها القمر في ميِّزاتها وخواصها، فلا درك هنا ولا هناك ولا تدارك إلَّا درك التلاقي الجمع يوم التلاقِ الجمع: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[1]

(١) سورة القيامة، الآية: ٩.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ. . .﴾(١).

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ كما لا يسبق النهارُ الليل، - إذاً - يجتمع ليلان أو نهاران فيختل بذلك النظام، فـ : «الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل، لا ينبغي للشمس أن تكون مع ضوء القمر ولا يسبق الليل النهار فلا يذهب الليل حتى يدركها النهار ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وَكُلٌّ فِي فَلَك يَسْبَحُونَ يجيء وراء فلك الاستدارة»(٢).

ولأن الليل والنهار متضايفان، فلا ليل إلّا بعد نهار حيث الليل يحصل بغروب الشمس عن الأفق، فليس الليل - إذاً - سابق النهار منذ البداية، كما لا يسبقه حتى النهاية وكما وردت به الرواية(٣).

في سبق الليل النهار تأخير طلوع الشمس قدر الليل فيقوم - إذاً - مقام النهار وهذا لا ينبغي في نظام الكون.

---

(١) سورة التكوير، الآيتان: ١، ٢.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٣٧٨ ح ٥٢ تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية.

(٣) نور الثقلين ٤ : ٣٨٧ ح ٥٣ عن المجمع العياشي في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال: كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا والفضل بن سهل والمأمون في الإيوان بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا عليه السلام : إن رجلاً من بني إسرائيل سألني بالمدينة فقال: النهار خلق قبل أم الليل فما عندكم؟ قال: وأداروا الكلام فلم يكن عندهم من ذلك شيء فقال الفضل للرضا عليه السلام : أخبرنا بها أصلحك الله قال: نعم من القرآن أم من الحساب؟ قال له الفضل: من جهة الحساب فقال عليه السلام قد علمت يا فضل إن طالع الدنيا السرطان والكواكب في موضع شرفها فزحل في الميزان والمشتري في السرطان والشمس في الحمل والقمر في الثور فذلك يدل على كينونة الشمس في الحمل في العاشر من الطالع في وسط الدنيا فالنهار خلق قبل الليل وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] أي قد سبقه النهار.

وفيه عن روضة الكافي ابن محبوب عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إن الله خلق الشمس قبل القمر وخلق النور قبل الظلمة.

وفي الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل: فخلق النهار قبل الليل؟ قال: نعم خلق النهار قبل الليل والشمس والقمر والأرض قبل السماء.

إذاً فللنظر في رد الشمس وأضرابه مجالات هذه منها في حقل النظام المقدر الحيوي و﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ. . . ﴾!

ومن سبق الليل النهار أن يمانع ظهور النهار والجو الحامل لهما واحد، كذلك لا ينبغي أن يكون الموت سابق الحياة أن يمنع لحوقها بعده في الدار الحيوان، كما الحياة لم تمنع الموت قبل الحياة الحَيَوان.

وكيف ينبغي الفوضى - إذاً - في دركٍ أو سبْق «و» في ذلك التقدير «كلٌّ» من الأرض والشمس والقمر ﴿فِى فَلَكٍ﴾ يخصه، وجادة معبَّدة فضائية تخصه ﴿يَسْبَحُونَ﴾؟!

كل من هذه الثلاث عمالٌ للدرْك والسبق سلباً وإيجاباً دونما استغلال لليل أو نهار، فإنما هو الأرض والشمس والقمر السابقة الذكر، العاملة لحادث الليل والنهار، ولإمكانية السبق والدرك لولا ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فلا سبحَ لليل ولا نهار ولا فلك فيه يسبحان، اللهم إلَّا سبحاً بالأرض في فلكها.

إن لكلٍّ من سابحات اليمِّ الفضاء فلكاً تسبح فيه، وجادّةً فضائية جادَّةً لا تنزلق عنها، وإلَّا لاصطدمت وتساقطت وتناثرت وقامت قيامتها!

﴿كُلٌّ﴾ هنا دون ريب تعم ولأقل تقدير هذه الثلاث، ومما يبرهن له ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ دون «يسبحان».

ولماذا السابحات هذه وهي غير العاقلة «يسبحون» وهي للعقلاء؟

لأن سبحها في أفلاكها هو سبْح العقلاء وأعقل، إذ لا تغرق في يمِّ الفضاء ولا تنزلق عن أفلاكها، ولا تتغير عن حِراكها المقدرة لها، فللأرض فلكها وحراكها، وللشمس فلكها وحراكها، وللقمر فلكه وحراكه دون تبادل واصطدام، ولا تعارك فانهزام، اللهم إلَّا في حرب قاصدة هادفة يوم القيام.

هذه الثلاث كأضرابها من سابحات السيارات تسبح دائبة في خِضِمِّ الفضاء الفسيح، وهي على ضخاماتها الهائلة لا تعدو أن تكون نقطاً وسِماكاً

صغيرة في ذلك اليم دون خرق أو غرق، وكم من خارقة وغارقة في خِضمِّ الحياة من إنسان وسواه وهو من أعقل العقلاء.

وحقيق للإنسان أن يتضاءل أمام هذه السابحات ويتساءل العزيز العليم، ما هذه القدرة الشاملة التي انتظمت هذه الملائين الملائين من سابحات السيارات التي لا تُحصى؟... والجواب ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فهل بعد من ريبة في إحيائه الموتى وهو أهون عليه من ذلك التنظيم القويم!

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ خامسة للمبدأ والمعاد ﴿أَنَّا حَمَلْنَا...﴾ وترى مَن هم المعنيون بـ«هم» ثم من هم ذريتهم؟ ومن ثم ما هو الفلك المشحون؟

﴿لَهُمْ﴾ تعني الموجودين زمن نزول الآية لأقل تقدير ومتيقنه، حيث الآيات الخمس وأضرابها المسرودة في القرآن تعني توجيه الحاضرين كمبتدأ الدعوة، ومن ثم الآخرين لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم.

أترى ذريتهم هم أولادهم، فإنها الأولاد من الذر: الصغير - كما في آياتها الـ (٣٢) دونما استثناء؟ وهم لم يُحملوا أنفسُهُم في الفلك المشحون: سفينة نوح، فضلاً عن ذريتهم!

أم أن ذريتهم هم أولادهم والفلك المشحون هي السفن الموجودة زمنهم؟ ولكنه مشحون من مبعدات في أبعاد:

فالفُلك يأتي مفرداً كما هنا وفي عديدة سواها، وجمعاً كأخرى ومنها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[1] ولم يأت المشحون في

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.

آيات الفلك الـ «٣٢» إلا شذراً! ثم وأين ذلك الفلك الواحد الذي حمل - فقط - ذريتهم زمنهم وهو مشحون؟ ثم هل هو مشحون بهم وذريتهم أم وسواهم بذريتهم أم هم جميعاً بهم؟ وهكذا حمل أسهل وأرحم من حمل ذريتهم بخصوصهم لو كان! والفلك أياً كان يحملهم وذريتهم مشحوناً وغير مشحون.

ثم لا يحمل الفلك صفعة المشحون إلّا هنا وفي الشعراء ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[1] شحنة تجمع النماذج من بني الإنسان ومختلف الـحـيـوان: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ...﴾[2] شحنة مطلقة تجمع من دوابِّ الأرض ما تبقي نسلها، ثم لا نجد مشحوناً آخر في (٣٢) فلكاً في سائر القرآن إلّا نسبياً في يونس ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[3].

إذاً فليس الفلك المشحون الحامل ذريتهم إلّا فلك نوح[4] إذ لا يحملهم يونس، فلا نحتمل أنه فلك زمَنه يحمل - فقط - ذريتهم، كما وتؤيده أخيراً ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ وإذا لم يكن فلكاً بخصوصه وعم كل فلك فما مثله إلّا نفسه؟

أم أن ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هنا هم جدودهم الأعلون الناجون في سفينة نوح عليه السلام بتأويل أنهم ذرُّوهم كما أنهم ذرَوا منهم؟ وليست الجدود ذرية لا في اللغة ولا في القرآن كلما أتت بمختلف صيغها في الـ «٣٢» موضعاً وقد

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١٩.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٤٠.

(٤) نور الثقلين ٤ : ٣٨٧ ج ٥٦ في كتاب الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه قال: فما التسعون؟

قال: الفلك المشحون اتخذ نوح عليه السلام فيه تسعين بيتاً للبهائم، وفي الدر المنثور ٥ : ٣٦٤ هي سفينة نوح - أخرجه جماعة عن أبي مالك وأبي صالح وابن عباس.

قوبلت بالآباء الشاملة للجدود: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ...﴾[1] ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[2] و(٤٠: ٨).

فليست ذريتُهم جدودهَم بل هم من ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[3].

وحتى إذا أتت الذرية بمعنى الجدود في لغة شاذة وما أتت، لا ينبغي حمل لغة في القرآن على الشاذ، الشارد عن مستعملات القرآن واللغة الرائجة الفصحى!

اللّهم إلّا أن يعني بها هم أنفسهم بجدودهم وأولادهم إلى يوم القيامة، صيغة واحدة تضم مثلث المعاني مهما اختلفت مراتبها في إطلاق الذرية عليهم، وهو عبارة أخرى عن النسل الإنساني منذ نوح حتى القيامة الكبرى! وقد لا تلائم الجدود آية الجارية لمكان «كم» أم لا تنافيها حيث «كم» فيها لا تمانع أعم منه هنا.

فـ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إذاً لا هم أولادهم ولا جدودهم، بل هم أنفسهم وقد كانوا ذرية في أصلاب مَن حُمِل مع نوح ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾[4] ولم يُحمل المخاطبون هنا في الجارية إلّا وهم ذرية[5] إذاً فـ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هنا من إضافة الشيء إلى نفسه وكما في آية الذر ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ...﴾[6] [7] حملناهم في الفلك المشحون وهم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٤) سورة الحاقة، الآيتان: ١١، ١٢.

(٥) راجع تفسير آية الجارية إلى ج ٢٩ من الفرقان.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٧) فـ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١] في آية الذر ليست لتعني أولادهم، فإن «بني آدم» تشملهم بأولادهم،=

ذرية، وكما أنهم كانوا ذريةً في الفلك المشحون، فبأحرى ذريتهم الموجودين والذين يأتون إلى يوم الدين، إذاً فـ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تعني أنفسهم وهم ذرية، وبضِمنهم ذريتهم إلى يوم القيامة حيث الكل حملوا في الفلك المشحون في أصلاب من حمل مع نوح ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[1].

وهذه منة ربانية بنعمة بالغة أنه حملهم في الفلك المشحون الجارية ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ وهم ذرية في أصلاب آبائهم ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ ولا صراخ مهما كان لآبائهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ. . .﴾.

أوليس الذي حملكم في الفلك المشحون وأنتم ذرية بقادر على أن يحمل أرواحكم بأجسادكم بعد موتكم في فُلك الأرض المشحون، السابحة في خِضمِّ الفضاء وأرواحُكم هي أرواحُكم وأجسادُكم من أجسادكم، يحملكم ليعيدكم فيها مرة أخرى؟ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۢ . . . قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

فآية القدرة البارعة الإلهية لإمكانية المعاد، باهرة في ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ رحمة كامنة تظهر يوم المعاد، كما كانت لذريتهم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ هم أنفسهم، فبعدما حُملوا في أصلاب آبائهم في الفلك المشحون كنعمة سابقة سابغة، يُحملون هم كآباء حاملين ذريتهم في مثله تداوماً في أنسال بني الإنسان.

= ففيما تعني «هم» في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآباء فقط من بني آدم، فالأبناء أيضاً آباء لآخرين كما الآباء أبناء للأولين، فلا يصح ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلا كونها إضافة الشيء إلى نفسه، والمقصود ذرية الأرواح لمكان ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهي الفطر لأنها أعمق أعماق الأرواح كما النطف أعمق أعماق الأجساد، فالأرواح تتبنى الفطر كما الأجساد تتبنى النطف والتفصيل راجع إلى محله.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٢) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

وهنا ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ دون «مثله» لتعم كافة أمثاله مما يُركب. فالمماثلة بين فلك نوح المشحون، قد تكون تامة، ولا تعنيه ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ إذ لا مثيل له تاماً طول التاريخ الإنساني، أم غير تامة تلمح لها «من» فقد تكون مماثلة في «المشحون» نسبياً، أم - فقط - في كونه فلكاً، أم وحتى أية سفينة أمَّاهيه من مركوبات بحرية، أم - فقط - في كونه مركوباً بحرياً أو برياً أو جوياً، مصنوعاً أم حَيواناً وأيّاً كان من مركوب طول الزمان وعرض المكان، فقد تعني «من مثله» كل هذه الأمثال على اختلافها كوناً وكياناً.

فالآية - إذاً - على غرار ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1] إذ تشمل ما علَّه شملته آية ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ - ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾[2] ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾[3] اللّهم إلّا بفارق المضي في ﴿وَخَلَقۡنَا﴾ هنا و«يخلق» هناك حيث تخرج المخترعات المستقبلة عن نطاق الآية ويبقى ما مضى.

فتعم كل ما صنعه الإنسان ويصنعه من سفن فوق البحرية وتحت البحرية والجوية التي تسبح في البحر كما في الفضاء والبر، بمختلف الوسائل الشراعية بالرياح، والبترولية والكهربائية والذرية أمَّاذا؟.

﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم﴾ لا ينافي أنها من صنعهم، فإن الله هو خالقهم وخالق المواد والطاقات التي يستخدمونها، وخالق العقل الذي يدبرها كيف يخترعها؟ فهم بما صنعوا خلقناهم وخلقنا لهم، فنصيب الصانعين والمخترعين مما صنعوا أو اخترعوا بجنب ما خلق الله ضئيل هزيل، إذ لا يبقى لهم منها إلا اختيار الفعل، وهو أيضاً من خلق الله، فهي من حيث الخلق والصنعة إلى الله أنسب منها إليهم وأقرب.

(١) سورة النحل، الآية: ٨.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ١٢.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ لا تشمل مركوبات البر، ولكنها تعم البحرية وفوق البحرية، ثم البحرية ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ تعم غرقهم في سفينة نوح. إذاً ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ تعني لا صراخ لهم إذ لا كون لهم ولا كيان إذ هم ذرية في أصلاب آبائهم وبأحرى ﴿وَلَا يُنقَذُونَ﴾.

ثم في سفن أخرى ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ تعم صراخهم كما هم في الفلك المشحون، والذي يستجيبهم في صراخهم، ولذلك ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ دون «لا صراخ لهم» علَّه ليشمل الأمرين، ثم ﴿وَلَا يُنقَذُونَ﴾ حتى إذا كان لهم صريخ وصراخ، إذ لا يقدر أحد أن ينجيهم والله يشاء أن يغرقهم!

فلك في خِضِمِّ البحر الملتطم كالريشة في مهب الرياح المتماوجة وعصف في بثْج الأمواج الهائجة، لا يدرك هوله إلَّا غامر البحار، فمن ذا الذي ينجي الغرقى حين تقطعت بهم الأسباب ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

أجل ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ من غرقه تعالى ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهنا يصح المقال: أعوذ بك منك، وبرحمتك من عذابك، ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ قرر في الذكر الحكيم واللوح المحفوظ، متاع الحياة ابتلاءً وامتحاناً لعلهم يتقون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

رغم كافة الآيات الدالة على المبدأ والمعاد هم أولاء الحماقى الأغفال لا يتبصرون بها ﴿وَإِذَا قِيلَ ... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لا يتقون.

لا يأتي هنا صراح الجواب إذ هو معروف من حالهم النكدة البئيسة، وبما يعمم حالهم: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ تعم: حالهم الحاضرة وما تستقبلها يوم الدنيا، وحياتهم الأخرى التي يستقبلونها بعقوبات فيهما فإنهما ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ كما وأن «ما خلفكم» تعم حالهم الغابرة هنا والحياة الدنيا بأسرها التي يستدبرونها بما أصاب مَن قبلكم من عقوبات،

وتقوى الآخرة هي حصيلة تقوى الدنيا بترك الطغوى فيها[١] والتذكر بآيات الرب والتربِّي بها.

هذه الآيات الصارمة هي بذواتها تكفي هزَّة وارتعاشة وانتفاضة لقلب مفتوح، ولكنهم على قلوبهم أقفالها ورينها ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾:

كلمة إيمان يقولها النبي ﷺ والذين آمنوا، للذين كفروا ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ رزقكم لا لكم - فقط - أنفسكم بل و﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٣] ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[٤] ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ استنكاراً في عُجاب من قولة الإيمان، أن الرزق إنما هو بمشيئة الله، وليس إنفاقنا إيماناً بل هو شرك بالله واستقلال بجنب الله، فلو شاء الله لأطعمهم، دون حاجة إلى مطالبة وسيط والتكدي من عباده المرزوقين، فإذ لم يطعمهم الله لم يشأْ إطعامهم، فهل نحن أنداد له ألدّاد حتى نخالف مشيئته، أو نَخلُفه في رازقيته؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ المؤمنين ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يبينه ذلك الاقتراح الضال، حيث يمس من كرامة التوحيد والربوبية الوحيدة ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٥] لا ما سعاه غيره، فلا يرزق أحد إلَّا قدر سعيه، وأنتم تطالبوننا خلاف هذه السنة الإلهية.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٣٨٨ ح ٥٧ في المجمع روى الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: معناه اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب وما خلفكم من العقوبة.

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٧.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٥) سورة النجم، الآية: ٣٩.

إن حماقى الطغيان لم يشعروا، أو تجاهلوا الحقيقة الناصعة في الفرق بين المشيئتين: التكوينية والتشريعية، فقد يشاء الله أن يرزق بسعي أم دون سعي ولا راد لمشيئته، وهما وجهان من مشيئة التكوين كسنة إلهية أولى في الأرزاق، وقد يشاء أن يُنفِق المرزوقون المخلَّفون من فضل ما آتاهم ربهم للذين لم يُؤتَوا قدر الكفاف تحنناً وامتحاناً، ولكي يرتبط الخلق برباط العطف والحنان ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ سعياً في طلب الرزق، وسعياً في إنفاق العفو ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1] وهذا من خالص إيمان التوحيد، وهنالك تتوارد المشيئتان: التشريعية بالإنفاق، والتكوينية أن يرزق الفقراء بأيدي الأغنياء.

والحياة الدنيا ككل هي دار ابتلاء بتجاوب المشيئتين، فمن عصى الله لن يغلبه في مشيئته الأولى، بل هي الثانية التي يُعصى فيها، ومن أطاعه لم ينصره في أمر يعجز عنه، وإنما تشرَّف بكونه من أداة مشيئته.

وقد تكون هذه القالة الضالة من المجبرة وكما ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾[2] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[3] حصراً للأفعال كلها في مشيئة الله دونما وسيط الاختيار.

هي قولتهم في كل شيء، وقولة مَن سواهم من المغالطين أننا مهما كنا مختارين فالرزق بيد الله ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢٠.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

اقتراح متعنت مكرور على ألسنة الناكرين ليوم الدين[1] كأنه حجة على

(١) نجد نفس الصيغة في ١٠: ٤٨ و٢١: ٣٨ و٣٤ و٦٧: ٢٥: ٢٥. وآية يس خامستها.

المصدقين، وما هي الصلة بين كونهم صادقين وأن يعلموا متى وعدُ يوم الدين؟! أليس يعلم كلٌّ منا بيقين أنه سوف يموت ولكنه لا يدري متاه ومُداه، فهل لنا نكران موتتنا إذ لا نعلم وقته بيقين؟ إن هي إلّا هرطقة حَمقاء يخيِّلون إلى الحمقاء كأنها حجة على كذب هذا الوعد!

ولا جواب لهذا السؤال - وبعد كافة البراهين القاطعة على إمكانية وضرورة المعاد - لا جواب إلّا واقعه، إذ لا انتظار بعد لجواب آخر:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

وإنها صيحة الإماتة لقيامة التدمير، وتتلوها صيحة أخرى لقيامة التعمير، وترى كيف ينظرونها وهم ينكرونها؟ إنه واقع الانتظار وإن كانوا ينكرون، حيث المنتظَر لهم واقع الجواب، فإذا لا تقنعهم البراهين القاطعة فلتكفهم صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون.

إنهم ما ينظرون إجابة عن ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ فحتى لو حُدِّد لهم كذبوه وزيادة، فليس لهم - إذاً - إلّا واقع الانتظار لواقع الجواب وآخر الدواء الكي!

إن الصيحة الواحدة تأخذهم على غفلة ونكران، إذاً فالارتجاف أتم والإيخاف أعظم وأطمُّ، وتكفيهم إجابة عن سؤالهم المستهزئ المتعنّت، ثم الصيحة الثانية واقعة وليست إجابة بعد الأولى، ولذلك ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ لا أكثر، ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾[1] وتلكم الصيحة الواحدة تجعلهم حيارى لحد:

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

أهلهم كأمثالهم في أخذة الصيحة، فأين التوصية لهم أو الرجوع إليهم؟

(١) سورة ص، الآية: ١٥.

وحتى إذا لم تأخذهم! فالصيحة هي المانعة لهم عن هذه أو تلك وكما يروى عن الرسول ﷺ: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها»(١).

ثم تتلو الصيحةَ الواحدة نفخةٌ هي الصيحة الثانية للإحياء: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾(٢):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾:

ليس الصور جمعاً للصورة، وقراءة الفتح مردودة لمخالفتها المتواترة، ولرجوع ضمير المفرد المذكر إليه في سائر القرآن: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

وهنا نفختان هما الصيحتان، وصيحتان هما النفختان: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٣) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾(٤).

والصور هو البوق الصارخ في أعماق الأرواح فتفيق عن صعقتها الناتجة عن النفخة الأولى بأبدانها المثالية، وفي نسل الأبدان الدنيوية على قدر.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٦٥ - أخرج سعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٢) سورة ق، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٤) سورة النمل، الآية: ٨٧.

وهو نقرة الناقور[١] تضرب إلى الأعماق ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

فكما الصيحة الأولى أماتتهم لوطئتها، كذلك الثانية تحييهم لوقعتها، إزعاجة لها فاعليتها، إماتة مرة وإحياءةً أخرى، ولا عوان بين إماتة وإحياء للأرواح، فالصيحة الصور بين إماتة كالأولى وإحياءة كالثانية، ولأن الأرواح - إلَّا من شاء الله - مُصعَقة في النفخة الأولى، كما الأبدان ميِّتة، فنسلهم من أجداثهم إلى ربهم هو إفاقة الأرواح ورجعها إلى أبدانها ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٢] ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[٣].

وترى ما هو نسلهم من أجداثهم إلى ربهم؟

الأجداث هي القبور: الأمكنة التي تحوي الأجساد برزخية ودنيوية بأرواحها، سواء أكانت تحت الأرض أمَّاذا؟ مجموعةَ الأجزاء أم متفرقةً، منضمةً إلى أشياء أو أبدان أخرى أم مستقلة، فإنها لا تضلُّ عن علم الله مهما ضلت عنا، فللكل أجداث لأجسادهم وأرواحهم وهي المَحالُّ التي تضمها: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ . . . قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٤] ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[٥] ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[٦]: خروجاً للأرواح داخلة في أجسادها على قدر اللازم في المعاد.

---

(١) راجع ج ٣٠ من تفسير سورة النبأ ففيه نبأ فصل عن الصور.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٤) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٥) سورة المعارج، الآية: ٤٣.

(٦) سورة القمر، الآية: ٧.

والنسل هو الانفصال ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[١] انفصالاً من كل المرتفعات، كما انفصال الذرية عن الآباء: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[٢] ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾[٣].

أفترى أن نسلهم من أجداثهم هو - فقط - انفصالهم عنها بأجسادهم؟ وليس كل انفصال نسلاً! بل هو انفصال خاص في انفعال خاص كنسل الذرية عن الآباء وهو الخاص بيوم الدنيا، ونسل الإنسان مرة أخرى يوم الأخرى دون آباء ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٤] ولكنهم ينسلون هنا سراعاً دون مكوث الأولى في رحم أمَّاذا؟.

فإذا كان العود كالبدء إلّا في الآباء والمكوث في الأرحام، فليكن ﴿يَنسِلُونَ﴾ خلقاً لهم جديداً لهم كما خلقوا أوّل مرة.

إنهم ينفصلون بكل أجزائهم عن كل اتصال غريب، ثم تنفصل أجزاؤهم الأصيلة التي عاشوها في حياة التكليف وكل الحياة، ثم تنسل هذه الأجزاء لخلق آخر كالأوّل، دون اختلاف عن الخلق الأوّل إلّا فيما نعلمه هنا[٥] أمَّاذا؟ سراعاً ودون أصلاب وأرحام! فنطفته التي خلق منها أوّل مرة بطول الآماد والأبعاد، يخلق منها مرة أخرى دون أبعاد وآماد، ودون أصلاب وأرحام.

وهنا نسل الأرواح هو انفصالها عن صعقتها، ونسل الأبدان كما بيناه،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٥) كخروج النطفة من الصلب والترائب واستقرارها في الرحم طول مدة الحمل، وتنقُّلها من صورة إلى صورة حتى أنشأها الله خلقاً آخر.

ثم الأرواح ترجع إلى أبدانها، وهذا النسل المثلث يكون إلى ربهم ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[١]!

إن النفخة الثانية تنسلهم إلى ربهم سراعاً دون مَهَل، خلاف ما كانوا ينسلون من الأصلاب والأرحام يوم الدنيا، وأنهم يوم الدنيا كانوا ينسلون إلى ربهم بربوبية الامتحان بالتكليف، وفي الأخرى ينسلون إلى ربوبية الجزاء دون تكليف، وأين نسل من نسل، يوم الوصل ويوم الفصل؟

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

الويل والعويل هناك ليس إلَّا لمن كذب الرحمن والمرسلين، وكذب بيوم الدين، ولكنما المرقد يعمهم وجميع المكلفين، وما أحسنه وأوضحه تعبيراً عن الحياة البرزخية بالمرقد، ضلع متضلع بين مربع الاحتمالات في الحالة البرزخية[٢] وهي الآية الوحيدة اليتيمة التي تحمل لها سمة المرقد، والرقدة هي النومة مقابل اليقظة ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[٣] فالمرقد هو الرقدة وزمانها ومكانها.

ولأن القرآن كتاب هدىً وبيان، فليس ينقل مقالة زائفة زائغة إلَّا زيفها، فهم - على كفرهم - مصدِّقون في ﴿مَّرْقَدِنَا﴾ لا سيما وهم في نهاية البرزخ وبداية القيامة، فليسوا ليكذبوا على الله وهم في يوم الله.

إنهم حينذاك ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ وقد كنا نكذب بيوم الدين وهذا يوم الدين ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وقد كنا راقدين قبل بعثنا في برزخنا.

أترى كيف يعبر عن الحياة البرزخية بالمرقد وهم فيها أحياء يرزقون أو

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) فبعد التأكد من الحياة البرزخية كنا بين محتملات أربعة رابعها المرقد، والثلاثة الأخرى هي اليقظة الدائمة والرقدة الدائمة وغلب اليقظة على الرقدة، وعكسها وهي الرابعة.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٨.

يعذبون؟ لأن الغالب لهم فيها الرقاد دون رزق فيه ولا عذاب، فإنما اليقظة لهم بكرةٌ وعشيٌ ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[(١)] ﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[(٢)].

وكما أن غرفة النوم يغلب فيها النوم واليقظة قلة قليلة كمقدمة له ومؤخرة عنه، كذلك البرزخ هو كغرفة النوم، وهذا هو الذي يحملهم أن يقولوا ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[(٣)] أماذا من قلة قليلة من لبثهم في برزخهم.

وترى كيف يستنكرون بعثهم عن مرقدهم في عُجاب، وبحَسْبِهم الحياة البرزخية دليلاً صارماً على حياة الحساب الجزاء بعد الموت؟

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ليست إلّا تصديق الويل لهم ما لم يكونوا يحتسبون و﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ ليس استنكاراً، بل هو استعجاب، ولم تبرهن لهم الحياة البرزخية إلّا نفسها ولمّا يعلموا بيقين أنهم مبعوثون ليوم الدين، إذ تعرّق الكفر في أعماقهم لحد لا يخرج إلّا بواقع الحياة الحساب، فقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ثم أجابوا هم أنفسهم ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن نبعث من مرقدنا ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فيما أرسلوا به ومنه بعثُنا، أو أن الجواب من الله أو من يجيبهم عن الله؟ قد يعنهما «هذا...» ولو خُص بغيرهم لجيءَ بما يخصه، كـ«قيل» أو «قلنا»، ثم «الرحمن» دون «الرحيم» مما يلمح أنه قولهم مهما همَّ غيرَه، فلو كان قول الرحمن لكان «وعد الرحيم» حيث الرحمة الرحيمية هي المقتضية للحياة الحساب، مهما اقتضت الرحمانية إمكانية العود في المعاد، وليس - أخيراً - وعد الرحمن إجابته تعالى عن فاعل البعث، وإنما تحقيق الوعد وتطبيق الصدق.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٢.
(٢) سورة غافر، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٩.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخة الثانية في الصور كما الأولى ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ فالنفخة هي الصيحة النقرة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾(١) دون تكلّف الزيادة، فصيحة واحدة تأخذهم إماتة، وصيحة واحدة تحُضرهم لدى ربهم إحياءة!

أترى ليسوا هم أولاؤهم محضرين عند ربهم حتى يصبحوا في الأخرى محضرين؟... بلى قد كانوا ولكنهم في امتحان الإختيار، ثم هم يوم الأخرى ليس لهم امتحان ولا اختيار، فهم فيها ﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ حضوراً مطلقاً بعدما كانوا عنده بمطلق الحضور، وأين حضور من حضور؟

حضور قد يتخلف عن مرضاته وليس فيه هناك حساب ولا عقاب، وحضور لا يتخلف وفيه الحساب فالعقاب أو الثواب.

و﴿جَمِيعٌ﴾ تجمع الأولين والآخرين خروجاً عن خصوص الكافرين: قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى يوم الدين فـ«ذلك يوم الجمع» أم يخص الكافرين حيث المُحضَر تلمح لحضورٍ مكرَه، وليس في حضور المؤمن لذلك المَحضر أي مكره! وآيات «المحضرين» تخص الكافرين.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

لا تظلم نفس انتقاصاً في ثواب يستحقه بفضل الله كما وَعَد، أم في عقاب بزيادة فإنه بعدل الله كما أوعد، وعلى أية حال فـ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾(٢) فلا نفسٌ تَظلم نفسها حيث الحقائق مكشوفة والظلم نتاج الجهل أو الجهالة، ولا أية نفس تظلم غيرها - وكذلك الأمر - ولا أن الله يظلم نفساً، فإنما

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٧.

يحتاج إلى الظلم الضعيف، فلا المظلوم يوم الدنيا يُظلم في الأخرى ألا يُقتص من ظالمه كما يحق، ولا الظالم يُظلَم أن تزداد عقوبته على ظلمه، فالجو هناك جو العدل والفضل، وفي «اليوم» لمحة باهرة بانحصار الظلم في حياة التكليف الدنيا، وأما في البرزخ والأخرى فـ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ خلاف ما في الأولى ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

ثم وليس هناك جزاء ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عمل الجوانح والجوارح في عقائد وأعمال صالحة أم طالحة، وأما النيات فما هي بأعمال على أية حال، وإن كان المؤمن يثاب بنية الخير فبفضل الله وليس جزاءً إذ لا عمل، كما وفضل الثواب له عِدةٌ وُمدةٌ إنما هو بفضل الله، لا جزاءً يزيد عن العمل، ثم العدل في عقاب الطالحات يقتضي جزاءً وفاقاً، ومن أقله تجاوب الجزاء والعمل في كونهما محدودين عِدة وعُدة وتأثيراً.

وترى كيف يصدق ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على عقيدة القلب، وكيف تمثّل بخيرها وشرها جزاءً وفاقاً؟ العمل حين يقابل الإيمان فهو عمل الإيمان، وحيث يطلق يعمه وعمل الجنان، بل هو أحرى بصيغة العمل حيث يصاغ العمل عن العقيدة، ولأن العمل هو بملكوته وحقيقته هو الجزاء فليتمثل أياً كان من عمل الأركان والجنان، بل والبيئة الصالحة تتمثل كما الأعمال، كل على حِدَة.

ولئن لم تعن ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عقيدة القلب - إذاً - فلا جزاءَ بها إلّا ما يُعمل وِفقَها أو خلافها، اللّهم إلّا بتأويل أن العمل هو الجزاء ليس إلّا، حيث العقيدة تبرز في الأعمال على أية حال، ثم صالح العمل مشروط فيه صالح العقيدة والنية كما طالح العمل بطالحها، صالحاً بصالح وطالحاً بطالح.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٣.

ولأن المجزيين لا يُجزَون إلَّا ما كانوا يعملون، فلا موقع للظلم، فحتى أن الجزاء ليس انتقاماً في العقاب أو ثواباً في الصواب، فإنما العمل والعمل فقط هو الجزاء يوم الجزاء، بفضل الله أو عدله.

ولئن سُئلنا فما هو - إذاً - موقف الحسنات الحابطة بأسبابه والسيئات المعفوة بأسبابه؟ فالجواب أن الجزاء هو العمل الذي يبقى مع الإنسان إلى يوم البقاء، دون الحابط المعفو، فالتائب عن الذنب كمن لا ذنب له، كما الحابطة حسناته لا حسناتَ له!

ثم إنّ العمل أيّاً كان فهو محدود بحدود، فالجزاء الذي هو العمل كذلك محدود بحدود، ومهما خرج الثواب عن حدود ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإنما هو بفضل الله، فقولة القائلين بالعذاب لغير النهاية للخالدين المؤبدين فرية ظالمة هاتكة لساحة رب العالمين وأرحم الراحمين، ولقد بيناها في طيات آياتها كراراً ومدراراً.

﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في بُعديه جانحةً وجارحةً، فإنه في باطن ملكوته يوم الملكوت هو الجزاء، فليس الجزاء العقاب يومئذٍ انتقاماً، بل هو ظهور ما كان خفياً في عالم الخفاء ويصبح حلياً في عالم الظهور: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم» فأهل العذاب: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] وهم في الدنيا، في غفلة عنها، ثم ويحيط بهم وهم يحرقون بها! وأهل الثواب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3] ولا إخفاء إلَّا لكائنٍ حالهَ، ولا خفاء في

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٤.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

الدار الآخرة حيث ترى نفس كل جزاءه بالحسنى، فإنما الخفاء هنا، فالصورة الجلية للصالحات أتعاب وحرمانات، ثم الصورة المخفية ثواب ورحمات ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يحمله العمل بملكوته!.

لقد طويت الحوار حول يوم القرار في سرعة خاطفة عاطفة تلك المشاهد الثلاثة ببعض، متخطية إلى حالات لكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار:

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾:

إنهم - والحمد لله - في شغل عمن سوى الله وعما سوى الجنة ﴿فَٰكِهُونَ﴾ متفكهون فيها متنعمون بنعمها كلها ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[١] فهم «فاكهون» بكل فكاهات وفاكهات الجنة، فلا تعني ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أكل الفاكهة إذ يأتي بعد هنيئة ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ ثم «فَكَهَ» لا تعني أكل الفاكهة مهما شمله، فإن من الفكاهة حديث ذوي الأنس ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾[٢] ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[٣] ولا تختص النعمة بالفاكهة بل هي مطلق النعمة روحيةً ومادية: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٤] ومن كونهم فاكهين التفكه بالعذارى «حواجبهن كالأهلة وأشفار أعينهن كقوادم النسور»[٥].

وكأن الفاكهة أيضاً من الفكاهة فإنها نافلة الطعام وزهرته، وعلّ كل نافلة عن اللازم فاكهة، من عذارى الحور فإنهن نافلات الزوجات

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) سورة المطففين، الآية: ٣١.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الطور، الآية: ٥٢.
(٥) نور الثقلين ٤ : ٣٨٩ح ٦٥ في مجمع البيان في الآية وقيل شغلوا بافتضاض العذارى عن ابن عباس وابن مسعود وهو المروي عن الصادق عليه السلام قال: حواجبهن. . .

الإنسيات، ومفاخر الملابس والمساكن، ومؤنسات المقالات والمبصَرات أمّاذا من الماديات، وكذلك من المعنويات، ولذلك ترى الآيات التالية تذكر موارد من هذه كمصاديق لـ «فاكهين» ومنه فاكهة الأزواج:

و﴿فِي شُغُلٍ﴾ دون «على» أو «الشغل» يشغل البال بحيطة الفكاهة عليهم كأنهم فيها غارقون، لمكان «في» وأن شغلهم لا يوصف عِدةً وعُدةً لمكان التنكير ﴿فِي شُغُلٍ﴾!

وأفضل الشغل يوم الله وفي دار الله وبجنابه وحضرته القدسية: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] فأشغل ﴿شُغُلٍ﴾ لهم الحالة الروحية الغالية بلقاء المحبوب، ومن ثم ﴿فِي شُغُلٍ﴾ هامشي بمظاهر النعم، وذلك هو المشغول فيه.

وأما المشغول عنه فهو الطريق الشاق الطويل يوم الدنيا، المليء بالأشلاء والدماء، بالمكروهات والحرمانات وطول التصبُّر عن اللذات والمحرمات.

فهم يومئذٍ في شغل عن كل ذلك وعن كل مُسابب ومُناسب لا يناسب رحمة الله ولا تناسبه.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

وترى من هم ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾؟ أهم حلائلهم؟ ولسن كلهن من أصحاب الجنة! والتي هي منهم تشملها ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾!

﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ هم قرناؤهم الأتباع في الصالحات، وكما «أزواجهم» في الصافات هم قرناء أهل النار وأتباعهم في الطالحات: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

فـ «أزواجهم» هنا وهناك هم الأتباع، سواء أكانوا من أزواجهم سببياً كالبعولة والزوجات، أم سواهم، فـ «هم» فيهما تعني الأصلاء من أصحاب الجنة وأصحاب النار رجالاً ونساءً، و«أزواجهم» هم الفروع منهما رجالاً ونساءً، مهما شملت الحور العين[١] وبين البعولة وزوجاتهم من أهل الجنة والنار عموم من وجه!

إذاً فـ «هم» لا تختص بالبعولة، كما «أزواجهم» لا تختص بالزوجات، فمن الزوجات من هن أصيلات وبعولتهن الفروع، أم هم من أهل النار، كما العكس كذلك، فتفسير «أزواجهم» بحلائلهم تفسير رديء لا إجابة صالحة عن مشاكله. . .

و﴿فِي ظِلَـٰلٍ﴾ هنا وفي سائر القرآن لأصحاب الجنة لمحةٌ صريحة أن هناك شمساً يستظل منها، وإلّا فلا موقع لظلال إذ لا شمس مشرقة وحارة فـ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾[٢] ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[٣] و﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[٤] ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[٥] و﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[٦] آيات بينات تجاوب ﴿فِي ظِلَـٰلٍ﴾ أن هناك شمساً، ثم آية الزمهرير تُصارح: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[٧].

إن ظل الجنة عن الشمس من ميزات أصحابها، والسالبة بانتفاء الموضوع مسلوبة عن مذهب الفصاحة والبلاغة، مهما ذهب إليها المنطق

---

(١) المصدر في روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - حديث طويل وفيه عن حال أهل الجنة - والمؤمن ساعة مع الحوراء وساعة مع الآدمية وساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئاً ينظر بعض المؤمنين إلى بعض.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٧.

(٤) سورة المرسلات، الآية: ٤١.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ٣٠.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٧) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

تجويزاً عقلياً، ثم في ظلال لا يختص بظلال الأبنية والأشجار وسائر المظلات، بل وقبلها الأهم منها وأحرى ظلٌّ الله وظل رسول الله ﷺ وعترته الطاهرين عليهم السلام وقد تشير إليها «في» حيث المظلات الظاهرية هي فوق المستظلين وهم تحتها لا فيها، ولكن «في» تعني فيما تعني مع الظلال الظاهرة، الظلالَ الباطنة التي يُستظل فيها، كما وأن تنكير ﴿ظِلَٰلٍ﴾ يلمح بذلك، فإنه ظل ظليل بمدٍّ طويل يشمل الأرواح والقلوب والأفئدة.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿فَٰكِهَةٌ﴾ كما يشتهون من كمها وكيفها و﴿يَدَّعُونَ﴾ كما يشتهون.

وماذا تعني ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾؟ إنه من الادِّعاء: الافتعال من الدعوى، أي: ما يتطلَّبون لأنفسهم ويتمنون دونما حد ولا حدود: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[(١)] وعلَّ الفارق بين الاشتهاء والادِّعاء أن الثاني اشتهاءٌ ظاهر في طلب، والأول يعمه ودون طلب، وأنه يعم الادعاء في الأولى كما الأخرى، والأول اشتهاء يوم الأخرى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾[(٢)].

وكما أن في حصول ما يشتهون دون طلب حفاوةً وإكراماً كذلك فيما يحصل بطلب، حيث المطلوب هو الرب الرحيم، والطلب منه تعالى بحصول المطلوب رحمة على رحمة وحفاوة على حفاوة، فمن العباد من يعطيهم ربهم هنا بعض ما يشتهون دون طلب لكيلا يطلبوا فيسمع دعاءَهم لبعدهم عن ساحته، فمهما لم يكن في الجنة بُعدٌ لأهلها فـ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ إكرام لهم بصورة أخرى بعد ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[(٣)]!.

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٢) سورة الملك، الآية: ٢٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٥٧.

ثم ولهم في كونهم فاكهين:

﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾:

هم في دار السلام لهم سلام من الرب الرحيم السلام، سلامٌ قولاً منه هنا دون وسيط كما سلامٌ حالاً وفعلاً هناك، سلام على سلام! فإنها «دار السلام».

لأصحاب الجنة كل سلام ولأصحاب النار كل سأم، قولاً لهولاء ﴿سَلَٰمٞ﴾ ولأولاء في كلمة خاطفة:

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾:

أمر تكويني للذين أجرموا بامتيازهم وانفصالهم عنهم مكاناً ومكانة وخطاباً وحالاً ومقالاً أم أياً كان مما يكون وما كان.

إنهم يتلقون كل تحقير وترذيل يستحقونه بما كانوا يجرمون في كل الجهات والجنبات بأمرٍ إمرٍ: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾:

امتيازاً في سيماهم: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾(١).

وامتيازاً عن شفعائهم الشركاء الذين كانوا يدّعون: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾(٢).

وامتيازاً عن أنسابهم وأنسبائهم: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾(٣).

وامتيازاً لبعضهم عن بعض في فرقة بعيده بائدة، وغربة غريبة سائدة فهم رغم اجتماعهم في النار ليس لهم اجتماع فيه يستأنسون، والفرقة هناك -

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.

كما هنا - عذاب فوق العذاب، فلكلٍّ منهم بيت من النار يدخل فيه فيُردم بابه لا يَرى ولا يُرى.

وامتيازاً عما كانوا يدّعون، فهنا يُدعُّون إلى جهنم دَعًّا رغم ما يدّعون.

وامتيازاً في تميُّز النار من الغيظ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[1].

وامتيازاً لأعمالهم وما كانوا يعتقدون أو ينوون عما للمؤمنين ولذلك يتفرقون: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

امتيازات سبعة في دركات سبع بتبكيت قارع يعمهم أجمعين!:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾:

عهدٌ سابق سابغ، صابغ فطرةَ الإنسان سلباً لعبادة الشيطان وإيجاباً لعبادة الرحمن:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[4].

---

(١) سورة الملك، الآية: ٨.

(٢) سورة الروم، الآيات: ١٤-١٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.

فذلك عهد فطري لا يتخلف، ثم عهد عقلي مأخوذ على العقول بدرجاتها وهو أخص من الفطري إذ يخص العقلاء، ومن ثم عهد رسالي قد يتخلفون عنه تخلفاً عن عهد الفطرة والعقل وفيه تفصيل ما في عهد الفطرة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ...﴾[1] ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ...﴾[2].

والعهد الرسالي أخص من العقلي وبأحرى من الفطري، حيث لا يعم من عاش زمنَ الفترة، إذاً فهم على دين العقل والفطرة.

وترى لماذا «بني آدم» وآدم مفطور على الفطرة نفسها ومأمور بعهد الرسالة كما هم؟ علَّه لأنه أوعد ذريته بعدائه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3] وأن آدم ما عبد الشيطان في عصيانه ولم يكن ليعبده، كما وأن السابقين والمقربين من بني آدم لا يشملهم خطاب التنديد، حيث لم ينقضوا عهد الله مهما كان من آدم بعض النقض: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[4] ثم و«بني آدم» دون «العقلاء» أم «الذين بلغهم عهد الرسالة» ذلك لمحة أنه عهد إلى كل بني آدم لزاماً لهم دونما انفصال على أية حال، فهو - إذاً - عهد الفطرة، ولا سيما إذا اكتمل بعهد العقل والشرعة، حجة مثلثة قاطعة على أصحابها، مهما كانت الفطرة دونهما، أم والعقل دون الشرعة أيضاً حجة، مهما بان البون بينهما.

ثم لماذا ﴿لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ الخاصة بعَبَدة الشيطان دون سائر العصاة من ملحدين أو مشركين أو موحدين من مسلمين وسواهم؟ علَّه ليشمل

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٥.

العصاة الأصول في عصيانات هي كعبادة للشيطان! أم وسواها من سائر دركات العصيان، توسيعاً للعبادة لحدٍّ «من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس»[١].

فطاعة الشيطان بدركاتها عبودية له بدركاتها، من اتخاذه إلهاً أو إشراكه بالله، إلى طاعته في أي عصيان وبينهما متوسطات.

كما وطاعة الرحمن درجات، عبوديةٌ له بدرجات، فكل طاعة نتيجة عبادة في حدها فـ ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ كجملة مستقلة نهي عن كل طاعة للشيطان في أي عصيان كبيراً أو صغيراً، ولكن صلي الجحيم يخص أصول الكفر والضلالة إلحاداً في الله أم إشراكاً بالله أماذا من أصل في ضلالة عقائدية أو عملية.

ثم وما يُعبد من دون الله ليس إلَّا عن عبادة الشيطان ويلحقه كل عصيان مهما تفارقا في الطاعة المطلقة ومطلق الطاعة، ولكنما المحور الأصيل في ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ هم الكفار، وقد تدل عليه إضافة إلى صيغة ﴿لَا تَعْبُدُوا﴾ هنا ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾.

ولماذا لا نعبد الشيطان؟ لـ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يُبين عداءه فيما يحملكم عليه من خلاف الفطرة والعقل والعدل، وفيما يخلفكم ذلك الغرور من وعده الغُرور!

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ تخليةً عن عبادة غير الله أن «لا إله» ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ تحليةً بعبادة الرحمن «إلا الله» و«هذا» السلب المطلق والإيجاب المطلق: (لا إله إلا الله) ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: صراط العبودية.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٩١ ح ٧٠ في كتاب اعتقادات الإمامية للصدوق وقال عليه السلام : .

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

سيروا في الأرض فانظروا إلى من أضله الشيطان من الجِبِلِّ الكثير فلم يبق إلَّا القليل وكما أوعدكم منذ البدء: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والجِبِلُّ من أصل الجَبَل تدليلاً على معنى العُظم، فكثيره هو الجماعة الكثيرة المغلَّظة، كما الجبلَّة هي الجماعة المجبولة المفطورة على أمرٍ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾(١) فكما الجَبَل مفطور على الصلابة والصلادة، كذلك الناس أجمعون فإنهم مجبولون ومفطورون على فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فالجِبِلُّ الكثير هم المفطورون على ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ . . . وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ في عهد الفطرة، فهؤلاء الكثير تخلفوا عن جِبِلَّتهم بما أضلهم الشيطان، وجِبِلٌّ قليل هم الباقون عليها الماشون صراطها المستقيم ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا﴾ في واقع هذه التجربة العظيمة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ وتأخذون حكم الفطرة بقوة؟

ولأن ﴿كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(٢) فإضلالة الجِبِلَّ الكثير عن جبلتهم وفطرتهم وعقليتهم وشِرعتهم، على كثرتهم، ليس ذلك لقوته، بل لضعف هؤلاء الجِبِلِّ الكثير، لا ضعفاً في فطرتهم فإنها حجة الله، وإنما تعامياً عنها وتركاً لاستعمال عقولهم، ولأنهم لم يعقلوا شرعة الله كما يجب، كما لم يعقلوا فطرة الله وعقولهم.

فحجة الفطرة أقوى من حجة الشيطان التي تسترها، لأنها ليست إلَّا غواية، وحجة العقل أقوى وهي في الشيطان أغوى، وحجة الرسالات معصومة تفصيلاً كما حجة الفطرة إجمالاً، فإضلال الشيطان للجبل الكثير ليس إلَّا استضعافاً لحجج الله داخلية ومنفصلة، حيث لم يعقلها العاقلون: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أنتم الماشون سبيل الجِبِلِّ الكثير كما هم، فالعقل مفتاح الفلاح

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.

والصلاح حين يُستعمل على ضَوء الفطرة كآية أنفسية، وعلى ضوء سائر الآيات الآفاقية وكما في الحديث «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان»!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾:

المخاطَبون هنا هم المجرمون الذين ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[(١)] دون بني آدم أجمعين، ولا عصاتهم أجمعين، حيث الصلي إيقاد كما في سائر القرآن، وليس إلَّا لأصول الضلالة دون الأتباع: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾[(٢)] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[(٣)] ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[(٤)].

وعلَّ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى جحيم ضلالتهم على عقلهم إذ لم يعقلوا، ثم جحيم البرزخ وهي حصيلة تلك الجحيم، ومن ثم جحيم الآخرة وهي بروزٌ كاملٌ لهما حيث ﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[(٥)] فهم - إذاً - في ثالوث الجحيم كلٌّ تلو الأخرى، صوراً ثلاث عن جحيم واحدة!

فليست آيات الله آفاقيةً وأنفسيةً بالتي تُقهر أمام كيد الشيطان، وإنما الانسلاخ منها بعد إيتائها: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[(٦)].

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾:

هل إنه الختم المطلق على أفواههم يوم الحساب؟ و﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة يس، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الليل، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٥) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٦) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(١)] تشهد بشهادة ألسنتهم! ولكنها شهادة دون اختيار كما الأيدي والأرجل! ومن ثم ماذا نصنع بقولهم: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا . . .﴾[(٢)]؟.

القول الفصل هنا فصل القول، أن ليس قالُهم بفتح أفواههم إلَّا بعد شهادات الأعضاء بختم أفواههم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[(٣)]، فالله هو الذي يُنطق الألسنة والأيدي والأرجل والسمع والأبصار والجلود بعد ما يختم على أفواههم، وشهادة كلٍّ بحسبه كما سُجلت أصواتاً في الألسن والسمع، وصوراً في سائر الأعضاء، بما استنسخها الله: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

وترى لماذا الختم على أفواههم حين استشهاد أعضائهم؟ لما قد يتطلبون «إني لا أجيز عليَّ إلَّا شاهداً مني»[(٥)] وما يكذِّبون[(٦)] ﴿يَوْمَ

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٤.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٣) سورة فصلت، الآيات: ٢٠-٢٢.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٥) الدر المنثور ٥: ٢٦٧ - أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن أبي الدنيا في التوبة واللفظ له وابن أبي حاتم وابن مردوية والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ﴾ [يس: ٦٥]. . . قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه قال: أتدرون مم ضحكت؟ قلنا: لا يا رسول الله قال: من مخاطبة العبد ربه فيقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى فيقول إني لا أجيز عليَّ إلا شاهداً مني فيقول كفى بنفسك عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعد الكف وسحقاً فعنكن كنت أناضل.
(٦) نور الثقلين ٤: ٣٩١ ح ٧٥ - القمي عنه عليه السلام إذ جمع الله عز وجل الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه فينظرون فيه فينكرون أنهم عملوا من ذلك شيئاً فتشهد عليهم الملائكة =

يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾(١).

يختم على أفواههم سداً عن الكذب يوم الصدق وتسديداً للشهادة الصدق، ثم تفتح فـ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ. . .﴾ قولة متحسرة متغيظة بعدما تمت الشهادة وغلب هنالك المبطلون ولات حين مناص إذ فات يوم خلاص!

فليست الأفواه كلها يومئذ مختومة، ولا أفواه الكاذبين على أية حال، بل في بعض الأحوال دون بعض لحِكَم قاضية، وتكلُّم الألسن كسائر الشهادات المسجلة في الأعضاء ليس هنالك باختيار.

ثم ترى لماذا ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وشهادة الجوارح دون اللسان والسمع هي الأعمال المستَنسخة فيها على سواء، ثم الشهادة تعمها حتى المتكلمة منها في آية النور؟

علَّه لأن ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ تشمل سائر أعمال الجوارح بما فيها السمع والألسنة المتكلمة بما سمعت أو تكلمت، والأعين بما رأت، والأيدي بما مدَّت، وتكلم كلٌّ على حسبه، ثم الأرجل تشهد بما مشت أو تركت ولا كلام لها! إذاً فقد جمعت الآية بين الجوارح العاملة كلها، تكلماً فيما يحويه، وشهادة فيما لا يحويه!

= فيقولون رب ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئاً وهو قول الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ. . .﴾ [المجادلة: ٦] فإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون أقول علّها ﴿عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] حيث الألسن من شهود الأعمال مهما كانت خارجة عن اختيارهم.

وفيه ح ٧٦ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه. . . فكذبهم الله فيما انتحلوه من الإيمان بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ [الأنعام: ٢٤] فيختم الله على أفواههم ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتشهد بكل معصية كانت منه ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ. . .﴾ [فُصّلَت: ٢١].

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٨.

أم ولأن الأفواه المختوم عليها استبدل عنها بتكلم الأيدي، شملت الألسن أم لم تشمل، فإن كانوا لا يتكلمون بما عصوا ويكذبون، فهذه أيديهم تتكلم بما كانوا يعملون، دونما حاجة إلى كلامهم باختيار!



﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وهنالك بطل تكلمهم باختيارهم، وبقيت أعينهم ناظرة، فعلّهم - ولن يستطيعوا - يفتشون عن صراط الجنة ليهتدوا إليه ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ - ولن! إذ لن يستطيعوا - ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾: إلحاماً للشقوق بين الأجفان حتى تكون مبهمة لا شق فيها ولا شفر لها، وبأحرى - إذاً - يبطل إدراكها كسفاً لأنوارها فصارت ممسوحة لا يبصرون ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ في التزاحم التسارع إلى الصراط، استبقوه متجاوزين عنه! جاعلين إياه وراءهم ظِهريّاً ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أنهم جاوزوه، وأنى يبصرون الصراط حتى لا يسبقوه؟

أم لو أنهم اهتدوا إلى الصراط على طمْسهم بغتة وصدفة، رغم استحالة اهتدائهم حتى إذ أبصروا، هنا «لو نشاء» ولن ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: إمكانيتهم في المضي، ومكانهم، ومكاناتهم التي يزعمون ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ إلى الصراط ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى دنياهم تخلصاً عن بلية العقاب.

هذه الطمسة المسخة ليست بذلك البعيد عن قدرته تعالى وبالنسبة للكافرين المستحقين لها، كيف؟

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

إن النكسة في الخلق هي في أرذل العمر: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1] فلا يزال الإنسان منذ ولادته إلى قوة ولحد الأربعين، ومن ثم يتنازل إلى ضعف وضعف لحد النكسة الأرذل حيث تزول طاقاته الجسمية والروحية ولحد

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

الطفولة وأرذل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾(١) إنا نعيد الشيخ الكبير إلى حال الطفل الصغير، في الضعف بعد القوة والتثاقل بعد النهضة، والأخلاق بعد الجدة، تشبيهاً بمن انتكس على رأسه فصار أعلاه سفلاً وأسفله علواً.

إنهم وهم في دار السعي والاختيار قد يردُّون إلى النكسة، كيف وهم في دار الجزاء اللَّااختيار يسدون عنهم النكسة عن الصراط وهم في قبضة العلي القدير! ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ عن ماضيهم لمستقبلهم؟!

أترى كل من يعمَّر ينكس لأرذل العمر، وقد عمِّر نوح عليه السلام ألفاً أو يزيد وهو رسول في كمال العقل والدراية، وعمر المهدي القائم من آل محمد اثني عشر قرناً وإلى ما لا ندري وهو يظهر في صورة شاب بالأربعين؟

إن هذا وذاك تعمير دون نكسة ورذالة، يستثنى عن عموم التعمير، ولا سيما للمهدي عليه السلام فإنه خارقة إلهية في عمره وكل أمره صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام.

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ وَقُرۡءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾:

من حروب الدعاية التي شنُّوها على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم معتمدين فيها على النسق القرآني المنقطع النظير، قولتُهم إن البشير النذير ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾(٢) ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٌ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾(٣).

وما قولهم إنه شاعر إلَّا كقولهم هو ساحر، حيث الشعر يسخر العقول

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الطور، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥.

ويسحرها، ويأتي بالكذب المزخرف بأوزان ساحرة، فيُخيِّل إلى الناس صدقه، أو يقضي على الصدق فيُظن كذبه، والشعر يفدي جمال المعنى وحقَّه لجمال اللفظ والوزن، ويفدي جمال الحقيقة بتجميل الوزن، عامداً مختاراً، أو مضطراً محتاراً.

ومجمل القول عن قول الشارع والشاعر، أن الشارع يُؤصِّل المعنى على جمال اللفظ دونما نفاق فيهما فإنهما في تعبيره العبير على حدٍّ سواء وحتى في الإعجاز، والشاعر يعاكسه بتأصيل الوزن والمعنى تبعٌ، وأحياناً ليس له معنى صالح أو يهدم صرح الحقيقة.

ولقد كانوا على معرفة بما للشعر من زور وغرور على حبه الهَيَمان، فردفوه في عساكر التُّهم الزور ضد الرسالة القرآنية، ويرد عليهم القرآن بواقعه النثر وإن كان لا يشبه شعراً ولا نثراً، وبما ينفي عن رسوله:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ وإذا لم نعلِّمه شعراً فما هو بشاعر، لأنه أُمِّي لم يتعلم من غير الله شعراً وغير شعر، ولم يعلِّمه الله الشعر، فليس - إذاً - ليعلم شعراً لا إنشاداً له[1] ولا نقلاً رسالياً أم ومطلق النقل.

أترى الجهل بشيءٍ يعد في عداد مكارمه الرسالية، شعراً وغير شعر؟ أجل وفي العلم المشوب الذي يجهِّل ويريب الناس بالنسبة للرسالة الإلهية، وكما وأن تلاوة كتاب وخطه بيمينه يريب المبطلين: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[2] والشعر ينهج غير منهج النبوة فإنه انفعال يُستغل وهي فعل يَستغل، هناك انفعال يتقلب من حال إلى

(١) الدر المنثور ٥: ٣٦٩ - أخرج إبو داود والطبراني والبيهقي عن ابن عمر وسمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أبالي ما أتيت أن أنا شربت ترياقاً أو تعلقت نميمة أو قلت الشعر من قبل نفسي، أقول وهذا لا ينافي عدم تعليمه مطلق الشعر حتى نقله وإنما ذكر إنشاده كأظهر مصاديقه.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

حال في مختلف الأحوال، وهنا منهج ثابت من الله لا يتبدل مع الأهواء المتجددة التي لا تَثبت على حال، وهناك أشواق إنسانية واقعية أم متخيلة إلى ظاهر الجمال، وهنا حِكَم وأحكام إلهية مرسومة في كتاب التدوين تُجاوب كتاب التكوين، فهما مختلفان من الأساس، لا نجد لكلٍّ في صاحبه أي مساس.

لذلك لم يُعهد عن الرسول ﷺ نقل أي شعر عن أي شاعر إلاليّاً[1] فضلاً عن إنشاده في سنته، وأحرى منها براعة يراعة قرآنه.

وأما إنشاء الشعر ونقله بين الأئمة المعصومين فقد ينبغي إذ ليسوا في موقف الرسالة، ثم وما كان لهم في الشعر مراس، وكانوا يستحسنون أحسنه دعاية للإيمان بعد دعوة السنة والقرآن، وقد مدح الله الشعراء الذين آمنوا وهم قلة، بعد ما ذم سواهم وهم كثرة: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2].

ولكن النبي ﷺ لو قال شعراً إنشاداً أو نقلاً، قرآناً وغير قرآن، لدخل

---

(١) ولقد كان يقلب الشعر حين ينقله كما في الدر المنثور ٥ : ٣٦٩ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: بلغني أنه قيل لعائشة هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس يجعل آخره أوله وأوله آخره ويقول: يأتيك من لم تزود بالأخبار فقال له أبو بكر: ليس هكذا فقال رسول الله ﷺ: إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي أن أقول، وأصل المصراع: ويأتيك بالأخبار من لم تزود، وفيه أخرج ابن سعد وابن أبي حاتم والمرزباني في معجم الشعراء عن الحسن أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت: كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً - فقال أبو بكر أشهد أنك رسول الله ﷺ ما علمك الشعر وما ينبغي لك.
أقول وأصله: كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهياً - وما الأطفه تقديمه ﷺ الإسلام معنوياً، ولفظياً حيث ما علِّم الشعر.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤-٢٢٧.

في أقواله تهمة الشعر التخيُّل، ولم يكن الشعر ليُجَمِّله أكثر مما هو فصاحةً وبلاغةً، ولكنما الشعر يزيد المعنى جلاءً في تخيُّل، وهو نفاق وشرعة الله منه براء.

والقول: إن الشعر - هنا - يعني التخيلات المزخرفة موزونة وغير موزونة، فالحقائق الناصعة في أوزان ليست شعراً، والتخيلات في غير أوزان شعر، وإذا كانت في أوزان فهي شعر على شعر.

ذلك هنا مردود، بأن المفهوم من الشعر ما له وزن في تخيل وسواه، وهو لجمال وزنه مظنة التهمة، والاستثناء في آية الشعراء بـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟. . .﴾[1] عن ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ. . .﴾[2] وإضافةً إلى مثلث التعريف بالشعراء دليل واضح لا مرد له أنه ليس مجرد التخيلات.

فليس ينبغي للرسول علم ما يريب الناس في رسالته ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وليس الشعر ذكراً إلا نفاقاً وزوراً وغروراً، ولا مبيناً لهدى إذ ليس صراطه مستقيماً، والرسول ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾: إن الرسول إلّا ذكر. . . وإن علمه إلّا ذكر، حيث «هو» يحتملها، والأحرى أدبياً هو الرسول.

أترى الرسول ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ إلى كونه ذكراً؟ أجل إنه ذكر بكله، وقرآن مبين بكله، وقد كان خلقه القرآن[3] قلبه القرآن وقالبه القرآن، ظاهره قرآن وباطنه قرآن، ومهما كان في القرآن التدوين متشابهات ومجملات تحتاج إلى بيان، فالرسول القرآن هو بنفسه مبين وبيان، فإنه قرآن متجسد مبين في كافة أحواله وأقواله.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

(٣) يسأل ابن عباس ما كان خلق الرسول ﷺ؟ قال: كان خلقه القرآن.

إنه ذكر كما القرآن ذكر: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1] ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾[2] صنوان من أصل واحد هو خاتمة رسالات السماء، وإنه مبين كما القرآن مبين: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3] ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾[4].

أنا القرآن والسبع المثاني   وروح الروح لا روح الأواني

فهو قرآن كما القرآن قرآن، كما القرآنُ يقرأ تدويناً وهو يقرأ كتاب حياته تكويناً، وهما متجاوبان كأنهما واحد حال أنهما اثنان، فقرآن محمد ومحمد القرآن آيتان بارعتان إلهيتان كأنهما آية واحدة، يستدل بالقرآن على رسالته ويستدل به على رسالة القرآن! وللرسول فضل على القرآن لأنه تفسيره بياناً وعملاً وتطبيقاً!

هذا التعبير عن الرسول وإن كان منقطع النظير، فإنه يبين كيان ذلك البشير النذير، دمجاً في القرآن كما القرآن مدمج فيه، فأية فرية على الرسول هي فرية على القرآن كما العكس كذلك، فكونه شاعراً يعني أن القرآن شعر، وكونه شعراً يعني أن رسوله شاعر.

ثم «إنْ هو» الثاني: علم الرسول ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يخص علمه بهما، فالقرآن المبين هو الأصل المتن المتين في علمه بالوحي، ثم السنة ذكر يبين القرآن، ولو كان «هو» - فقط - القرآن لكان توصيفه بـ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ توضيحاً للواضح لدى الكل، وأما كون الرسول ﷺ ببيانه قرآناً مبيناً إلى كونه ذكراً، فمجهول لدى الأكثرية إذاً فـ«إن» الرسول وعلمه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ حاملاً مثلثاً من التبيين: ذكر - قرآن! - مبين:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٤.
(٤) سورة يوسف، الآيتان: ١، ٢.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

مقابلة ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ توحي بحياة الإيمان، أترى أنه واقع الإيمان وهو واقع بعد كمال الإنذار والتبشير؟

قد تعني قبول الإيمان بأية مرتبة كان فهو من كان عاقلاً[1] يستعمل عقله في صالحه، : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[2].

فالذي لا يعقل رغم عقله فلا يشاء أن يستقيم فهو ميت من الكافرين، لا يؤثر فيه الإنذار، فقد تعني ما تعنيه «هدى للمتقين» و﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[3].

فـ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ يشمل من كان كافراً يتبع الذكر ويتقي إذا وقي، إذ كان كفره عن قصور أو تقصير جانبي وقد بقي فيه نور النجاة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] فـ ﴿مَن كَانَ مَيْتًا﴾ هنا تعني مطلق الموت الذي يشي إلى حياة، وفي الأنعام الموت المطلق الذي لا يشي إلى الحياة: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾[5].

﴿لِّيُنذِرَ ... وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[6] ولكن إذا لم تنذرهم لم

---

(١) المجمع روي ذلك عن علي عليه السلام.
(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٣) سورة يس، الآية: ١١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة الروم، الآيتان: ٥٢، ٥٣.
(٦) سورة يس، الآية: ١٠.

يحق القول عليهم، حيث تبقى لهم حجة أننا ما أنذرنا حتى نهتدي: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١].

أترى ﴿لِيُنذِرَ﴾ هو الرسول؟ فقد انقطع إنذاره بعد انقطاعه! أم هو القرآن؟ ومحور الكلام كان هو الرسول ﷺ وإنذار القرآن لا يتم إلَّا بالرسول! المنذر هو الرسول ﷺ بالقرآن والقرآن بالرسول، وإذا انقطع الرسول عن الأمة فلا تنقطع سننه عنهم، والقرآن هو محور الإنذار، بالرسول ما دام فيهم، وبسنته وخلفائه بعده، وبالعلماء بعدهم؟ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٢] ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾[٤] ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[٥] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[٦].

ثم ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ دون الأحياء قد تعني الجمع بين من يؤثر فيهم الإنذار أجمع، فـ«الأحياء» بالفعل هم المؤمنون بالفعل، والأحياء شأناً هم الكافرون بالفعل من مشركين وكتابيين أمّن هم؟، و«كان» تشملهم أجمع[٧]

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.
(٧) نور الثقلين ٤: ٣٩٣ ح ٨٠ في أصول الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وقال الله عز وجل: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: ٣١] فالحي المؤمن الذي تخرج طينته من طينة كافر والميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي المؤمن والميت الكافر وذلك قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر وكان حياته حين فرق الله عز وجل بينهما بكلمته كذلك يخرج الله عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله إلى النور وذلك قوله عز وجل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

ثم لا يبقى إلَّا من ليس في حياته حياة العقل والقبول، ليُرجى به إيمانه بالقرآن، الغافل الذي لا يستيقظ إذا أوقظ ولا يتعظ إذا وعظ فهو ميت مطلق لا ترجى حياته.

إذاً فسابق الحياة السابغة شرط أصيل لتقبل الإنذار بالقرآن، ومهما كان القرآن حجة بالغة على كافة العقلاء ولكنه ليس ليؤثر إلَّا فيمن له قابلية القبول، وهو من له بقية من حياة العقل والتحري عن الحق، دون من ليس ليستعمل عقله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1]. فهؤلاء الذين هم في الكفر المطلق، مسدودين عن مطلق النور، فلا مدخل لنور الهدى إلى قلوبهم، هم في موت مطلق لا حياة عنه.

والمكلفون أمام إنذار القرآن أضلاع ثلاثة، فضلع متضلع بالإيمان، فهو يكمل إنذاره، وهو من أحي الأحياء، وضلع ضليع عن الإيمان ميت عن كيانه كإنسان، فهو الميت المطلق الذي ليس له نصيب من الحياة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾[2] ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[3] فـــــ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4] وضلع عوان هو في مطلق الكفر غير المستقصي كيانَه ولا المستعصي عن إيمانه، فهو ضال قاصر يتحرى عن الهدى، أم - لأقل تقدير - لا يفر عنها مبتغياً سبيل الردى، فهو ميت حي، فإن مآله إلى الحياة المطلق وهو الآن في مطلق الحياة، فيشمله ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ كما يشمل المتضلع في الإيمان، فإنذار القرآن يعم كل من فيه تجاوب قليلاً أو كثيراً، بحياة عقلية قليلة أو كثيرة! فحياة الفطرة والعقل هما الظرفان

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٤) سورة يس، الآية: ١٠.

الظريفان الطريفان لقبول الإيمان، دون الفطرة المحجوبة والعقل المكسوف بطوع الهدى، الذين يعيشون كفراً مطلقاً قاصداً معانداً فـ ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

ترى ما هو موقف الواو في ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ولا معطوف عليه مذكوراً قبله؟ إنها سائر الآيات آفاقيةً وأنفسيةً، مشهودةً لهم مرئية، لا غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة غير مفهومة، فإذا لم يروها، ألّا مساس لهم بها حتى يفكروا فيها، أم رأوها ولم يعتبروا بها، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ما ينتفعون بها في حياتهم الحيوانية ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ بجمعية الصفات حيث هناك جمعية الواجهات في نعمات «لهم» في اختصاص فانتفاع ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ من ماء وتراب أمّاذا من مخلوقات حيث عملتها أيدينا، قُدُرات حسب مختلف النعمات ﴿خَلَقْنَا لَهُم . . . أَنْعَٰمًا﴾: جمع النَّعَم وهي الدابة المحلّل أكلها ثمانية أزواج: ﴿. . . وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ. . .﴾[1] ومع أنها من خلق الله وملكه حقاً ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ ملكاً مجازياً مستخلفون فيه، وهذه من آيات الملكية الخاصة وطبعاً بشرائطها العادلة. منحة ربانية وهبة إلهية مما عملته الأيدي الربانية، فأصبحت أيادٍ لهم مملوكه: هم مستخلَفون فيها ابتلاءً. والتفريعة في ﴿فَهُمْ﴾ تفريعة لرحمة الله، وتقريعة عليهم كيف هم يكفرون بنعمة الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[2].

ثم وليس مجرد ملكهم إياها، حيث المستعصي على مالكه نقمة بدل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٣.

كونه نعمة، ولكنا ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ ذِلًّا دون شماس، وذُلًّا بكل احتراس ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾[(١)] ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٢)] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أخرى ككونها حمولة وفوائد من جلودها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾[(٣)] أماذا؟ ﴿وَمَشَارِبُ﴾ جمع مشرب مصدراً ميمياً واسم زمان ومكان، شرباً من ألبانها، وزمانه ومكانه، ومن الأخير جلودها التي تعمل قرباً للمياه شرباً ومآرب أخرى، وكل هذه وتلك لعلكم تنتفعون وتشكرون ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟

إنهم لا يقدرون على شيءٍ من هذه وتلك، فلا يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وما يملكون أن يذللوا ذبابة ولو اجتمعوا لها إلَّا أن يقتلوها، ورغم ما يعترفون أن ذلك كله من تقدير العزيز الرحيم لا يشكرون:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤)﴾:

إنهم رغم كل هذه النصرة والرحمة الإلهية ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾: أصناماً وأوثاناً وطواغيت ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من قبلهم رغم أن هؤلاء الآلهة!:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)﴾:

هؤلاء الآلهة أيّاً كانوا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ على أية حال إن كان الله يريد أن يخذلهم ﴿وَهُمْ﴾ الآلهة ﴿لَهُمْ﴾ العبدة ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ لديهم حيث يعيشونها في بيوتهم ويعبدونها، وهم الذين أحضروهم لديهم لينصروهم وهم لهم عابدون، فكيف إذا غابوا عنهم؟.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة غافر، الآية: ٧٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٠.

بل ﴿وَهُمْ﴾ العبدة ﴿لَهُمْ﴾ الآلهة ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كأنهم أحضروهم[(١)] ليدافعوا عنهم الأخطار الموجهة إليهم، فإذا غابوا فهم في خطر كما آلهة نمرود لما غاب عنهم بشعبه، اغتنم إبراهيم تلك الفرصة ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[(٢)].

ومن ثم ﴿وَهُمْ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة، كما أنهم لآلهتهم يومئذ جند محضرون[(٣)] وماذا يفيد جند لا يستطيعون نصرهم لا في الحياة الدنيا ولا في الآخرة؟!: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[(٤)] فيا بؤساً لآلهة تُحضر يوم الحساب للحساب كما يُحضر عابدوها!

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾:

وإذا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ في نكران المبدأ والمعاد والرسالة، فـ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ضد هذه الرسالة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أمامها، فلا عليك منهم شيءٌ فيه وأمرهم مكشوف بظاهره وخافيه على الحكيم الخبير القدير، وقد هان أمرهم وما عاد لهم من خطر عليك ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ...﴾.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٣٩٤ ح ٨٢ تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: لا تستطيع الآلهة نصرهم وهم للآلهة جند محضرون، وفي الدر المنثور ٥: ٢٦٩ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: محضرون لآلهتهم التي يعبدون يدفعون عنهم ويمنعونهم.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٦٩ وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: هم لهم جند في الدنيا وهم محضرون في النار، وعن قتادة: لا يستطيعون نصرهم قال: نصر الآلهة ولا تستطيع الآلهة نصرهم وهم لهم جند محضرون قال: المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم سوءاً إنما هي أصنام.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾:

ألم يروا من آيات إمكانية المعاد وضرورته الآفاقية، فإن كانت منفصلة من ذوات أنفسهم ﴿أَوَلَمْ يَرَ...﴾ آية أنفسية حسية يراها كل راءٍ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ الإنسان ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ لم تكن شيئاً مذكوراً ﴿فَإِذَا﴾ بعدما يكبر ويعقل ﴿هُوَ خَصِيمٌ﴾: كثير المخاصمة في حق المعاد وهو أهون من خلقه أوّل مرة، وهو ﴿مُّبِينٌ﴾ في خصومة متعنت:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

ينسى خلقه أوّل مرة من نطفة، ثم يستنكر حائراً مائراً خلقَه ثاني مرة من ترابه وهو أهون عليه، يضرب على ذلك مثلاً ملموساً من عَظْمٍ نَخِرٍ يفركه[1] ثم يقول قولته: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟ وأحسِن بجوابه الحاضر حيث يصدقه كل مصدق بالخالق: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مهما اختلف خلقه في المرتين، وهو في الثانية أهون ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ كالأوّل أو أصعب «عليم» فضلاً عن الأهون!

وإنها براهين قاطعة قاصعة لا فواق لها لأي خصيم حول المعاد، فلئن كان السؤال حول أصل الإحياء، استأصله «الذي خلقها أول مرة» وإن كان حول: من يجمع ذرات العظام وسائر البدن المتفرقة هنا وهناك، عاد نفس

(١) نور الثقلين ٤: ٣٩٥ - ٨٨ في الاحتجاج روي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهما السلام أن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام: فإن إبراهيم عليه السلام قد بهت الذي كفر ببرهان على نبوته؟ قال له علي عليه السلام: لقد كان كذلك ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أتاه مكذب بالبعث بعد الموت وهو أُبي بن خلف الجمحي معه عظم نخر ففركه ثم قال يا محمد ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فأنطق الله محمداً بمحكم آياته وبهته ببرهان نبوته فقال: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] فانصرف مبهوتاً، وفي الدر المنثور ٥: ٢٦٩ عن ابن عباس أن ضارب هذا المثل العاص بن وائل، وعنه أيضاً أنه عبد الله بن أبي، وثالث عنه أنه أُبي بن خلف، ورابع عنه أنه أبو جهل.

الجواب «الذي خلقها أول مرة» حيث النطفة مجموعة من متفرقات عن مواد شتى، فإنها أمشاج ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ. . .﴾[1].

وقد يعني ضرب العظام مثلاً وهي رميم، الأجزاء الأبعد عن الحياة في بعدي بُعدها عن الحياة أوّلاً، ورمَّتها أخيراً، ولكن ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أوّلاً إن أجزاء النطفة كانت أرمَّ من الرميم وأبعد من ذلك البعيد ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ حيث الخلق في مراتبه أمثال في كونه خارقة إلهية، فلا تختلف صوره في قدرته تعالى حتى إذا كانت هيِّنة وأهون وصعبة وأصعب بالنسبة للقدرات المحدودة، فإنها سواء بجنب القدرة اللّامتناهية الإلهية، فلا صعبَ عنده وأصعب ولا هيِّن وأهون، فالكل لديه هيِّن، فـ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾!

هنا مراتب ثلاث من الخلق كل لاحق أهون من سابقه وثالثها الإعادة يوم المعاد، وقبلها الخلق من نطفة يوم الدنيا، وأولاها خلق المادة الأولية لا من شيء و«إن الذي أنشأه من غير شيء وصوره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه» كما في حوار الإمام الصادق عليه السلام[2] أجل و:

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٩٤ - ٨٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي في احتجاج أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال السائل: أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟ قال: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حس ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء، كما بدأها مدبرها وذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين، قال: وأنّى له بالبعث والبدن قد بلي والأعضاء قد تفرقت فعضو ببلدة يأكله سباعها وعضو بأخرى تمزقه هوامها وعضو قد صار تراباً يبنى به مع الطريق في حائط؟ قال عليه السلام: إن الذي. . . قال أوضح لي ذلك قال: إن الروح مقيمة في مكانها، أرواح المحسنين في ضياء وفسحة وروح المسيء في ضيق وظلمة والبدن يصير تراباً كما منه خلق وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها فما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وأن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثم يمخض مخض السقا =

«خلقها قبل أن تكون أعجب من إحيائها وقد كانت»[١].

فإعادة خلق الإنسان مثله أهون الخلق على الإطلاق، فقبله بدؤه وأكبر منه خلق السماوات والأرض وقبل الثلاثة خلق المادة الأولية لا من شيءٍ، وهم يرتابون في ذلك الخلق الأهون، وهو في ميزان العدل والفضل أهم! وترى أن مجموعة عظام الإنسان تحيى يوم المعاد، لمكان ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ الظاهرة في كل العظام، وكذلك: «يحييها» حيث المرجع هو العظام نفسها؟ وقسم عظيم من أجزاء العظام كما من سائر الأجزاء هو أجزاء أصلية أو فرعية لآخرين، فقد لا تبقى لأناس عظام وسواها حتى تُحيى، في حين أن عظام آخرين تُحيى، ترجيحاً أو ترجُّحاً دون مرجح، وحرماناً لمن رُجِّح عليه!.

ثم الضرورة القاضية لجسمانية المعاد عقلية، هي وصول الثواب والعقاب إلى الأرواح بواسطة أجسادها العاملة لصالحة الأعمال وطالحتها، كما هما واصلان إلى الأرواح، فإن أعمال الأرواح بين ما هي تعملها دون وسيط الأعضاء، وما هي عاملة بوسيط الأعضاء، فالجزاء العدل الوفاق وصول كلٍّ من صالح وصالح إلى الروح بوسيط وغير وسيط، وتكفي الأجزاء الأصيلة التي يعيشها الإنسان منذ هو جنين إلى الموت، تكفي هذه - فقط - لتكون وسيطة لوصول الجزاء إلى الروح!

والجواب أن ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ استعجاب واستعظام لأصل إحياء العظام، دون نظرة واتجاه إلى كمية منها أم وكيفية لها، ولم يكن السائل

= فيصير تراب كل قالب إلى قالبه فينتقل بإذن الله تعالى القادر إلى حيث الروح فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها وتلج الروح فيها فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً.

(١) الدر المنثور ٥: ٢٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال جاء أُبي بن خلف إلى النبي ﷺ وفي يده عظم حائل فقال: يا محمد أنّى يحيي الله هذا؟ فأنزل الله ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا...﴾ [يس: ٧٨] فقال له رسول الله ﷺ: خلقها...

المتعنت من الفلاسفة حتى يفهم فيَعي أو يعني كميةً في ذلك الإحياء في حين أنه ناكرٌ أصل الإحياء، ثم «يحييها» إجابة عن الشبهة في أصل الإحياء، سواءٌ أكان إحياءً لكل العظام أم بعضها، فلا تطارد الأدلة العقلية والنقلية الدالة على اختصاص الإحياء ببعض الأجزاء.

وعلَّ منها ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾ والأوّلية الحقيقية لإنشاء العظام هي لإنشاء النطفة الجرثومية، فإنها صورة مصغرة عن الجنين، كما هو مصغرة عن الوليد الجديد وإلى أعظم عِظَمها طوال عمره.

فالإنشاء الأول في ملاحظة دقيقة يخص النطفة الجرثومية، وفي لحاظ أوسع وأعرف هو بداية نشوء العظام حين أنشئت من المضغة: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾[1] ومضغة كل إنسان قياساً إلى مجموعة أجزائه الأصيلة والدخيلة منذ عظامه إلى موته، علّها واحدة بالملايين من أجزائه التي يعيشها طول حياته و﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[2] قد تعني النطفة الجرثومية، أم تعني عظام المضغة بلحومها الكاسية لها، فالمُعادة من أجزاء الإنسان على أية حال ليست إلَّا الأجزاء التي يعيشها الإنسان دون تبدل وانفلات، مهما انضمت بعد الموت إلى أناسٍ آخرين، فإنها تصبح من أجزائهم الدخيلة دون الأصيلة، فلكلٍّ - إذاً - أجزاء أصيلة تخصه، ويعاد فيها ليجزي بها جزاءَه الأوفى، والأجزاء الدخيلة هي بين أصيلة لآخرين فلآخرين، أم دخيلة على أية حال فلا تعاد لا مع الأولين ولا الآخرين.

ولأن دار الجزاء هي دار البقاء، فلتكن الأجزاء قابلة لذلك البقاء، كما هي قابلة للجزاء، والقول إن الخليّات كلها تتبدل سنين بعد سنين فلا أجزاء أصلية منها دون تبدل كما أثبته علم الفيزيولوجيا الإنساني! إنه تخرُّص

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

بالغيب مبني على ما يُرى من تبدُّلات، ولكنها لا تستقصي كلَّ الأجزاء، فكما الروح لكل إنسان هو روحه مدى حياته، كذلك أجزاؤه الأصيلة هي أجزاؤه مدى حياته، وهي التي يحشر بها، ففي الحياة الدنيا هي باقية لكل إنسان حيث يعمل - كل ما يعمل - بها، ثم بعد الموت هي في قبضة ملك الموت مهما انتشرت وانتقلت إلى اشخاص آخرين، إذ لا تصبح من أجزائهم الأصيلة، ولكل إنسان نصيب يخصه من أجزاء هي المُعاد في المَعاد بأمثال الصور التي ماتت عنها.

وليس من الممكن استقصاء كافة الخليات بتبدلاتها وتحولاتها فضلاً عن تفلُّتها كلها في سنين يدَّعونها! وفصل القول حول كيفية المَعاد وكمية المُعاد يأتي في طيات آياتها الأحرى بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

فأين الشجر الأخضر المنملي من الماء؟ وأين النار المبخِّرة للماء، والماء المُطفي للنار؟ وقد جمعها الله في الشجر الأخضر: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾! وليس حصول الحياة في الميت الذي كان حياً ثم مات بأبعد من شعلة النار المتخرجة من الماء وهما متضادان وهذان متلائمان والله ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ صعباً وأصعب وهيِّناً وأهون في كل ما دق وجل.

وعلّ المقصود من هذا ﴿ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ شجر المرخ والعقار، تشتعلان باحتكاك أحدهما بالآخر أو بنفسه بعضه ببعض، شجر أخضر ريَّان بالماء يصبح ناراً، ووَقود نار مع اللُّدونة والاخضرار، يا لها من عجيبة في الخلق وأعجب من إحياء الموتى ولا سيما في الخلق الثاني، ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ. . .﴾[1] ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾[2]!

---

(١) سورة ق، الآية: ١٥.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٠.

وكما الشجر الأخضر يحوي ناراً، فشجرة الإنسان الخضراء قد تحوي ناراً بما يعارض شرعة الله، ثم الله يجعلها ناراً في الأخرى أم وقود نار ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[1] كما وقد تحوي نوراً بما تطبّق شرعة الله.

﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾:

أليس الذي خلق المادة الأولى لا من شيءٍ ثم بدأ خلقكم ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ﴾؟ عطفاً على ألوانٍ من الخلق أصعب عن الإعادة.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾[2] ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[3] [4] إنّ خلق المثل هو الإعادة في المَعاد، حيث المُعاد ليس عين البدن بصورته الأولى، بل هو هو بصورة ثانية كالأولى، وكما تعنيه آيات تبديل الأمثال أنه يبدِّل أجسادكم أمثالها في الصورة مهما كانت من أعيانها في المادة، وحدة عينية في أصل المادة البدنية، وأخرى صورية مماثلة للأولى، فلا يعني مثلهم أعيانهم أو أشباههم في الأولى إذ لم ينكروا خلقهم فيها، ولا أعيانهم في الأخرى حيث المعاد فيها يختلف عن الأولى لأقل تقدير[5] في عين الصورة، فليس إلّا مثلها، أن تعاد الأجزاء الأصيلة لكل إنسان في مثل صورته التي ماتت عنها والروح هو الروح، فالشيء الثاني قد يكون ضد

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٤) راجع تفسير الآية في ج ٢٧ من الفرقان.
(٥) وفي تقدير آخر في كمية المادة كما فصلناه في الواقعة.

الأول فليس - إذاً - إعادة للأول، أم مثله في الصورة أو المادة أم فيهما كلاًّ أو بعضاً، فهو إعادة للأول صورةً أم مادَّة أم فيهما، وأما أن يكون عينه؟ فلا! حيث العين لا يتعدد، إذ التعدد بحاجة ضرورية إلى ميِّزة ما بينهما ولا ميَّزة بين الشيءِ وعينه، بل لا بينَ هنا حتى نفتِّش عن الميِّزات.

ف «إعادة المعدوم مما امتنعا» - كقاعدة فلسفية قطعية - لا تشمل المعاد حسب القرآن، حيث المُعاد في المَعاد إنما هو إعادة الروح في المادة الأصيلة البدنية بمثل الصورة التي مات عنها، فلا يُعاد الروح بعينه لأنه لا يموت حتى يحيى مرة أخرى إلا عن غشوة تعتريه في النفخة الأولى، ولا تُعاد الأجزاء الأصيلة إذ لم تنعدم، ولا تُعاد عين الصورة التي زالت، وإنما يعاد الروح إلى الأجزاء الأصلية بعد فراقها، ويُخلق مثل الصورة الأولى، ومحطُّ الجزاء الوفاق في الأصل هو الروح، والروح هو الروح نفسه، وفي الفرع هي الأجزاء الأصلية التي بها يعاقب الروح ويثاب والأجزاء هي الأجزاء، ثم لا جزاء للصورة حتى يقال إنها فاتت، والمخلوقة ثانية ليست هي هيه، وإنما مثلَها، والجزاء العدل هو الوارد على عين الكائن العامل دون مثله! والأجزاء هي عين الأجزاء، والصورة المماثلة للأولى ليست محطة الجزاء!.

فالخلاق العليم الذي خلق السماوات والأرض أقدر على خلق أمثال الناس وهو الخلق الثاني الذي ينكره الناكرون ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2] فـ «إذا كان خلق السماوات والأرض أبعد في أوهامكم وقدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي فكيف جوزتم من الله خلق هذا الأعجب عندكم والأصعب

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.

لديكم ولم تجوزوا منه ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي»[١] وخلق أمثالكم في المعاد أهون من الخلق الأول، كما الخلق الأول أهون من خلق السماوات والأرض! وخلقهما أهون من خلق المادة الأولية.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾:

... الأمر هنا بين فعل وإيجاب وهما منه واحد، فليس هنا الشيءَ لمكان ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ فإنما فعله وإيجابه التكويني إذا أراد شيئاً أن يقول لذلك الشيء كن فيكون دونما فصل أو تمنُّع أو مانع.

فليس أمره إذا أراد شيئاً كأمر المخلوقين أن يحول بين إرادته ومراده أمر آخر يمنع، أو يكلِّف تحقيق مراده سوى إرادته أمرٌ آخر أو أمْرُ آخر، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أيّاً كان وأيّان من صغير وكبير، من بدءٍ وإعادة ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقوله فعلُه، تلميحة لطيفة بنفاذ أمره دونما نَظِرة أمرِ آخر أو أمرِ آخر، أو تصرُّم الزمان إلَّا أن يشاء هو التأجيل كما خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

«يقول لِما أراد كونَه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، لا بصوت يقرع ولا نداء يُسمع، وإنما كلامه سبحانه فعلٌ منه وإنشاء ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً»[٢] «فإرادة الله الفعل بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له»[٣].

---

(١) نور الثقلين ٤: ٣٩٦ ح ٩١ الاحتجاج عن الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام في حديث تفصيل الجدال.

(٢) المصدر عن نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) فيه ح ٩٨ عن أصول الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله أومن الخلق قال فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل وأما من الله فإرادته أحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروِّي ولا يهم ولا يتفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق فإرادة الله...

فـ ﴿أَمۡرُهُۥٓ﴾ هنا فعله كما قوله، و﴿أَرَادَ﴾ هي الإرادة القاطعة بعد العلم والمشية، و﴿شَيۡـًٔا﴾ يعم كل ما لا يستحيل ذاتياً أو في الحكمة، إرادة لتكوينه لا من شيءٍ كالمادة الأوَّلية التي خُلِقَت لا من شيءٍ، أم لتكوينه من شيءٍ خَلَقَه قبله تبديلاً له أيّاً كان، ومنه الإحياء بعد الإماتة، وإطلاق الشيءِ على الأوَّل باعتبار الأول دون أية فعلية إلّا إمكان إيجاده لا من شيء، ومن ثمّ الشيء الكائن حيث يبدل إلى غير شيئه في صورته، ثم تبديله حياً بعد موته، وقد أطلق على المواد الأولية لفظة الحروف حيث تعني حروف التكوين كما في حوار الإمام الرضا عليه السلام مع عمران[1].

---

(١) نور الثقلين ٤: ٣٩٧ ح ٩٩ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام مع أهل الأديان والمقالات في التوحيد كلام للرضا عليه السلام مع عمران يقول فيه: واعلم أن الإبداع والمشيئة والإرادة واحدة وأسماؤها ثلاثة وكان أول إبداعه وإرادته ومشيئته الحروف التي جعلها أصلاً لكل شيء ودليلاً على كل مدرك وفاصلاً لكل مشكل وتلك الحروف تعرف كل شيء من اسم حق وباطل أو فعل أو مفعول أو معنى أو غير معنى وعليها اجتمعت الأمور كلها ولم يجعل للحروف في إبداعه لها معنى غير أنفسها يتناهى ولا وجود لها لأنها مبدعة بالإبداع والنور في هذا أوّل فعل الله الذي هو نور السماوات والأرض والحروف هي المفعول بذلك الفعل وهي الحروف التي عليها الكلام والعبارات كلها من الله عز وجل علّمها خلقه وهي ثلاثة وثلاثون حرفاً فمنها ثمانية وعشرون حرفاً تدل على لغات العربية ومن الثمانية والعشرين اثنان وعشرون حرفاً تدل على لغات السريانية والعبرانية ومنها خمسة أحرف متحرفة في سائر اللغات من العجم الأقاليم اللغات كلها وهي خمسة أحرف تحرفت من الثمانية والعشرين حرفاً من اللغات فصارت الحروف ثلاثة وثلاثين حرفاً، وأما الخمسة المختلفة «فتجحخ» لا يجوز ذكرها أكثر مما ذكرناه، ثم جعل الحروف بعد إحصائها وإحكام عدتها فعلاً منه كقوله عز وجل: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وكن منه صنع وما يكون به المصنوع فالخلق الأول من الله عز وجل الإبداع ولا وزن له ولا حركة لا سمع ولا لون ولا حس والخلق الثاني حروف لا وزن لها ولا لون وهي مسموعة موصوفة غير منظور إليها والخلق الثالث ما كان من الأنواع كلها محسوساً ملموساً ذا ذوق منظوراً إليه والله تبارك وتعالى سابق بالإبداع لأنه ليس قبله عز وجل ولا كان معه شيء والإبداع سابق للحروف والحروف لا تدل على غير نفسها، قال المأمون: كيف لا تدل على غير نفسها؟ قال الرضا عليه السلام: لأن الله تبارك وتعالى لا يجمع منها شيئاً بغير معنى أبداً فإذا ألف منها أحرفاً أربعة أو خمسة أو ستة أو أكثر من ذلك أو أقل=

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾:

هنا مُلك سريع الزوال، وهناك مُلك أبطأ في الزوال لأنه أقوى مُلكاً، وشيءٌ منهما ليس مطلقاً لا يُغلب صاحبه، فقد يَغلب وقد يُغلب.

ثم وهنالك ملكوت هي حقيقة الشيء وما به الشيءُ شيءٌ، فمن بيده المُلك قد لا يَملك، ومن بيده المُلك قد يضعف أو يزول مُلكه، ولكن الذي بيده الملكوت فبيده ناصية كل شيء إيجاداً وإعداماً وما بينهما تحويراً وتغييراً، لا مُنعة عن إرادته فيه ولا مهلة بعدها له!

وعلَّ الملكوت هي حقيقة المِلك والمُلك مبالغة فيهما حقهما، فليست إذاً إلا لله، لا يشاركه فيها سواه اللهم إلَّا علماً إذا علَّم الله.

فهنا ملكوت يجوز النظر إليها وقد أمرنا به: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ...﴾[1] وهذه ملكوت تُعرف بالنظر وهي افتقار الكائنات ذاتياً إلى من سواها.

وهناك ملكوت يريها الله من يشاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[2] وعلَّها إراءة لافتقار أعمق مما يحصل بالنظر، وقطعاً ليست هي العلم المحيط بذوات الكائنات فإنه يساوق القدرة الخلاقة لها و﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾[3]؟

= لم يؤلفها لغير معنى، ولم يك إلا لمعنى محدث لم يكن قبل ذلك شيئاً، قال عمران: فكيف لنا بمعرفة ذلك؟ قال الرضا عليه السلام: أما المعرفة فوجه ذلك وبيانه أنك تذكر الحروف إذا لم ترد بها غير نفسها ذكرتها فرداً فقلت: ا ب ت ث ج ح خ حتى تأتي على آخرها فلم تجد لها غير أنفسها وإذا ألفت وجمعت منها وجعلتها اسماً وصفة لمعنى ما طلبت ووجه ما عنيت كانت دليله على معانيها داعية إلى الموصوف بها، أفهمت؟ قال: نعم.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

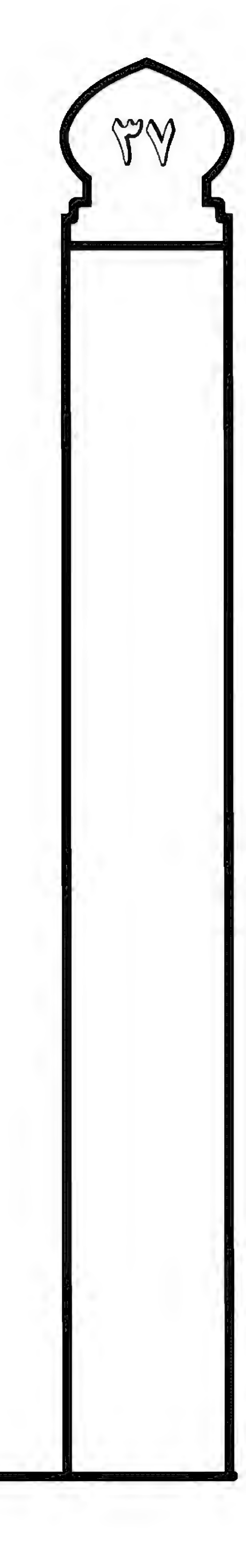
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.

وهنالك ملكوت هي - فقط - بيده تعالى علماً وقدرة: ﴿قُلْ مَنْۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[1]؟ ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ عن أن يعيى بخلق أمثالنا أو يتخذ في شيءٍ لنفسه شريكاً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كحتمية تقضيها العدالة والحكمة الإلهية!

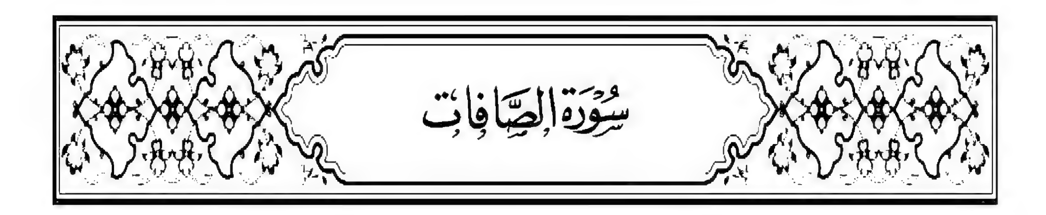
وإنها إيقاعة ختامية قاحلة لهذه الجولة الهائلة في السورة كلها، تضم الأصول الثلاثة بإجمال لطيف!



(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.



سُورَةُ الصَّافَّاتِ



مكيّة وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾:

أدلة ثلاثة متتاليات، متفرعة على بعض، صافات فزاجرات فتاليات، تأتي مثبتة لتوحيد الله بصورة القسم وسيرة البرهان، توحداً لهذا المثلث فيما يصفُّ ويزجر ويتلو.

أترى «الصافات» هي - فقط - الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[1]؟ والملائكة ليسوا إناثاً وإن كانوا هم من الصافين! أم هم

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٦٥، ١٦٦.

النبيون؟ فكذلك الأمر وأحرى ألَّا يُصاغوا في صيغة الإناث[1]! أم أنها هي الطاقات الصافات ملائكية وبشرية أمّا هيه، جنود ربانية مصطفَّة في أماكنها السماوية والأرضية: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] ولو أن في الكون آلهة متشاكسة لأصبحت مثلث الصافات في رسالاتهم التكوينية والشرعية، متناحرة متشاكسة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3] فتناسق الصافات ووحدتها في اتجاهاتها برهان لا مرد له على وحدة الموجِّه: ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾.

فملائكة الله طاقات صافات في صفوف متراصّة على صنوفها المختلفة، ناظرين أمره سبحانه ومنه تنزيل الوحي، ورسل الله صافات أخرى على درجاتهم لتلقِّي الوحي ثم إلقائه على المرسل إليهم، دونما تخلف قيد شعرة، والطاقات الكونية كلها صافات صاغية لأمر الله في تدبير الكون مهما كانت وسائط مسيرة أمّا هيه؟ فـ ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[4] ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ. . .﴾[5].

و﴿صَفًّا﴾ في تنكير التعظيم يعظم موقف صفيفها جنوداً متراصة دونما فشل ولا فتور.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ هي الطاقات التي تزجر وتمنع عما زجر الله من هؤلاء الثلاث في شرعة وتكوين، وهل هي الصافات نفسها في صفة ثانية زاجرة،

---

(١) نور الثقلين ٤: ٤٠٠ - ٤ - القمي في الآية قال: الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

(٥) سورة الملك، الآية: ٥.

ومن ثم التاليات؟ كأنها هي! فالصافات هي الطاقات المتحضرة لتطبيق أوامر الله، وتُختصر أعمالها وتُحتصر في سلب: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ ثم إيجاب ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾. وإنها تمثّل كلمة التوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في بُعدي، «زاجرات وتاليات» نفي ثم إثبات، وفي: أنها لا تختلف فيما تُحمَّل، ولا تتخلف عما يُؤمَل، صافات زاجرات تاليات في وحدة صفوف وتوحيد صفوف مهما اختلفت صنوف الصفوف.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ تزجر الشياطين عن تدخلاتهم في وحي الله وسائر فعله الصارم ملائكية، وتزجر الدعايات المضللة عن فاعليها، بشرية رسالية وما تلاها، وتزجر التهرجات الكونية عن إفسادات لا قبل لها إلّا من الله.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ ملائكة على الرسل، ورسلاً على المرسل إليهم، وآيات آفاقية وأنفسية تتلو ذكر الله لمن أبصر بها فبصَّرته، ولمن أعرض عنها فأعمته.

وهذه الثلاث في كل من الزاجرات والتاليات متوافقات متتاليات تعضد بعضها بعضاً، فكتاب التكوين والتشريع هما من كاتب واحد ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[1]؟:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾:

ومع الصافات الزاجرات التاليات، فالسماوات والأرض تشهدان وما بينهما والمشارق ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾

هنالك للكواكب الناجمة السيارة مشارق، كما لها مغارب، فللشمس وحدها مشارق عدد أيام السنة، وفي حساب أدق[2] عدد الآفاق التي تشرق

(١) سورة الملك، الآية: ٣.

(٢) بهذا الحساب في كل ثانية أم آن مشرق ومغرب، ففي أربع وعشرين ساعة حسب الثواني للشمس فقط/ ٥١٨٤٠ مشرقاً ومغرباً ففي السنة ١٨٦٩١٥٦٦٠٠ مشرقاً ومغرباً.

عليها وتغرب منها، فالأرض في دورتها حول الشمس تتوالى المشارق كما المغارب - على بقاعها المختلفة، وعلَّ هنا ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ فقط دون والمغارب - كما في غيرها: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ﴾[1] علّها لمناسبة المشبَّه به وهو شروق الوحي من شموس الهداية الإلهية، بل والكواكب هي مقاذف إلى من يخطف منه الخطفة في الملإ الأعلى!:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾:

آيات خمس حول النيازك النارية، هي في الملك واحدة[2] وفي كلٍّ من الجن[3] و الحجر ثلاث[4] اثنتا عشرة آية في سائر القرآن تتحدث عن الشهب الثاقبة والنيازك النارية المقذوفة من مدفعيات الكواكب بالحرس الشديد، وآيات الجن تختص بالحرس الشديد والشهب منذ الوحي الأخير، والأخرى تعم تأريخ الرسالات وما قبلها منذ خلقت الكواكب.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ الكواكب تأتي في الملك وفصلت «مصابيح»: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾[5] وفي الحجر «بروج» وفي «ق»

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

(٢) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [المُلك: ٥]... (٥) راجع ج ٢٩ من ٢١ الفرقان ففيه تفصيل من رجوم النجوم.

(٣) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٨-١٠] راجع ج ٩ من الفرقان ففيه بحث يخص الحرس الشديد والشهب وأنها هناك خاصة بمطلع الوحي المحمدي..

(٤) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

(٥) سورة الملك، الآية: ٥.

فقط تزيين السماء بها ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾[١] تعبيرات ثلاثة عن زينة السماء، كلٌّ يعني معنى في موقفه الخاص، وعلَّ أشملها لمدن السماء وبروجها ومدفعياتها «الكواكب».

و﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ صفة بموصوفها تعني أدنى السماوات السبع إلينا ساكني هذه الأرض، أم وسائر الأرضين وكما فُصلت في الطلاق وفصِّلت، فـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ هنا مؤنث الداني من الدنو دون الدني الدناءة، فليست «سماء الدنيا» - مضافة - دون الآخرة، إذ للدنيا سماوات سبع لا واحدة، فهي سماوات الدنيا دون ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾!

﴿بِزِينَةٍ﴾ لا فقط لأهل هذه الأرض، بل ولكلِّ الناظرين أيّاً كانوا ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[٢] وهم كل مَن له أن ينظر من ساكني هذه المعمورة أم سواها من مدن السماء.

و«زينة» كـ«مصابيح» و«بروجاً» مواصفات ثلاث لـ«الكواكب» وهي تستغرق الكرات السماوية كلها، ولو كانت «كواكب» لأبقت مجالاً لكواكب أخرى في سماوات أخرى، ولكنها «الكواكب» جمعاً محلًّى باللام يفيد الاستغراق المطلق المطبَق لكلِّ ما يسمى كوكباً، ثم ﴿وَحِفْظًا﴾ مواصفة أخيرة لهذه الكواكب.

ولقد خيِّل إلى بعض القاصرين قصر ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على التي يراها أهل هذه الأرض بعيون مجردة أم ومسلحة، ودون قصرها خرط القتاد!.

و«الناظرين» يعم النظر بالعيون المسلحة كما يعم كل الناظرين هنا وفي سائر العالم، فهي - إذاً - كل الكواكب في كل العالم وقد زينت بها السماء الدنيا، فهي إذاً كلها في السماء الدنيا وكما تنتشر كلها في الأخرى: ﴿إِذَا

---

(١) سورة ق، الآية: ٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ١٦.

ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾﴾[(١)] فكما السماء تعم السماوات كلها، كذلك الكواكب تعمها كلها، فـ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ تعمها على سواء.

﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ منذ تكوينها والشياطين، وأما غير الشياطين من الجن فقد كانوا يتسمَّعون ويسمعون حتى الوحي الأخير ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾[(٢)].

و﴿كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ لا يخص شياطين الجن فإنهم بعضهم لا كلهم، فليست لغُزاة الجوِّ من شياطين الإنس حَظوة من الملإ الأعلى على أية حال، مهما عُزل المؤمنون من الجن والإنس عن السمع منذ الوحي الأخير، ولم يكونوا قبله من المعزولين.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾.

لا يتسمعون إلى الملأ الأعلى مهما حاولوا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾[(٣)] ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾ بالنيازك النارية ﴿مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ إذا تدنَّوا تسمُّعاً، ولا يقذف إلا من تسمَّع قذفاً لدحره دون ثقب بالثواقب:

﴿دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾: قذف ودحر لمن تسمّع لكيلا يسمع.

أترى ﴿دُحُورٗاۖ﴾ هي جمع الدحر بمعنى المصدر؟ أو اسم المفعول؟ أم هو المصدر مفرداً؟ مفعولاً له أو مفعولاً مطلقاً؟

معنى الدحر مفرداً بعيد فإن لفظه لفظه لا دحوراً، فقد تعني جمع الدّحر بمعنى المفعول مبالغة كأنهم نفس الدحور، ليس لهم إلا اندحار وفرار، هو حالهم إذ يسمعون فلا تتاح لهم فرصة وما يستطيعون ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة الجن، الآية: ٩.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٢١١، ٢١٢.

لَمَعۡزُولُونَ﴾[1] ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾: خالص دائب يوم الدنيا إذ يعيشون اندحاراً في ترذُّل عما كانوا يشتهون، وبأحرى يوم الأخرى فهم في جهنم خالدون.

﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾.

يقذفون من كل جانب لدحرهم دون ثقبهم حيث الجريمة هي التسمع في سمع ولمّا تقع، يقذفون دحوراً ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ اختلاساً واستراقاً ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾[2].

ذلك الشهاب والنيزك الناري يتبع الخاطف المسترق ويثقبه، مبيناً في الجو لكل مستبين، ومبيناً أن هناك خطفة واستراقاً، ومبيناً أنهم «لا يسمعون» و﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾.

و﴿شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ يثقب بنوره الظلام، ويثقب خاطف الخطفة فلا يدعه يرجع إلى ناظريه بسلام، فلا يُخطئ ثاقبُه هدفَه كما يُرام.

ويا لهذه الكواكب البروج المصابيح الزينة كيف أصبحت من واجهة أخرى غيبية رجوماً ثاقبة للشياطين، كوزارة الدفاع السماوية، حاوية تلك المدفعيات والمقاذف الجبارة، تقذف المتسمعين من الشياطين دحراً، وتتبع الخاطفين المسترقين ثقباً، فلا تبقي متسمعاً إلَّا دحرته ولا خاطفاً إلَّا ثقبته.

فالملأ الأعلى في حفاظ دائب مكاناً ومكانة، فالمحادثات الغيبية لهم لا تعدوهم إلى مردة الشياطين، مهما تحرَّصوا ولكي يتخرسوا على الغيب بخليطات من الملإ الأعلى وخيالات وهُراءات من الأدنى، فيخيِّلوا إلى البسطاء أنها كلها من صلب الغيب.

إذاً فـ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ داخلة في عسكر ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ١٨.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ في معسكر سماوي حارس، وبالأحرى للملإ الأعلى في الأرض وهم الأنبياء ومن يحذو حذوهم، بأحرى لهم أن يُحفظوا عن استراق مردة الشياطين وَمسِّهم وَجسِّهم، حيث الملأ الأعلى في الأرض هم الأصلاء في مشارقهم، والأعلى في السماء هم الوسائط الفروع!.

هذه من أهداف الشهب الثاقبة والنيازك النارية، يكشف الوحي عن وجهها القناع، ثم هناك أهداف أخرى كشف العلم عنها أم لم يكشف، دون مطاردة ومناحرة بينها، فالناكر لهذه الملحمة الغيبية لا يرمي إلّا في الظلام خرساً بالغيب.

وترى من هم الملأ الأعلى المحظور التسمُّع إليهم وأين هم؟

الملأ هو الجماعة التي تملأ العين، وهم في المكانة بين أدنى وأوسط وأعلى، والأدنى هم أكثر ما جيء بهم في القرآن، ثم الأوسط كملإ سليمان: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[١] وليس الأعلى إلّا هنا وفي ص: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾[٢] فالملأ الأعلى هم أعلى مكاناً مطلقاً، ومكانة بالنسبة لمن سوى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وليس اختصام الملإ الأعلى إلّا حواراً في أنباء الغيب، وأنباؤهم غيب عن أهل الشهود والغيب، وحتى النبي ﷺ إلّا ما علمه الله، فـ«ما كان» تضرب إلى ماضيه قبل أن يوحى إليه بما أوحي ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[٣].

(١) سورة النمل، الآية: ٣٨.
(٢) سورة ص، الآيتان: ٦٩، ٧٠.
(٣) سورة ص، الآية: ٧٠.

ولأن الكواكب ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ فهي إذا أمكنة الملإِ الأعلى فيها وبينها في أجوائها، فليس لأي شيطان مارد التسمُّع إليهم اقتراباً إلى أمكنتهم.

ومن ثم كيف يواصل الشياطين في تصعُّدهم إلى الملإِ الأعلى يَسَّمَّعونهم، وهم عارفون تجربة وتكراراً أنهم يدحرون ويقذفون من كل جانب، أو يتبعهم شهاب ثاقب؟

من الجواب - إضافة إلى واقع ذلك التصعُّد المكرور - أن الاستماع إلى الملإِ الأعلى مِن أهم غاياتهم ليتنزلوا على كل أفاكٍ أثيم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾[1] وكلما كان الهدف أسمى فالهادف إليه أسعى ولحد إحداق الخطر أو إطباقه، وكما يعاكسهم في الشرف المناضلون في سبيل الله، فحتى إذا علم المخلصون منهم أنهم يقتلون لا يبالون بدارا إليه بكُل إصرار.

ثم الشيطان هو من الجان ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[2] فكيف يصطدم بالنيزك الناري، المخلوق من نار السموم؟

الشيطان مخلوق من النار وليس هو بعد خلقه ناراً، كما الإنسان المخلوق من تراب فلم يظل تراباً، فكما يصدم الإنسان من تراب جامد وسواه من تراب، كذلك الشيطان بشهاب ثاقب وسواه من نار، ولا سيما أن في السرعة وَقْعَتها، حتى إذا كان المرمي أرخى من المرمي إليه!

وهل المدحورون بقذف أو شهاب هم - فقط - كل شيطان مارد يروم التسمُّع فيُرمى؟ أم وكل غاز للفضاء وإن لم يتسمع، في إمكانية السمع كالجن المؤمنين، أو عدمها كغزاةٍ من الإنس؟

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢١-٢٢٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

آيات الرجوم والشهب والمقاذف تختص كل شيطان رجيم: اللّهم إلّا آيات الجن حيث تعم الجان المؤمنين، فإذا هم لم يقعدوا مقاعد للسمع لا يُدحرون، وبأحرى غيرهم من الإنس إذ لا يستطيعون!

وأخيراً ترى أن السماوات الست - الباقية فوق الأولى - هي كلها خلوٌّ عن كواكب أمّاذا، حيث «الكواكب» استغرقتها في السماء الدنيا؟

علَّ الكواكب الزينة للناظرين تختص السماء الدنيا، وقد تكون في سائر السماوات كواكب أخرى ليس لها ناظرون بأية عيون مجردة ومسلحة، أم أن ناظري أرضنا وهم المحور الرئيسي إنهم لن يستطيعوا أن ينظروا إلى الكواكب في غير السماء الدنيا بأية عيون، كيف وهم عاجزون لحد الآن أن يتعمقوا بأقوى العيون المسلحة المجرات الفوقية لسمائهم؟

وعلى أية حال ليس لنا نفي وجود كواكب أخرى في سماوات أخرى، ولا التعرف إليها إن كانت، كيف ونحن حائرون في سمائنا وأرضنا، سبحان الخلاق العظيم!

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾:

﴿أَهُمْ﴾ بنو آدم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وأشدَّه وأصلبه في البنية الجسدانية - فقط - فـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1] فلا أحسن منه في مطلق التقويم، مهما كان ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من سواه ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾، و﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يعم الجن والملائكة ممن نعرف، وغيرهما من ذوي عقول لا نعرفهم، وعلَّهم يشمل سائر الخلق أيضاً ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾[2] والسماء بما فيها من كواكب وغازات أشد خلقاً من هؤلاء أجمع، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

(١) سورة التين، الآية: ٤.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٧.

دُخَانٌ . . .﴾[١] غاز ما أصلبه وأصلده وقد خُلقت منها الكواكب! ولكنما الإنسان ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾: لازم بعضه بعضاً ولازق، فبنية الإنسان أرخى من ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ فخلقه أهون بدءاً من بدئهم، فخلق أمثالهم يوم المعاد - وهو أهون - أسهل من خلق مَن خلقنا مرحلتين! ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] أكبر لأنه أشد وخلقهم أسهل!

و﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ هو سلالة من طين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[٣] (ثم جمع سبحانه من حزْن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنَّها بالماء حتى خلصت ولاطها بالبلة حتى لزبت)[٤].

هناك الإنسان في أوَّله تراب، ثم بسنِّ التراب ماءً حمأ مسنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٥] ثم سلاً من صلصاله فطينٌ لازب، هو السلالة من طين بلا نتن من حمئه ولا يَبَس من ترابه، فإنما ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾![٦]

ذلك التراب الحمأ المسنون الطين اللازب في خلق الإنسان الأوَّل، فهل إن بنيه المتناسلين بالزواج كذلك مخلوقون من ذلك؟

كلّا في ظاهر التناسل بخلاف آدم المخلوق دون تناسل، ونعم حيث النطفة تنتهي إلى التراب، فإن الطعام كله ناشئ من التراب[٧].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١. (٢) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.

(٤) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

(٦) الدر المنثور ٥: ٢٧٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصَّافات: ١١] قال: اللازب والحمأ والطين واحد كان أوله تراباً ثم صار حمأً منتناً ثم صار طيناً لازباً فخلق الله منه آدم.

(٧) فالجنين يتولد من المني المتولد من الدم المتولد من الغذاء وهو حيوانياً ونباتياً يتولد من الطين اللازب، اللازم بعضه بعضاً!

ومن ثم الطينة وهي النطفة تختلف في الإنسان، رغم أن الطين الأول في خلق الإنسان الأول واحد[١].

وقد تعم ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ الطين الأول وسائر الطين وهي سائر الطينة، فكل طينة علييْنية لازبة أشكالَها، وكل طينة سجينية لازبة أشكالها، كما لَزِبَ الطين الأول في أجزائه.



(١) نور الثقلين ٤: ٤٠٠ ح ٩ في أصول الكافي محمد بن يحيى عن محمد بن الحسن عن النضر ابن شعيب عن عبد الغفار الجازي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله خلق المؤمن من طينة الجنة وخلق الكافر من طينة النار قال: وسمعته يقول: الطينات ثلاث طينة الأنبياء والمؤمن من تلك الطينة إلا أن الأنبياء هم من صفوتها هم الأصل ولهم فضلهم والمؤمنون الفرع من طين لازب كذلك لا يفرق الله عز وجل بينهم وبين شيعتهم...

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

هنا أمران عجيبان هما عجاب الرسول ﷺ من إصرار حماقى الطغيان على نكران المعاد وأدلتُه واضحة وضْح النهار، إذ هم معترفون بأشد من المعاد وهو الخلق الأول للمُعاد، وخلق السماوات والأرض.

ثم عجابهم من إصرار الرسول ﷺ وعجابه حين ينكرون، لحدٍّ ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من ملحمة المعاد الحساب، ولأنهم غافلون فلا يذكرون ما هو أشد وأصعب من المعاد، لكن:

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

كلّما توالت عليهم ذكريات المعاد لإمكانيته بأحرى من الخلق الأول،

ولوجوبه قضية العدل والحكمة الإلهية، ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ - ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[١] عن غيّهم على عيّهم في الإجابة عن أسؤلة الوحي حيث تبكتهم وتسكتهم!

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

فآيات الله البارعات التي هي مواد الذكرى والإيمان بالله، تنقلب عند هؤلاء - المقلوبة قلوبهم والمعقولة عقولهم - مواداً للسخرية، يطلبونها وسائل الهزء بالرسول ﷺ ودعوته، ماءٌ يزيدهم عطشاً ودواءٌ تزيدهم داءً: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٢]: !

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

فهل ﴿هَٰذَا﴾ نبأ الرسول العظيم أنكم ستحشرون؟ وليس النبأ أياً كان سحراً مهما كان كذباً! أم ﴿هَٰذَا﴾ برهانه القاطع وتبيانه اللّامع الذي لا قِبَل له ولا جواب عنه، فهو يقنع العقول في كافة الحقول؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[٣] أفكلما لا يلائم أهواءَكم وما تشتهون، إنه سحرٌ مهما برهنت له براهين حسية وعقلية وفطرية «وماذا بعد الحق إلّا الضلال المبين»!

الرسول يدعي أمراً ببرهان، ويدعوكم لتصدقوه دون مجازفة، ثم أنتم تنكرونه وتكذّبون دونما برهان، إلّا دعوى جازفة جارفة ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فما داؤكم؟ وما دواؤكم؟! ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ لقيلكم:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾:

وقد خلقكم أوّل مرة ولم تكونوا شيئاً مذكوراً! وقد خلق السماوات والأرض وهو أشد من خلقكم أعيانكم وأمثالكم!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٣) سورة الطور، الآية: ١٥.

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

وهم أبعد عهداً في موتهم، فترابهم وعظامهم؟ وهم أعظم منا فأبعدُ أن يتقبلوا إعادة في المَعاد؟ وهم وآباؤهم سواءٌ أمام القدرة الحكيمة!

ولقد كان تأصيل الآباء القدامى - في أي أصل - من الخرافات الجارفة عند الجاهليين، فإذا تسهلوا في أمرهم أنفسهم استصعبوا ذلك الأمر من آبائهم الأولين، وهم على سواءٌ فيما لهم وعليهم، وآباؤهم كأمثالهم كانوا أبناء آباء لهم قبلهم وحتى ينتهي إلى آدم ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)] ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[(٢)] والجواب الصارم عن كل هذه الاستبعادات:

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿نَعَمْ﴾ ليست إجابة عن سؤال استعجاب مجرداً عن دليل، حيث البراهين تحتف بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وهم بُكم عن جوابهم أنفسهم ﴿نَعَمْ﴾ وهنا إضافة ﴿وَأَنتُمْ﴾ الأبناء الآخرين والآباء الأولين ﴿دَٰخِرُونَ﴾: أذلّاء صاغرون، أمام القدرة الحكيمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(٣)].

وليس يطول بين ﴿نَعَمْ﴾ في إجابة لفظية، وبين ﴿نَعَمْ﴾ في إجابة واقعية، فإذا هم أمام مشهد من مطوَّلة المشاهد ومهوِّلتها، يلتقي فيها الوصف بالحوار ولات حين فرار:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

في غمزة عاطفة، وومضة خاطفة - فقط - قدر ما تطلبه زجرة واحدة:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.
(٢) سورة ق، الآية: ١٥.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾(١) ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ ما كانوا ينكرون، ينظرون أنفسهم مبعوثين، وينظرون حق الوعد يوم الدين بعد ما كانوا يوم الدنيا عنه عمين! ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٢).

الخلق الأول لبني الإنسان كان يتطلب تدرجاً في تنقُّلات بزجرات واقعية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾(٣) وفي المعاد زجرة واحدة: طردةً بصوت قارع هو الصيحة والنفخة الثانية في الصور، ونقرة في الناقور ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ وكما في خلق آدم الأول ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(٤) ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥) أترى كما النفخة هي للناكرين يوم الدين زجرة، كذلك هي للمصدقين زجرة؟ وهي بداية العذاب! كلا، فإنها لمن ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ كأولى ويلة لهم! دون سواهم.

ثم ﴿هِىَ﴾ في «إنما هي» تعني الصيحة والنقرة والنفخة، فهي للناكرين زجرة وللمصدقين نفحة، مهما ليست هي في ذاتها إلّا هيه، فلكلٍّ شاكلته يوم الرجعة ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ ﴿... بِٱلسَّاهِرَةِ﴾(٦)!

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾:

نقلة قاصدة من برهان الواقعة - لمَّا لم يك ينفع - إلى واقعة البرهان، تستعرض معرض الويل والعويل من حصيلة الزجرة الواحدة علَّهم ينتبهون، وعن غيِّهم يرجعون!

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٣) سورة البلد، الآية: ٤.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٥) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٦) سورة النازعات، الآية: ١٤.

﴿يَوَيْلَنَا﴾ كيف كذبنا يوم الدين رغم براهينه القاطعة! يا ويلنا مما وقعنا فيه نتيجة تكذيبنا فـ ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾: الطاعة، حيث تبرز في جزاء وفاق: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَتُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[١].

وبينا هم في قولتهم الويلة، إذا لهم بويلة أخرى تقرعهم من حيث لا يحتسبون، كما لم يحتسبوا حساباً ليوم الدين:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

خطاب العتاب لأهل العذاب والتباب من رب الأرباب، أمَّن يؤمرون بهذه القولة العاتبة، وليس من كلامهم، إذ ﴿كُنتُم﴾ خطابٌ، فمن هو المخاطِب منهم الخارج عن ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؟ وقضيته - إذاً - «كنا به نكذب» تلاوماً بينهم أنفسهم، ثم «احشروا...» تِلوَه دليل ثان أنه خطاب الله.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المكذبين والمصدقين: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٢] و﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين كل حق وباطل مزيجان يوم الدنيا، وكذلك كل فصل يتطلبه «يوم الدين» فصلاً بالعدل والفضل ومن ثم خطاب للزبانية تحقيقاً لجزائهم الوفاق مع كل الرفاق:

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾:

وترى هؤلاء ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يُحشرون إلى صراط الجحيم، فما ذنب أزواجهم بعولةً أم زوجاتٍ؟ فإن كانوا من الذين ظلموا شملتهم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإن كانوا من الذين عدلوا فقد سبقت لهم الحسنى، فـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٣] بعولةً أم زوجاتٍ أو سواهم؟.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٢) سورة يس، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هنا هم أصول الظلم والضلال، فـ ﴿ظَلَمُوا۟﴾ تضرب إلى عمق الماضي وتجعل حياة أصحابها ظلماً، فهم الذين عاشوا ظالمين بحق الحق وبحق أنفسهم وعباد الله، فـ «أزواجهم» هم أشباههم[1] وقرناؤهم الذين عاشوا على هامش الضالين يتبعونهم فيما هم، بعولةً أم زوجاتٍ أم أية أقارب أو أغارب، ولذلك يتباغضون في حوار: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[2] فالأوّلون هم فروع الضلالة والآخرون المسؤولون هم الأُصَلاء.

وهل إن ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ تشمل كل المعبودين من دون الله، ملائكة ونبيين إلى جنب طواغيت وأوثان؟ كلّا! حيث المعبودون الثلاثة لا يستحق كلهم الجحيم، فإذا الطواغيت يعذبون لطغيانهم وتألههم لأنفسهم، ثم الأوثان والأصنام تُحشر مع عابديها الجحيمَ تعذيباً ثانياً للعابدين، فما بال المسيح عليه السلام وملائكة معبودين يعذبون وهم براء: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ ... إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...﴾[3] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[4].

لذلك تأتي هنا «ما» دالة على غير ذوي العقول من أصنام، أم وطواغيت برِدْفها في أنهم لا يعقلون، وكما أتت في غيرها ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

(١) نور الثقلين ٤: ٤٠١ ح ١١ - القمي قال قال: أشباههم.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٢٧.
(٣) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.
(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠١، ١٠٢.

دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[١] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٢].

وحتى إذا أتت فيما أتت «مَن» اختصت بغير ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ ولأنهم صالحون.

احشروهم: جمعاً بينهم يتراؤون بعضُهم البعضَ ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فإذ لم يهتدوا يوم الدنيا إلى صراط مستقيم، فليهتدوا يوم الدين إلى صراط الجحيم، والصراط هو السبيل المستقيم الذي يبتلع سائلَه دونما انحراف، فأهل الحق إلى صراط الجنة المستقيم، وأهل الباطل إلى صراط الجحيم، كلٌّ إلى ما خطط لنفسه من هدى وصراط وما ربك بظلام للعبيد.

ويا لها من لهجة جازمة في تهكُّم عارم، وها هم أولاء قد هُدوا إلى صراط الجحيم ولمَّا يصلوها، إذ يبادرهم أمر الإيقاف:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

إنه ليس سؤال استعلام عن مجرمين وسواهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ . . . يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[٣] ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٤] وإنما هو سؤال تنديد وتبكيت عن المجرمين، ثم لا سؤال عن سواهم إلَّا بياناً لموقفهم أمام أهل الحشر أجمعين تبجيلاً لهم أو تخجيلاً:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾[٥] ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٦]

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٧.
(٣) سورة الرحمن، الآيات: ٣٩-٤١.
(٤) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٥) سورة الأعراف، الآيتان: ٦، ٧.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٨.

وقد يروى عن الرسول ﷺ قوله: «يا معاشر قراء القرآن اتقوا الله عزّ وجلّ فيما حمَّلكم من كتابه فإني مسؤول وإنكم مسؤولون، إني مسؤول عن تبليغ الرسالة وأما أنتم فتسألون عما حمِّلتم من كتاب الله وسنتي»(١) و«ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»(٢).

وليست المسؤولية بالنسبة للمكلفين فحسب بل «اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»(٣) فـ «ما من داع دعى إلى شيء إلَّا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه وإن دعا رجل رجلاً . . »(٤).

فلآية الوقوف موقف خاص بين آيها تختص فيه بالمجرمين، وموقف ثان يعم الخلق أجمعين، وفي ذلك الموقف يعمهم السئوال عن الولاية:

ولاية الله والرسول والأئمة، ولأن الأخيرة مختلَف فيها بين الأمة، ترى تظافر الروايات أنهم، مسؤولون عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام (٥).

---

(١) نور الثقلين ٤: ٤٠٢ ح ٢٢ عن أصول الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٢) حديث مشهور عنه في كتب عدة وفي المصدر ح ١٥ في اعتقادات الإمامية للصدوق قال زرارة للصادق عليه السلام: ما تقول يا سيدي في القضاء والقدر؟ قال: أقول إن الله تبارك وتعالى إذ جمع العباد يوم القيامة سألهم عما عهد إليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم وفيه ١٦ عن العيون في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المتفرقة حديث طويل وفي آخره ثم قال - وقد ذكر علياً عليه السلام - حاكياً عن النبي ﷺ: وعزة ربي أن جميع أمتي لموقوفون يوم القيامة ومسؤولون عن ولايته وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

(٣) المصدر عن نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام: . . .

(٤) الدر المنثور ٥: ٢٧٣ - أخرج البخاري في تاريخه والترمذي والدارمي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: . .

(٥) وقد أخرجه فيمن أخرج الحسكاني في شواهد التنزيل عن أبي النصر العياشي في تفسيره بإسناده عن مندل الغزي يرفعه إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ قال: عن ولاية علي عليه السلام ورواه مثله عن أبي سعيد الخدري ومنهم الحمويني في فرائد السمطين بسنده عن أبي سعيد الخدري وأخرجه مثله عنه الزرندي في نظم درر السمطين ص ١٠٩ ومثله عنه البدخشي في مفتاح النجا ٤١ مخطوط والموفق بن أحمد في المناقب ١٨٦ عن أبي إسحاق=

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

وقد كنتم تزعمون شركاءكم لكم أنصاراً، فأين نصرتهم لكم وأنتم معهم محشورون؟ أم نصرتكم لهم وقد كنتم لهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؟ أم نصرة كل من الظالمين لأنفسهم، وأزواجهم لأنفسهم؟ أم نصرة الظالمين لأزواجهم أمّا هي من نصرة؟

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

ليس لهم أية قولة أو فعلة إلّا أن يؤذن لهم، وليس لهم إلّا استسلامهم عابدين ومعبودين لحكم أحكم الحاكمين، وقد يؤذن لهم في حوار لا تأتي لكلٍّ إلّا البوار وناراً على نار:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

البعض الأزواج يتساءل البعض الذين ظلموا لماذا أغويتمونا خادعين، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[1].

= والعلامة العيني في مناقب علي ٥٧ عن أبي سعيد عنه ﷺ والحافظ الحسين الجري في تنزيل الآيات ٢٦ عن ابن عباس: عنه ﷺ والسيد علي بن شهاب الدين الهمداني الحسيني في مودة القربى ٩٢ والعلامة القندوزي في ينابيع المودة ٢٥٧ عن أبي سعيد عنه ﷺ والعلامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل ١٢١ عن أبي سعيد عنه ﷺ والعلامة الأمر تسري في أرجح المطالب ٥٦ و٥٤٩ نقلاً عن تفسير الواحدي عنه ﷺ والسيد أبو بكر الحضرمي في رشفة الصادي ٢٤ عن الواحدي عنه ﷺ أي عن ولاية أهل البيت وقال الحافظ جمال الدين الزرندي عقيب حديث الولاية قال الإمام الواحدي: هذه الولاية التي أثبتها النبي ﷺ وهي مسؤول عنها كما في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] (ملحقات إحقاق الحق ج ١٤ ص ١٨٢ - ١٨٥) وفي كفاية الخصام ص ٣٥٩ في كتاب الفردوس لابن شيرويه الديلمي بإسناده عن أبي سعيد عنه ﷺ مثله وقد أخرج فيه روايات ثمان من طرق إخواننا السنة.

(١) سورة ص، الآية: ٦٤.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٨﴾:

وهكذا يحمِّلون أوزارهم على الذين حَمَلوهم على الضلالة كأنهم براءٌ عما كانوا يفعلون، فيجيبهم الذين ظلموا:

﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٢٩﴾:

حوارٌ ما ألطفه بين أهل النار تأتي لهم بكل بوار: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٣٣﴾(١).

وخلاصة دعوى أزواجهم المستضعفين أننا كنا مؤمنين فصددتمونا عن الهدى إذ ﴿كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ في ﴿مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ واليمين في المكر هو الإتيان من واجهة الحق وصورته بسيرة الباطل وسريرته، أن تجعل آيات الله وبيناته ذرائع لنكرانها من حيث لا يعلمون: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾(٢).

وخلاصة الرد من المستكبرين الذين ظلموا ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ - ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾ فالإيمان على بصيرة ويقين لا يزعزعه مكر الليل

(١) سورة سبأ، الآيات: ٣١-٣٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

والنهار والإتيان عن اليمين، فإن حجة الإيمان بالغة وحجة الكفر داحضة، وأين بالغة من داحضة؟ وإن كانتا في صراع دائب، فإن سعي الكفر - أياً كان - خائب «فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف»!

وكيف يزول إيمان بقوة وسلطان بل وما كان لنا عليكم من سلطان! والسلطانُ الحجةُ منفي عن أهل الباطل، والسلطان القدرة ليس ليغير الإيمان ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾(١) في البعض من أعمال الإيمان.

هنالك ثالوث ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ...﴾ - ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ - ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ تفسح المجال لكل مضلِّل، فإن مادة الضلال كائنة، والمضلِّل يبرزها ويمدّها، وليس له من سلطان مع وجود الإيمان ولا معه.

فالمستضعف المقصر في ضلاله بمضللين ليس إلا رَدْفاً لمستكبرين ضالين، وإن كان التقصير دركات، فعلى كلٍّ دركُه قدر ما قصّر، ثم المستضعف القاصر لا يردف بمستكبرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾(٢).

فالمستضعفون المقصرون هم من الظالمين، ومن أولياء الشياطين، يفتنهم الشيطان عن الإيمان وما هم بمؤمنين: فـ«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتَّبع وأحكام تُبتدع يُخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.
(٢) سورة النساء، الآيات: ٩٧-٩٩.

ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[١].

نتعرف من هنا وهناك مدى فرض التحقيق في الإيمان، حتى يتحقق لحد لا يفتتن صاحبه بأية فتنة، فإن وصل إلى قمة فهو الهمة، وإن لم يصل - وكثير ما هم غير واصلين - فعلى صاحبه أن يأخذ حذره سلباً في الفرار عن المضللين ولحد الهجرة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وإيجاباً أن يكون دائب التفتيش عما يحقق إيمانه ويبعده عن الفتن، إلَّا المستضعفين في كلا السلب والإيجاب ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ لتقوية الإيمان ومقاومة الفتن ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ للفرار عن حكم المستكبرين، استضعافاً في بُعدية يجعلهم قاصرين دون تقصير، اللّهم إلَّا الذي يعفى عنه لأنه تقصير قصير!

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

مادة الضلال كانت فيكم موجودة، ومادة الإضلال لمن آمن حقاً فينا غير موجودة، وإنما ضعفٌ فيكم يفسح مجال الإضلال لا سيما ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ في حد أنفسكم، فنحن زدناكم في طغيانكم، حيث تعاضدنا في الطغيان.

المستكبرون يتزايدون في حوارهم رداً على المستضعفين في ثالوث: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ جواباً عن ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ في وجه أوَّل هو الدين، ثم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ في وجه ثان من اليمين وهو القوة والسلطان، ومن ثم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ فحتى إذا لم نأتكم عن اليمين فسلب الإيمان وإيجاب الطغيان كان يكفيكم ضلالاً!:

---

(١) الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ينقله عنه في أصول الكافي، وفي النهج باختلاف يسير في بعض ألفاظه.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] إذاً فكلٌّ من المضلِّل والمضلَّل ظالم مهما اختلفت دركات الظلم:

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾:

. . . لقد حقت علينا حقاً وحقيقة كلمة العذاب بما ظُلمنا أو ظلَمتم بما أجرمتم، فالظالم والمظلوم هكذا كلاهما في النار، حيث المظلوم المقصر في دفع الظلم عن نفسه أو فضح الظالم، ظالم بحق نفسه وبحق الآخرين، ومن ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾[2] ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[3].

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أغويناكم كما غوينا، فإن كلًّا يجر النار إلى قرصته: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ . . .﴾[4].

يقولون قولتهم هذه كأنهم يعتذرون ولكنهم لا يُعذَرون كما المضلَّلون المقصرون، وقد تكون عذراً لهم في حوار المستضعفين، أن ليس الإضلال كله منا، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ «مجرمين» ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وإن كنا نحن مشاركين لكم في الظلم والطغيان:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٣) سورة النازعات، الآيات: ٣٧-٣٩.
(٤) سورة القصص، الآية: ٦٣.

في أصل العذاب، إنهم كانوا ظالمين، ولكن دركاته ليست إلَّا حسب دركات الظلم، فالظالم بحق نفسه له عذاب واحد، والمضلِّل الظالم بحق غيره له ضعف العذاب قدر ما ضلَّل، وكما العادل له ثواب مدى عدله اهتداءً وإهداءً: (من سن سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص من أوزارهم) ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾(١) ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾(٢).

أترى إذا كان ضِعف العذاب لمضلِّلين وضعفه لمضلَّلين فماذا تعني وقــالــوا ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾(٣)؟.

هنا الفريقان من المستكبرين المضلِّلين، مهما كان الآخرون ضلوا بسبب الأولين، فلكلٍّ ضعف، مهما اختلف ضِعف عن ضِعف حسب اختلاف البادي في الإضلال والماشي سبيل الضلال والإضلال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا...﴾(٤).

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأعراف، الآيات: ٣٦-٣٨.

ثم هناك ضِعف آخر أشد من ذلك هو الانظلام في الإضلال ثم ظلمٌ في الضلال، ومن ثم عذاب واحد لمن ضل دون إضلالٍ، فلا هو أضلَ مَن سواه، ولا هو ضل بمن سواه، فله عذاب واحد.

فمَن دون الآخرين هم في العذاب الضِّعف مشتركون مهما اختلف ضِعف عن ضِعف، ثم الثلاث في أصل العذاب مشتركون.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أصيلين وفرعيين، دون أن نعذر الآخرين لأنهم مستضعفون، فإنهم كالأولين ظالمون، وكلٌّ يلقى أثامه كما ظلم قدَرَه، ولا يُظلمون فتيلاً.

والمجرمون في اصطلاح القرآن هم الكفار الناكرون لتوحيد المبدأ والمعاد حيث أجرموا الحياة وقطعوها عن أصلها واثَّاقلوا إلى الحياة الدنيا وزينتها:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

استكباراً عن توحيد الله وتخاذلاً في الإشراك بالله مستهينين برسول الله، وَيكأن شركاءهم أعظم من الله وأكرم:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾:

يعتبرون الدعوة إلى التوحيد شعراً وجِنَّة، فالدعوة إلى الشرك نشر وعقليَّة، تسميه للشيءِ باسم ضده، وتحويلاً لحق الله إلى ندِّه.

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

لا هو شاعر ولا مجنون فيما يحمل من دعوة الرسالة، فإنها حق بما تملك من بينات، وبما صدق المرسلين فيما أرسلوا به، فهل الرسل كلهم شعراء ومجانين رغم كافة البراهين، ثم أنتم بشركائكم عقلاء ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ

﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[١] ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢].

فما دواؤكم بعد ذلك الداء العضال إلّا:

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

ليس عذابكم الأليم إلّا جزاءً لكم، وليس الجزاء إلّا أعمالكم، فإنها تبرز يوم تبلى السرائر بحقائقها الشريرة.

فـ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي جزاؤكم بكمها وكيفها، فهي داؤكم معكم لزاماً إلى يوم الدين، تبرز جزاءً وديناً.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

أترى ﴿إِلَّا﴾ استثناء؟ فعمّا هي تُستثنى؟ عن ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ وهم أولاء المجرمون! دون شمول لفسقة المؤمنين فضلاً عن المخلصين؟ ولو توسعنا في «إنكم» أنها تعني كل المكلفين، فحق الاستثناء «إلا المؤمنين» دون ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ حيث يظل المخلِصون ومَن إليهم من المؤمنين من ذائقي العذاب الأليم!

أم هي استثناء عن ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في وجهها الشامل لكل المكلفين، أن الجزاء العدل الوفاق للمجرمين ليس إلّا ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأما المخلَصون فلهم أجرهم الوفاق وزيادة، فضلاً إلى عدل؟ و﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٣] مخلِصين كانوا أم مخلَصين أم أياً من المحسنين!

أم هي استثناء متصل عن ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[٤] في وجهها الشامل،

(١) سورة التكوير، الآيات: ٢٦-٢٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

ومنقطع عن ﴿لَذَآيِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ ومتصل عن ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حيث المخلَصون وهم أصحاب اليمين والسابقون المقربون لا سؤال عنهم إلا تبجيلاً وتجليلاً، وليسوا رُهَناء أعمالهم وما كسبوا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾[1]

كل المكلفين للحساب يحضرون ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾[2] حيث استقروا في قرارة ثابتة من العبودية، فبمَ يحاسَبون؟ وعم يُتساءلون؟

إن مثلث الاستثناء - منفصلاً بين متصلَين - يناسب أدب اللفظ وحَدَب المعنى، فلأن الآيات المسبقة تحدثت عن جزاء ألدّ المجرمين، فليقابلهم أخلص المؤمنين وهم ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

هناك مخلِصون في عبوديتهم لله - وطبعاً - كما يسطعون، فليس إذاً الإخلاص القمة، وقد يشوبه لَمَم وصغار الذنوب، أم غير خالص الطاعة كما يحق، قصوراً ذاتياً أم وتقصيراً قاصراً حيث للشيطان عليهم سبيل ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾[3].

وهنا مخلَصون أكمل لهم ربهم إخلاصهم فعُصموا عن كل غواية عامدة أم خاطئة، فهم المعصومون أياً كانوا، مرسلين أم خلفاء لهم منصوصين كالأئمة الاثني عشر من عترة الرسول محمد ﷺ.

هم خلاصهم عن أي ذنب هو بين إخلاصهم أنفسهم كما يستطيعون، ومن ثم إخلاص الله لهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[4] وهم المؤمنون

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٤) سورة ص، الآية: ٤٦.

حقاً ومعهم المخلِصون: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

فالمخلَصون مستثنون عن أية غائلة وهائلة قد تعم سائر المؤمنين: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾[3] ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[4] ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[5] ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[6].

فلأن الله أخلصهم لنفسه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[7] فلا سبيل لغير الله إليهم ولا سلطان عليهم فضلاً عن الشيطان.

هنا على ذكر عباد الله المخلصين يعرض لهم صفحة جديدة ليوم الدين وجاه ذلك العذاب الأليم للمجرمين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾:

آية منقطعة النظير في سائر القرآن تحمل ميِّزات المخلَصين بـ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ فما هي الميزة في ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾؟

إنه رزقهم عند ربهم في بُعديه مادياً ومعنوياً، ومن الثاني أنهم لا يُسألون: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[8] وغيرهم - ككلٍّ - من

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٧٣، ٧٤.
(٤) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨.
(٥) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٧) سورة طه، الآية: ٤١.
(٨) سورة الصافات، الآية: ٥٧.

المحضَرين المسؤولين، مجرمين ومؤمنين مخلصين ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

ومنه ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾[(١)] ولمن سواهم موتة ثانية هي عن الحياة البرزخية إلى الحياة الآخرة:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فالمخلَصون هم ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ألَّا يُصعَقوا بعد صعقتهم الأولى وهي موتتهم الأولى.

ومنه أنهم ليسوا رُهَناء أعمالهم ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾[(٢)] فليس جزاؤهم كالمجرمين قدرَ أعمالهم، ولا كسائر المحسنين أنهم يُسألون فيثابون قدر إحسانهم وزيادةً قَدَرَهم، فإنهم لا يحاسَبون ولهم أجرهم من غير حساب ولا حدود، لأنهم كانوا مخلَصين في عبودية الله دون حساب ولا حدود.

فذلك الرزق المعلوم، نعلم طرفاً منه كما هنا وفي سائر القرآن، ونجهل طرفاً آخر، فهو لنا معلوم لحدٍّ، ولله معلوم دون حدٍّ، ولعُمَّاله يوم القيامة معلوم كما يحدُّ.

وهنا حسب السنة القرآنية يبتدئ بطرف من الرزق المحسوس، ترغيباً لأحاسيس المؤمنين، ومن ثم طرف كما تطرَّفناه من الرزق غير المحسوس، وأخيراً ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾:

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

فواكه غيرهم ﴿كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٣)] ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[(٤)] إنها قد لا

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٥٨، ٥٩.
(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٩.
(٤) سورة المرسلات، الآية: ٤٢.

تمازجها إكراميات سواها، أم لهم منها قَدَرهم كجزائهم بفضله المقرر لهم، فلهم مطلق الإكرام، ولكن أولئك لهم الإكرام المطلق دون جدٍّ وهم يأكلون فواكههم مكرمين ومتفكهين.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾:

آي الجنات النعيم في سائر القرآن سبع(١)، اثنتان منها - وهذه منهما - تختصان بالمخلَصين والسابقين المقربين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾(٢) والخمسة الباقية تعم المتقين، ولكن أين نعيم من نعيم؟ فنعيم المخلَصين المقربين هو أصل النعيم المطلق: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٣) ونعيم الباقين مطلق النعيم الفرع، وكما هم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(٤).

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

تقابُلهم على سررهم في أصله لا يختص بهم، فهو يعمهم وسائر أهل الجنة، وإنما يمتاز المخلَصون ألَّا يقابلهم إلَّا مَن هو منهم لا دونهم، فالمكلفون هناك أشتات حسب شتات الدرجات أو الدركات ولا يظلمون نقيراً، فالمقابلة على السرر في جنات النعيم الأصيلة تختص بأهلها، مهما كانت لمَن دونهم معهم لقاءات وزيارات.

وحين نجد في هذه المواصفات ما تعمهم وكل أصحاب الجنة، تعمهم في درجاتهم، أو أن هذه المجموعة من ميِّزاتهم مهما عمتهم مفردات بسواهم.

---

(١) هذه ٥٦ / ١٢ ٥٢ / ١٧ ٣١ / ٨ ٢٢ / ٥٦ ١٠ / ٩ ٥ / ٦٥.
(٢) سورة الواقعة، الآيات: ١٠-١٢.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٩.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾:

تُذكر خمر الجنة في آيات عدة لسائر أهل الجنة، بمواصفات لها فصلناها في طياتها، ولكنها هنا لا تذكر للمخلصين بلفظ الخمر، إكراماً لهم زائداً على مَن سواهم من أصحاب الجنة، وتختص لهم بـ ﴿بَيْضَآءَ﴾ إبعاداً للونها كاسمها وسماتها عن خمر الدنيا، ثم ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وفي تنكير ﴿لَذَّةٍ﴾ إعظام لها لحد لا يحد ولا يوصف ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[1].

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ هي ثانية البيضاء في ميِّزات مَعين المخلَصين ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ تعممهم وسواهم: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾[2] فالنزْف هي النزْف، وعلَّ الغَول - كذلك - هي التصدُّع، بفارق أن الغول هو إهلاك الشيءِ من حيث لا يُحسُّ به، والتصدع اشتقاق الرأس وصداعه من الوجع.

إنه ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾: جارٍ - نهراً وسواه، ما يزيد في طراوته ﴿بَيْضَآءَ﴾ كأحسن لون وأنضره وانظره للناظرين، ففيها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ نظْرةً كما هي لهم طعماً وشربةً، ففيها كافة محاسن المشروب، بما ينفي عنها كافة مضاره ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ويُنزَحون، نزف الجسم ونزحه، أم نزح الروح ونزفه، بل وتزيد في الجسم طراوة وطلاوة، وفي العقل نزاهة وعلاوة.

خمر الدنيا تخمر الجسم والعقل تنقيصاً، وخمر الآخرة تخمر النقص والجهل تمحيصاً، وتجعل شاربها سكراناً في الله، غفلاناً عما سوى الله، إذ تزداده معرفة بالله وهيماناً في الله، وكما تُبْلوِر جسمه أكثر مما كان!

نزيف خمر الدنيا في انتزاح الجسم وافتضاح الروح، واغتياله لكلا

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ١٩.

الجسم والروح، يجعلها تخمر الإنسانية وتسترها، وخلافه المضاد في خمر الآخرة يجعلها تخمر كل نقصان، فإنها ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[١].

في خمر الدنيا كل لغو وتأثيم وكل تصدُّع ونزف وكل غَول، وبخلافها خمر الآخرة التي تزيد شاربها كل صحة ومعرفة، لذة حسية ومعرفية، جسمية وعقلية أمَّا هي من لذات لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!

﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾:

«هم» الذكور هنا للأغلبية الساحقة حيث المخلَصات كالصديقة الطاهرة ومريم أمّن هي، هن بينهم قليلات، و﴿قَـٰصِرَٰتُ﴾ تعم الإنسيات والحوريات والجنيات، فإن بين الجن مخلَصين كالإنس مهما اختلفت الدرجات.

و﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ عن أزواجهن، لا تعدوهم عيونهن حتى طرفاً، لأزواجهن، وكذلك حياؤهن وعفافهن الظاهر في قصور الطرف وخفضه، فهن اللواتي جعلن نظرهن مقصوراً على أزواجهن، وحبسن نظرهن عليهم فلا يتعدينهم إلى غيرهم.

وإنما تقع الكناية عن ذلك بقصور الطرف، لأن طماح الأعين في الأكثر يكون سبباً لتتبع النفوس وتطرب القلوب.

وإنك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

ومن قصور طرفهن أنهن لم ينظرن قبلهم إلى أزواج آخرين: ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٢] و﴿عِينٌ﴾ هي واسعات العيون وجميلاتها.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

بيضٌ مكنون برياشها، مخبوءة عن سائر طلابها إلَّا أصحابها، فلا تبتذلها الأيدي ولا العيون، وعلَّها بيض النعام فإن كِنَّها أحفظ وأستر من سائر الكِن، وهي أجمل من سائر البيض حيث يكنها الريش في عُش عشيش، فلا يمسها الأيدي ويغبرها الغبار، فهي على صفائها كما بيضت، بيضاء تميل إلى صفراء، وذلك الخلط الغالب عليه البياض من محاسن النساء.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

وهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[1] يتساءلون عما مضى من حوارهم مع أصحاب الجحيم أمّاذا من تساؤل حبيب حميم:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

عرضٌ لطرف مما مضى من المكذبين ليوم الدين، ثم استعراض لجزاء تكذيبهم وواقعه في الجحيم أنهم فيها مدينون:

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

تطلُّعاً إلى مَن في الجحيم ليروا مصير المكذب بيوم الدين.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾:

ووسطه، حيث عاش في أوساط المكذبين.

أترى كيف يختار المخلَص قريناً من المكذبين؟ إنه قرين لا صديق حميم، ولكل إنسان قرناء في الحياة جيراناً أو متعاملين، كما كان لرسول

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

الهدى قرناء مشركون، ولكن المخلَص لا يتأثر بسوء قرينه، فقد يؤثر فيه أم لا يؤثر، ولا يتأثر مهما كان قرينه من أقوياء المضلِّلين لحد قال عنه أحد المخلَصين:

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾:

﴿كِدتَّ﴾ من الكيد شرطاً لـ «إن» وجزاءه ﴿لَتُرْدِينِ﴾ إسقاطاً إلى الجحيم كما أنت، بتساقط عن الإيمان كما أنت، ولكن الله صدَّ عني كيدك وميدك بنعمته ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي. . .﴾.

أو من كاد يكاد، إن قربت مني مؤثراً في بكيدك لتردين ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي. . .﴾.

أو المعنيان معنيَّان، إن قربت مني ودنوت كوداً وكيداً لتردين ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾.

أم «إن» «إنْ» مخففة، والله إنك قربت أن تهلكني، ولكنه يقتضي لام الغاية دون التأكيد، وهنا تأكيد دون غاية، وقد تعني «إن» كلا الشرط والوصل، كما تعني «لـ» كلا الغاية والتأكيد تغليباً للأخير.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾:

وهذه النعمة هي التسديد العصمة فإنه مخلَص من ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[1] نعمة روحية قمة تعصم المنعم عليه من أية زلة ونقمة، ومن أعلاها ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[2] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3] ومن أوسطها ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[4].

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة القلم، الآية: ٢.
(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.
(٤) سورة القلم، الآية: ٤٩.

وتلك النعمة العصمة بأنهم من المخلَصين، تجعلهم لا يُحضرون لسؤال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[١].

هنالك رؤية القرين في الجحيم وهو المخلَص في جنة النعيم تثير شعوره بجزالة نعمته، فيفصح بميزة له أخرى عن أصحاب الجحيم:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

هنا يقتصرون موتتهم في الأولى التي كانت عن الحياة الدنيا، ويحتسرونها عن موتة البرزخ وفي الحياة الأخرى، ولمن سوى المخلَصين - لأقل تقدير - موتتان أخراهما عن الحياة البرزخية: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[٢] واعترافاً من أهل النار، ثم هم يموتون ثانية حين تموت النار فلا نار - إذاً - ولا أهل نار.

وسائر أهل الجنة يظلون فيها ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[٣] دونما انقطاع، فلا موت لهم في الجنة كما لا خروج لهم عنها، ولكنهم ماتوا كسائر المكلفين موتة ثانية هي عن الحياة البرزخية:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤] فالمخلَصون هم ممن شاء الله ألا يُصعقوا بالصيحة الأولى وسائر أهل الحشر يصعقون.

فللمخلَصين موتة واحدة، وللمخلصين موتتان، وللمجرمين ثلاث ولات

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨.
(٢) سورة غافر، الآية: ١١.
(٣) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

حين خلاص![1] ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع عن ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ بلا اتصال، فإن المستثنى منه حان حينُه منذ دخولهم في الجنة فكيف تستثنى منه ﴿ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إذاً فهو استثناء حاصر فوق المتصل أن ليست لهم موتة بعد الحين وإن كانت فهي الأولى التي سلفت.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في النشآت الثلاث، لا في الأولى كفارة وذكرى إذ لا خطأ ولا عصيان، ولا في البرزخ أو الأخرى جزاءً وفاقاً، لأنهم مخلَصون لا سؤال عنهم ولا عذاب، إلَّا الرحمة القِمَّة في جنة النعيم الرضوان ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الرزق المعلوم بحذافيره المسرودة في طرف منه ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ الفوز العظيم والرزق القمة الكريم ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ كلام حق لهم، مهما كان كلامَ الحق أو كلامهم، فإنه إعلان قرآني صارخ في أعماق التاريخ.

في ذلك الختام لعرضٍ من رزق معلوم للمخلَصين، هم يعتبرون مكانتهم قمة علياً يُحتذى بها ويقتدى، فـ ﴿ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ تستغرق كل العاملين لله، ولو كان فيهم من هو أرقى وأحرى بالقمة العليا، لكان ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ خطأً في عمومها!

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٠٣ ح ٣١ - القمي حدثني أبي عن علي بن مهزيار والحسن بن محبوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جيء بالموت فيذبح كالكبش بين الجنة والنار ثم يقال: خلود فلا موت أبداً فيقول أهل الجنة ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . . .﴾ [الصَّافات: ٥٨].

أقول: هنا توسعة لمقال المخلصين إلى سائر أهل الجنة تعني أنهم لا يموتون بعد ذلك أبداً، ولم يذبح في البرزخ حتى لا تشمل موتته غير المخلصين، وتوسعة أخرى ذبح الموت بالنسبة لأهل النار، فالبعض منهم يخرجون إلى الجنة فكاهل الجنة، والخالدون أبداً لا يموتون مع بقاء النار مهما ماتوا مع النار.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿أَذَٰلِكَ﴾ الرزق المعلوم ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾: تقدمةَ الضيف النازل، ونزولاً في يوم الله إلى دار الله ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وهي من الشجرة الملعونة في القرآن: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ . . . وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾(١).

والزقوم هي شديدة الكراهية الكريهة النتنة العفنة، وفي سائر القرآن ثالوث من ذكرى أليمةٍ من الزقوم، هذه و﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾(٢) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾(٣) (٤).

وللزقوم جرس اللفظ المعلن لجرس المعنى ومَلمسه، كريهٌ بأشدِّه وشائكٌ في أشدِّه، بعيدٌ عن التصور، ناءٍ عن التصديق، فهو أكره طعام وأنتنه، يأتي في ثالوث الآيات وثالوث الصفات:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾:

هي فتنة للظالمين أيّاً كانوا وفي أيٍّ من الحياتين الأولى والآخرة، فهنا يتقولون هازئين بالرسول ﷺ كما عن أبي جهلهم: يا جارية زقمينا، فأتته بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم محمد فيزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر، فأنزل الله ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٤-٤٦.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٥١-٥٦.

(٤) راجع تفسير آيات الواقعة في ج ٢٧ وآيات الدخان في ج ٢٥.

(٥) نور الثقلين ٤ : ٤٠٤ ح ٣٢ في المجمع في رواية الزقوم بلغة البربر التمر والزبد فقال أبو جهل لجاريته: . . .

الظالم الناكر ليوم الدين يزيد له نكراناً إذ يسمع شجرة الزقوم بمواصفاتها، أين الشجرة والنار بأشدها في أصل الجحيم، وهي تحرق بأخف النار؟! وما يفيد تمثيلها في طلعها برؤوس الشياطين، ولم ير أحدنا الشيطان؟!

إن حماقى الطغيان وآباء الجهالات تجاهلوا القدرة الخلاقة للشجر والنار، وقد ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾! وقد تكون شجرة الزقوم من جنس النار فلا تُحرق بالنار بل وقد تزيد في حرقة النار!.

ومهما لم ير أحدٌ رؤوس الشياطين، يرون في أنفسهم أنها أقبح الرؤوس فيما يرون، وكفى الشجرة هولاً أنها في بعدي الجهالة من كيانها: شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلْعها كأنه رؤوس الشياطين.

إنها أكلة رؤوس الشياطين، فلتكن كرؤوس الشياطين، وإنهم وقود النار وأصولها فلتخرج هي من أصل الجحيم، رأساً برأس وأصلاً بأصل.

وكما أن عِدَّة الزبانية للجحيم - التسعة عشر - فتنةٌ للذين كفروا، ومزيد إيمان للذين آمنوا، كذلك شجرة الزقوم بأصلها في أصل الجحيم، هنا هي فتنة للظالمين كما فتنوا، وواقع الفتنة العذاب لهم في أصل الجحيم.

صحيح أن الناس لا يعرفون رؤوس الشياطين، ولكنها مفزعة كما الشياطين، ومجرد تصورها في غيبها يثير الفزع والجزع، فكيف إذا كانت طلعاً يتطلع لطالع أكلتهم، وإذا كان طلعها كأنه رؤوس الشياطين فماذا - إذاً - سائرها الذي أجمل عنه.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾:

عندما تشوكهم شائلة الأُكلة المالئة من هذه الشجرة الملعونة، حارقةً

بطونهم، تطلعوا - بطبيعة الحال - إلى شراب يخفف عن وطأتها، ويطفف عن وقعتها، فإذا لهم بشوب من حميم يشوبها، فهو يغلي كما تغلي، شوباً ثنائياً من غلي البطون: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[2].

شوب الحميم داخلي إذ شابه ما يحمُّه أكثر من نفسه، وخارجي إذ شابته شجرة الزقوم، وثالث ثالوثهم في عذابهم الأليم أنه ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وهل لهم مرجع يرجعون إليه ويلجؤون؟:

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

الجحيم: النار الشديدة التأجج، هي مرجعهم فتحرقهم بعد ما احترقوا بنُزلهم فـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ ووجدوا ﴿آبَاءَهُمْ﴾ القدامى ﴿ضَالِّينَ﴾ ورغم ضلالهم ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ في الضلالة ﴿يُهْرَعُونَ﴾ ويسرعون، فكما كان مرجعهم في الأولى آباءهم الضالين، كذلك يوم الدين ﴿مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وبذلك يختم مشهد الظالمين وكأنه طرف من واقعهم المشهود!

فما الحياة الآخرة إلَّا صورة واقعية عن الحياة الدنيا، اللهم إلا فضلاً للذين أحسنوا فـ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3].



(١) سورة الدخان، الآيات: ٤٣-٤٦.
(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٥٤، ٥٥.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ

بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

وتلكم الأكثرية الضالة دائبة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، رغم تواتر الإنذار من المنذِرين، فكان ضلالهم معمَّداً بعد التحذير والإنذار، ﴿فَانْظُرْ﴾ نظراً في عمق الغابر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المصدقين منهم والناكرين:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

فهم بينهم لم تكن لهم عاقبة إلَّا الحسنى، رغم السائرين من مكذبين، أو مصدقين قاصرين أو مقصرين، حيث نالوا ما قصروا أو قصَّروا شطراً في الأولى ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾(١)! والاستثناء يعم ﴿مَنْ ضَلَّ﴾ و﴿الْمُنْذَرِينَ﴾ فإن للشيطان سبيلاً إلى غير المخلصين مهما كان لمماً أو كبيرة.

ومن هنا استعراضات وجيزة لعاقبة المنذِرين والمنذَرين، من مخلَصين وسائر المؤمنين أو المكذبين، بادئاً بأول المرسلين العظام نوح عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

نداءٌ وإجابة مهما كان بينهما من بون كما تقتضيه الحكمة الإلهية، ومن

(١) سورة النجم، الآية: ٤١.

نـدائـه ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ . . . وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾(١) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا. . .﴾(٢) ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا. . . وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا. . .﴾(٣) والجمع في ﴿نَادَىٰنَا﴾ و﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ يعني جمعية الصفات جلالاً بسحق الكافرين، وجمالاً بنجاة المؤمنين ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ لمن هو نعم العبد!. . . «صدقتَ ربنا أنت أقرب من دُعي وأقرب من يعطي فنعم المُدعى ونعم المعطي ونعم المسؤول ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير»(٤).

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

هذه ثلاث إجابات لما دعا نوح عليه السلام بين نفي لغير أهله وإثبات لأهله، وأهله - هنا - الآهلون للنجاة، من أهله في النسب وأهله في الإيمان، فلم ينجُ فيمن نُجّي ابنه وامرأته وهما أقرب أهله نسبياً، وقد نُجّي مَن آمن به مهما كانوا أبعد عنه في النسب، فإنما الأهل هنا أهل الإيمان، سواء فيهم أقاربه وأغاربه: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾(٥) ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٦).

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة نوح، الآية: ٥.
(٣) سورة نوح، الآية: ٢٦.
(٤) الدر المنثور ٥ : ٢٧٨ - أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥] قال: صدقت ربنا. . .
(٥) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٦) سورة هود، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

ترى وإذا كان أهله أعم من ذريته فماذا تعني ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وابنه من ذريته وقد هلك، والمؤمنون القلة غير ذريته وقد بقوا؟

فهل هم ذرية الإيمان كما أهله؟ فلماذا التحول من «أهله» إلى ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ﴾؟ علَّها تعني ذرية أهله فإنهم ذريته إيمانياً كما هم أهله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[1] فلم يكن الباقون بعد طوفان نوح إلَّا من انتسل من أهله وذريته المؤمنين وسائر من آمن معه[2].

وعلَّ من آمن معه كانوا هم أو أكثرهم من ذريته، فـ«أهلك» في يونس مقابل «من آمن» تعني الأقربين، والآخرون هم سائر ذريته![3].

أم إن المحمولين معه كانوا من ذريته وغيرهم، ولكنما الباقين لم يكونوا إلَّا ذريته مهما شملتهم النجاة عن الغرق؟ فلماذا اختصاص البقاء ببعض المحمولين ولم يختصوا بالإيمان، وعلَّ منهم من كان أفضل من ذريته؟

علَّهم ماتوا في السفينة فلم تنسل لهم ذرية وكما يروى عن الرسول ﷺ في روايات عدة، وهي توافق ظاهر آية الذرية.

ترى وماذا ترك عليه في الآخرين؟ ومن هم أولاء؟

علَّ الآخرين هم سائر حملة الدعوة الرسالية بعد نوح من إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ومَن بينهم، وقد ترك الله وخلَّد دعوته العالمية

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤٠٥ ح ٣٦ علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: الحق والنبوة والكتاب والإيمان في عقبه وليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح قال الله عز وجل في كتابه: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود: ٤٠] وقال الله عز وجل أيضاً: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ [الإسرَاء: ٣].

(٣) الدر المنثور - أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في الآية قال: سام وحام ويافث - أقول وقد أخرج ما في معناه جماعة آخرون عن سمرة وأبي هريرة.

بين سائر الخمسة الذين دارت عليهم الرحى، فربط بينهم برباط الدعوة الوحيدة الموحدة، أو يعني ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ترك الدعوة ضده لمكان «على» وكما ترك عليه سلاماً في الآخرين.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)﴾

فسلام عليه دائب في العالمين إلى يوم الدين دونما انقطاع لذكراه المجيدة الوطيدة الصامدة فإنه أوّل من انتهض في دعوة باهظة فائزة، بمقاساة أشد البلايا والفتن طول الدعوة، فله نصيب من كل خير وسلام إلى يوم القيامة!

وإنه سلامٌ من الله ومن أهل الله ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ من الملائكة والجنة والناس أجمعين أم أياً من المكلفين، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الواسع الفاسح ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فـ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

وإنه سلامٌ جزاءَ الإحسان لـ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ إيمان السلام والتسليم فله السلام كما سلَّم، ومن ثم لمن معه وتابعه «ثم» بعدما نجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴿أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ وهم غير أهله:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)﴾:

فإبراهيم ممن شايع نوحاً في دعوة التوحيد، وفاقه فيها، فقد يشايع الأعلى الأدنى كما الأدنى يشايع الأعلى، أو هما يتساويان، فلا تعني المشايعة لأحد تفاضلاً في المشايع عليه، إلا نفس التوافق في سلكٍ واحد، ومن الأدنى شيعة موسى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[2]

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٥.

وشيعة علي عليه السلام، وإن شيعة الحق قد تكون متأخرة في الزمان لا في المكانة كإبراهيم بالنسبة لنوح، وقد تتقدم في الزمان وتتأخر في المكانة كالنبيين أجمع بالنسبة لخاتم النبيين، وبهذا الاعتبار يعد إبراهيم في عداد شيعة علي عليه السلام وهذا تأويل[1] وذلك تفسير.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾:

ومتى أصبح إبراهيم من شيعة نوح في دعوته المخلصة؟ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾

---

(١) تفسير البرهان ٤: ٢٠ ح ٢ شرف الدين النجفي قال روي عن مولانا الصادق عليه السلام أنه قال قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصّافات: ٨٣] أي إبراهيم من شيعة علي عليه السلام قال: ويؤيد هذا التأويل ما رواه الشيخ محمد بن الحسن عن محمد بن وهبان عن أبي جعفر محمد ابن علي بن رحيم عن العباس بن محمد قال حدثني أبي عن الحسن بن أبي حمزة عن أبي بصير يحيى بن أبي القاسم قال سأل جابر بن يزيد الجعفي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ فقال إن الله سبحانه لما خلق إبراهيم عليه السلام كشف له عن بصره فنظر فرأى نوراً إلى جنب العرش فقال: إلهي ما هذا النور؟ فقيل: هذا نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم صفوتي من خلقي ورأى نوراً إلى جنبه فقال: إلهي وما هذا النور؟ فقيل له: هذا نور علي بن أبي طالب ناصر ديني ورأى إلى جنبهما ثلاثة أنوار فقال: إلهي وما هذه الأنوار؟ فقيل هذه نور فاطمة فطمت محبيها من النار ونور ولديها الحسن والحسين فقال: إلهي وأرى تسعة أنوار قد صفوا بهم قيل: يا إبراهيم هؤلاء الأئمة من ولد علي وفاطمة فقال إبراهيم: إلهي بحق هؤلاء الخمسة إلا ما عرفتني من التسعة فقيل: يا إبراهيم أولهم علي بن الحسين وابنه محمد وابنه جعفر وابنه موسى وابنه علي وابنه محمد وابنه علي وابنه الحسن والحجة القائم ابنه فقال إبراهيم: إلهي وسيدي أرى أنواراً قد أحدقوا بهم لا يُحصي عددهم إلا أنت؟ قيل: يا إبراهيم هؤلاء شيعتهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال إبراهيم: وبم تعرف شيعته؟ فقال: بصلاة إحدى وخمسين والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم والقنوت قبل الركوع والتختم في اليمين فعند ذلك قال إبراهيم: اللهم اجعلني من شيعة أمير المؤمنين قال فأخبر الله في كتابه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

وفيه عن تفسير الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام قال رجل لعلي بن الحسين: يا بن رسول الله أنا من شيعتكم الخاص فقال له: يا عبد الله فإذا أنت كإبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤] فإن كان قلبك كقلبه فأنت من شيعتنا وإن لم يكن قلبك كقلبه وهو طاهر من الغش والغل وإلّا فإنك إن عرفت أن بقولك كاذب فيه أنك مبتلى بفالج لا يفارقك إلى الموت أو جذام ليكون كفارة لكذبك هذا، أقول وفيه روايات أخرى مفصلة في شروط الشيعة فراجع.

حين جاء كداعية ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عما سوى الله، خالياً عن حب غير الله والاتجاه إلى من سوى الله، تاماً في محبة الله، طامّاً من يم معرفة الله! «الذي يلقى الله وليس فيه أحد سواه»[١] خالياً عن كل شك وشرك جلي أو خفي بالله، بريئاً عن كل تعلق بغير الله، في قمة عالية من توحيد الله والفناء في الله والبقاء بالله.

وإنه تعبير بسيط - لا تعقيد فيه - عن كافة معاني الإخلاص في الجوارح والجوانح، حيث القلب إمامها كلها[٢] فإذا سلُم سلمت كلها على قدر سلامته، وهو يؤدي على إجماله وجماله أوسع مما تؤديه تعبيرات هذه الصفات المتعاليات.

وإن مجيئه ربه بقلبه هو مجيئه بكل كونه وكيانه حيث القلب يقلِّب كله، فقد جاء ربه متجلياً بكافة التربيات الربوبية بكل وجوده.

إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ودعا العالمين إلى قلب سليم ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[٣] ومن مظاهر ذلك المجيء صراعه في حوار صارم وعملية صارمة في أوسع ميادين الشرك وأخطرها:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

جولة خاطفة سريعة من حواره، وإلى تجوالة وسيعة عملية بين الأصنام، ما حمل عبدتها يتربصون به كل دوائر السوء.

في حين يراهم عاكفين على أصنام لهم يتساءلهم في هتاف وانعكاف

(١) القمي في تفسيره قال قال: . . .
(٢) في الكافي بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام: القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، مستنكراً تحجبُّهم عنها ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ دون «من ذا» مُلَمحاً أنها لا تشعر! فما هي - إذاً - حال عابديها؟

ثم وقبل أن يذكرها كما يلفظون ﴿ءَالِهَةً﴾ يهدم صرح ألوهيتها في تخيلهم الهابط الخابط: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ فكل آلهة دون الله إفك مفترى، وكذب مختلق، لا تملك أية برهنة في عساكر البراهين! وفي بدلية «آلهة» عن «إفكاً» - دون عكس - إشارة إلى أنها ليست إلَّا إفكاً، فكل كيانها إفك ليس إلَّا! وإذ تعبدون ما تنحتون ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كيف - إذاً - تعبدونه وأنتم عابدو خلقه، وكيف تلاقونه وأنتم به مشركون، وهو أقبح ظلم وأشنعه؟!

وفي جمع الخطاب ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ قطع للميزات والمفاصلات في المدعوين إلى الله لكل داعية قاطعة.

وأبوه هو عمه أو جده لأمه دون والده إذ فقده في طفولته فقام عمه مقامه في كافة شؤون الأبوة، فرغم أنه عاش جو الشرك داخل بيته وخارج بيته، يصبح أصرم محارب وأصرحه ضد البيت والبيئة.

وإنه في حملته الصارمة العامة الشاملة بحاجة إلى خلق جوٍّ يسمح له بعد حجاج الكلام تحقيق حجاج العمل الجبار في كسر الأصنام، فماذا يصنع - إذاً - إلَّا أن يتأخر عن خروجهم لعيد لهم في اعتذار، بمكرٍ صادق جبَّار، يجعله مع الأصنام دونما حاجز لكسرهم ولا صدام:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

أترى كان به سقم؟ وما هي رباطه بنظرة النجوم؟... «والله ما كان سقيماً وما كذب»[1] «إنما عنى سقيماً في دينه مرتاداً»[2] وهذه

(١) نور الثقلين ٤: ٤٠٦ ح ٤٦ في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أبو جعفر عليه السلام: عاب آلهتهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال أبو جعفر: والله...

(٢) المصدر ح ٤٢ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى صالح بن سعيد عن رجل من أصحابنا =

تقية[١] التَّورِيَة أن تلفظ بأمر وتعني خلاف الظاهر منه، فالكذب محرم على أية حال، وفي اضطرار التقية لا تحل إلَّا التورية كما فعلها إبراهيم في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ والرواية القائلة إنه عليه السلام كذب[٢] مضروبة عرض الحائط، فما دار الأمر بين كذب إبراهيم وكذب الرواية عنه فكذبها أحرى من كذبه عليه السلام.

إنهم هموا بالذهاب خارج البلد إلى عيد لهم جامع، فطلبوا إليه مرافقتهم فأبى معتذراً ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقد كان يهددهم بكسر أصنامهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٣] فهل تناسوا تهديده في قبول عذره، أم استهانوا به أنه قولة جوفاء لا يتجرأ على تحقيقها؟ على أية حال قبلوا عذره، وهو عاقد عزمه على أن يهدم صرح آلهتهم ويقوِّض عروش معبوداتهم بهذه الصراحة والجرأة المسبقة والاعتذارة الملحقة، رأى أن حجته القولية وإن وضحت وضْح الشمس في رابعة النهار، ولكنها لا تنبت في أراضي قلوبهم الجُرُز نباتاً،

= عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: قوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: ما كان إبراهيم سقيماً وما كذب إنما عنى...

(١) المصدر ح ٤٥ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال: التقية من دين الله قلت: من دين الله؟ قال: أي والله من دين الله، ولقد قال يوسف: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ والله ما كانوا سرقوا شيئاً ولقد قال إبراهيم﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ والله ما كان سقيماً أقول هم سرقوا يوسف وهو غير ظاهر العبارة، وابراهيم كان سقيماً في روحه عنهم وهو غير ظاهر العبارة، وفيه عن روضة الكافي عن أبي بصير قال قيل لأبي جعفر عليه السلام وأنا عنده: إن سالم بن أبي حفصة وأصحابه يروون عنك أنك تكلم على سبعين وجهاً لك منها المخرج؟ فقال: ما يريد سالم مني؟ أيريد أن أجيء بالملائكة والله ما جاءت بهذا النبيون ولقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وما كان سقيماً وما كذب.

(٢) في التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٤٨ قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات» قلت لبعضهم: هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.

فأراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم، وحواسهم مع أفئدتهم في تفهُّم عقيدته علَّهم يثوبون إلى رشدهم ويتوبون عن غيِّهم.

لذلك وهو يهدف الهدف العظيم يضطر إلى ادعاء العلة عن مصاحبتهم، ويتظاهر بالسقم وما كان سقيماً في بدنه، وإنما كان سقيم النفس، كاسف البال، يتقطع فؤاده حزناً على ضلال قومه المبين، ويتميز غيظاً أنهم لم يلبوا نداءه ويصغوا إلى دعوته، أم وإضافة إلى سقمه هذا الحالي ينظر إلى سقم استقبالي:

إني سوف أموت[١] ولم أحقق بغيتي في تحقيق دعوتي، والموت في تحسرٍ سقمٌ على سقم!

أم إني سوف أسقم، وهذه طبيعة الحال لكل إنسان أن يعرضه سقمٌ مَّا في كل مستقبل... أسقام كلها صادقة في حال واستقبال، في جسم أو حال، اللهم إلَّا سقم الجسم في الحال إذ لا رباط له بالنظر في النجوم.

وأما نظرته في النجوم، فليست إلى نجوم السماء رؤية ظاهرة، وإنما نظر... في وعلَّها تضاهي حجاجه الأول ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[٢] مسايرة ظاهرة ومماشاةً، وفقاً لما كانوا يزعمونه من دلالات النجوم على ما ستحدث من أحداث مستقبلة، إذ كانوا يحسبونها من أرباب الأنواع، وهذه الأوثان تُمثِّلها بمتناوَل أيدي عابديها، ولكي يقضي على هذه المزاعم الفاسدة بعد إذ جعل الأصنام جذاذاً، والنجوم تعليمه وتعلُّمه والبناء عليه محظور[٣] إلا فيما لا يعارض قضاءً وقدراً من محاسبات الخسوفات والكسوفات والزلازل في احتمال دون قطع!

---

(١) نور الثقلين ٤: ٤٠٦ ح ٤٣ في كتاب معاني الأخبار وقد روي أنه عنى بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إني سأسقم وكل ميت سقيم وقد قال الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ إنك ميت أي ستموت.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

(٣) نور الثقلين ٤: ٤٠٧ ح ٥٠ في كتاب جعفر بن محمد الدوريستي بإسناده إلى ابن مسعود عن=

«نظر في النجوم» ظاهراً، واستطلع منها متظاهراً أنه سيسقم حين

= النبي ﷺ أنه قال: إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وفيه ٥١ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال له السائل: فما تقول في علم النجوم؟ قال: هو علم قلّت منافعه وكثرت مضاره لأنه لا يدفع به المقدور ولا يتقى به المحذور أن خبر المنجم بالبلاء لم ينجه التحرز في القضاء وإن خبر هو بخير لم يستطع تعجيله وإن حدث به سوء لم يمكنه صرفه والمنجم يضاد الله في علمه بزعمه أنه يرد قضاء الله عن خلقه، وفيه ٥٢ عن سعيد بن جبير قال: استقبل أمير المؤمنين عليه السلام دهقان من دهاقين الفرس فقال له بعد التهنئة: يا أمير المؤمنين عليه السلام تناحست النجوم الطالعات وتناحست السعود بالنحوس وإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء ويومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه كوكبان وانقدح من برجك النيران وليس الحرب لك بمكان قال أمير المؤمنين عليه السلام: ويحك يا دهقان المنبئ بالآثار المحذر من الأقدار ما قصة صاحب الميزان وقصة صاحب السرطان وكم المطالع من الأسد والساعات في المحركات وكم بين السراري والذراري؟ قال: سأنظر وأومى بيده إلى كمه وأخرج منه أسطرلاباً ينظر فيه فتبسم صلوات الله عليه وقال: أتدري ما حدث البارحة؟ وقع بيت بالصين وانفرج برج ماجين وسقط سور سر نديب وانهزم بطريق الروم بأرمينية وفقد ديان اليهود بأبلة وهاج النمل بوادي النمل وهلك ملك إفريقية أكنت عالماً بهذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: البارحة سعد سبعون ألف عالم وولد في كل عالم سبعون ألف عالم والليلة يموت مثلهم وهذا منهم وأومى بيده إلى سعد بن مسعدة الحارثي لعنه الله وكان جاسوساً للخوارج في عسكر أمير المؤمنين فظن الملعون أنه يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات فخر الدهقان ساجداً فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ألم أروك من عين التوفيق؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين فقال: أنا وصاحبي لا شرقيون ولا غربيون ونحن ناشئة القطب وأعلام الفلك أما قولك انقدح من برجك النيران فكان الواجب أن تحكم به لي لا علي أما نوره وضياؤه فعندي وأما حريقه ولهبه فلهذا فذاهب عني وهذه مسألة عميقة أحسبها إن كنت حاسباً.

وفيه ٤٩ في من لا يحضره الفقيه وروي عن عبد الملك بن أعين قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إني قد ابتليت بهذا العلم فأريد الحاجة فإذا نظرت إلى الطالع ورأيت طالع الشر جلست ولم اذهب فيها وإذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجة فقال لي: تقضى؟ قلت: نعم قال: احرق كتبك وفيه عن الاحتجاج ٥٣ روي أنه عليه السلام لما أراد المسير إلى الخوارج قال له بعض أصحابه إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال عليه السلام: أتزعم انك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه وينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه=

الخروج أم بعده، أم «نظر في النجوم» نظرة الاعتبار بأفولها وحراكها فحدوثها وعدم ألوهتها وربوبيتها، فسقم روحه وتأثر من ضلال عابديها، يضمر في ضميره أن نظرة واحدة في النجوم التي يحسبونها أرباب الأنواع تنبه الإنسان أنها مربوبة لرب السماوات والأرض، فيسقم روح الإنسان بأحاسيسه المفكرة العاقلة أن كيف يعبدها ذلك الجم الغفير من الناس.

ومن شفاء ذلك السقم الحالي أن يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين، وما كيده إلَّا قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ حتى يتركوه، وأن ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[1].

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ يعذرونه في ترك مصاحبتهم، غير معتنين بشأنه، صاحَبَهم أم تركهم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ عنه استهانة به، وإلى عيدهم اعتناءً بشأنه، ناسين أو متناسين أنه تهدَّدهم بكيد أصنامهم، وها هو يكيدهم في ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ويكيدهم ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[2]!

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾:

والرَّوغ هو الميل على سبيل الاحتيال والتخفي: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[3] وقد كان لإبراهيم في بيت الأصنام رَوغان، رَوغ «إلى» ذهاباً

= لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة المنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار سيروا على اسم الله وعونه.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٣.
(٣) سورة الطور، الآية: ٢٦.

إليها متخفياً، علَّ هناك عيوناً تنظر ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من طعام قدمه هو أم كان حاضراً كما كانت سنتهم في تقديم الأطعمة لآلهتهم، ولا بدَّ لآلهة مجسمة وهي تماثيل ذوي الأرواح - لأقل تقدير حياة للأكل، إبقاءً لها وبعداً عن موتها، فلما لم تَجِر جواباً قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟ أآلهة أمواتٌ خُرسٌ لا يأكلون ولا ينطقون؟ فكيف هي إذاً آلهة وهي أدنى كمالاً من المألوهين؟ وهو حجاج على الآلهة بعد الحجاج على المألوهين، وله فيهما الحجة البالغة ولا يملك إلَّا قضاء واقعاً على الآلهة لكي يظل المألوهون دون آلهة علّهم ينتبهون.

ومن ثم روغ «على» ذهاباً للقضاء عليها روغاً ثانياً عليها ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[1]!

يرى جواً خالياً عن رصد العيون، فيدلف إلى أصنامهم فيجد باحة قد اكتظَّت بالتماثيل وانتشرت في أرجائها الأصنام، فيخاطبها محتقراً لشأنها، شائناً لعبدتها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ وأنّى للجماد أن يأكل أو ينطق، فأخذ يلطمها بيده، ويركلها برجله، وتناول فأساً وهوى عليها يكسرها جذر مذر ويحطمها ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[2] فيسألوه عمن انتهك حرمة الآلهة ليرجعوا إلى أنفسهم ما هؤلاء يأكلون ولا ينطقون فكيف يُعبدون؟!

ولقد كان حقاً ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ بيمين القدرة ويمين الصدق ويمين الدين وباليمين الذي سلف منه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[3] ويا لها من معركة صاخبة صارخة أعماق أسماع التاريخ، مَقتل الآلهة التي كانوا يعبدون، وقد شفى من نفسه سقماً كان يشكوه:

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾:

وكيف أقبلوا إليه دون بيوتهم وأشغالهم ولا يعلمون ماذا فعل بآلهتهم؟

علَّهم تسامعوا بالخبر، أم خمّنوا تحقيقاً لتهدد إبراهيم، فلذلك أقبلوا إليه يزفون: يسرعون حاملين أصحابهم على الزفيف لمعرفة الحال بكل عجال، وهم جمع كثير هائج، وجم غفير مائج، وهو فرد واحد لا يخاف إلَّا ربه، فهو أقوى من هذه الكثرة وهم إليه يزفون: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. . .﴾[1]:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

كيف تعبدون ما تنحتونها أنتم، عبادةَ الصانع للمصنوع والخالق للمخلوق؟ فإن حقَّت في هذا البين عبادة فلتعبدكم ما تنحتون! ثم لا عبادة في هذا البين ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ الناحتون ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ آلهتكم التي تنحتون «فإن الله صانع كل صانع وصنعته»[2].

تلك - إذاً - عبادة تمجها الفطرة ويرفضها العقل وكافة الموازين العقلية وسواها! ويا لها من حجة بالغة دامغة قد صفعهم بها صفعةً نبَّهتهم عن

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥٩-٦٧.
(٢) الدر المنثور ٥: ٢٧٩ - أخرج البخاري في خلق أفعال العباد والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ إن الله. . . وتلا عند ذلك: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافات: ٩٦].

غفلتهم، وأيقظتهم عن غفوتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون في أنفسهم قائلين: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ليس «ما تعملون» هو نفس العمل أياً كان فإنه مخيَّر لا مسيّر، وإنما هو حاصل العمل ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ وكل صنعة، فإن مادته مخلوقة، وأنتم بقُدُراتكم وأفعالكم مخلوقون، مهما بان خلقٌ عن خلق تخييراً وتسييراً، فـ«لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» ولو كان «ما تعملون» نفس العمل لكان جبراً فعذراً لعمل الأصنام وعبادتها، لا حجةً عليهم في تنديد! ثم خلق الأعمال تسييراً من الله لا رباط له إبطالاً لـ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ وإنما هو التخيير، فهم باختيارهم ينحتون ويعبدون ما ينحتون!.

هنالك دُحِضت مزاعمهم، وزُيِّفت آمالهم، فلم يجدوا بُداً وِجاه حجته إلّا أن يحرقوه كما أحرق أكبادهم:

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾(١).

فيا لبنيانهم الجحيم وجحيم البنيان من أجيج النار، تتمثل فيه حرقة أكبادهم، فقد كان لأحدهم أن يحرقه بقليل النار، ولكنهم أجمعوا ليتشاركوا في حرقه كما أحرق أكبادهم جميعاً، ولكنهم خاب سعيهم حيث جُعلوا الأسفلين الأخسرين، وتلمَّع إبراهيم الخليل أكثر مما كان حجةً عملية على حججه، كما عارضوه عملياً رغم حججه! وأين يذهب كيد العباد المهازيل

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٨-٧١.

أمام صيانة الله للخليل إلّا إلى أنفسهم في كل ترذيل بكل سفالة وخسار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾(١)!

لقد كانوا بشركهم سافلين وخاسرين، فأصبحوا بدائرة السوء على إبراهيم أسفلين وأخسرين.

إذ دُحضت حجتهم عمليةً بعد دحْضها قوليةً، خساراً إلى خسار وسفالاً إلى سفال!

ليس لحماقى الطغيان أمام دعاة الحق إلّا منطق السيف والنار، عندما تعوزهم كل حجة وتُحرجهم كلمة الحق:

﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾! ولم تجر سنة الله على خرق العادات إلّا أحياناً تقتضيها الحكمة العالية كما في جحيم إبراهيم، وهذه حلقة أولى من قصص إبراهيم ومن ثم الثانية(٢):

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤١٤ ح ٦١ في روضة الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خالف إبراهيم قومه وعاب آلهتهم حتى أدخل على نمرود فخاصمهم... وقال أبو جعفر عليه السلام: عاب آلهتهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩] والله ما كان سقيماً وما كذب فلما تولوا عنه مدبرين إلى عيد لهم دخل إبراهيم عليه السلام إلى آلهتهم بقدوم فكسرها إلا كبيراً لهم ووضع القدوم في عنقه فرجعوا إلى آلهتهم فنظروا إلى ما صنع بها فقالوا: لا والله ما اجترى عليها ولا كسرها إلا الفتى الذي كان يعيبها ويبرأ منها فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار فجمع له الحطب واستجادوه حتى إذا كان اليوم الذي يحرق فيه برز له نمرود وجنوده وقد بنى له بناء لينظر إليه كيف تأخذه النار ووضع إبراهيم عليه السلام في منجنيق وقالت الأرض: يا رب ليس على ظهري أحد يعبدك غيره ويحرق بالنار قال الرب: أن دعاني كفيته، فذكر أبان عن محمد بن مروان عمن رواه عن أبي جعفر عليه السلام أن دعاء إبراهيم يومئذ كان: يا أحد يا أحد يا صمد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ثم قال: توكلت على الله فقال الرب تبارك وتعالى كفيت فقال للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] قال فاضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتى قال الله عز وجل: ﴿وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وانحطّ جبرائيل عليه السلام فإذا هو يجالس مع إبراهيم يحدثه في النار قال نمرود: من اتخذ إلهاً فليتخذ مثل آله إبراهيم قال فقال عظيم من عظمائهم: إني عزمت على النار أن لا تحرقه فأخذ عنق من النار سخره حتى أحرقه قال، فأمن له لوط فخرج مهاجراً إلى الشام هو وسارة ولوط.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾:

أو لم يكن لحد الآن ذاهباً إلى ربه وقد ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١]؟ إن لذهابه هذا طرفاً أوّل يتكفل السلب: «لا إله» وكما جعلهم جذاذاً، وطرف ثان هو الإثبات «إلّا الله» وقد فرغ من «لا إله» تقدمة الذهاب إلى ربه، ثم وأصل سيره إلى الإثبات «إلّا الله» وقد تعنيه ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي. . .﴾ يقوله أمام جماهير المشركين الأسفلين بحجته الحاضرة الحاذرة الخارقة ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٢] فـ«ذهابه إلى ربه بوجهه إليه عبادة واجتهاداً وقربة إلى الله عزّ وجلّ»[٣].

إنها هجرة في المكانة قبل المكان، يترك فيها أباه وقومه وأهله ووطنه وكل أواصر القرابة، هجرة كاملة من حال إلى حال، ومن كافة الأواصر التي قد تربطه بنفسها، تعبيراً عن كامل التجرد والإخلاص والاستسلام لربه.

أو لم يكن مهدياً لحد الآن حتى ﴿سَيَهْدِينِ﴾؟ للهدى مراتب فوق بعض، وكما تُطلب دائباً: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أم ولأنه تكملة لحجاجه أن الله هداه إلى أن «لا إله» ثم يهديه إلى «إلّا الله» وثالثه هدى الدعوة في فسحتها، وبأعوانها كإسماعيل وإسحاق قرتي عينيه، وهي تتمثل في بلائه بإسماعيل كأعلى قمة: وقد يعطف قوله ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ. . .﴾ بما وعد آزر وموازريه في الشرك: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[٤] فهنا يدعو ربه:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

هنا إبراهيم الوحيد وقد ذرف الثمانين بلا عقب يخلفه يستوهب ولداً من

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.
(٣) المصدر ٤١٩ ح ٦٤ في كتاب التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه. . .
(٤) سورة مريم، الآية: ٤٨.

الصالحين، فيُبشَّر ببكر وُلده إسماعيل غلام حليم، ومن ثم يثنِّيه بإسحاق نبياً من الصالحين، وقد يجاوب هذا الترتيب نص التوراة كما في التكوين ١٦: ١٥ - ١٦: «فولدت هاجر لإبراهيم ابناً. ودعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل» وفيه ١٧: ١٥ - ١٦ «وقال الله لإبراهيم ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة، وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً»....

هنا يوصف إسماعيل بكر إبراهيم ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ وفي غيرها ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾(١) وهو فيهما منقطع النظير في سائر القرآن: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾(٢) وقد يثنَّى بحلمه أبوه إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾(٣) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾(٤).

وليس اختصاص ﴿حَلِيمٍ﴾ بهما في سائر القرآن إلَّا لِما برز من حلمهما القمة في ذبح إسماعيل مهما بطن لسائر النبيين، إذ لم يوقف أحدٌ موقفه البلاء المبين:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

إسماعيل بكر ولده، رسول نبي صادق الوعد حليم، والوالد يذرف التسعين وقد لا يولد له غيره، أم إذا ولد قد يغايره، وقد بلغ معه السعي في حاجيات الحياة معنوية ومادية بما سعى له فيهما ودرَّبه، فهو في لَمَعان الكمال ونَوَسان الاستكمال، يؤمر بذبحه لا لشيءٍ منهما يستحقانه حتى يوجَّه ذبحه بوجه ظاهر ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾!

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٤.
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(٤) سورة هود، الآية: ٧٥.

والرواية القائلة إن الذبيح هو إسحاق إسرائيلية تخالف نص القرآن إذ يبشره بإسحاق بعد قصة إسماعيل[١].

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ تنادي بمعية السعي حتى بلغ، وبمعيته لإبراهيم كما سعى في دعوته، فليس - فقط - أنه بلغ السعي لحاجياته الشخصية مهما كانت شاخصة ذات أهمية، بل ومع إبراهيم في ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ «وهو لما عمل مثل عمله»[٢].

ومن بلوغه معه السعي أن سعى معه بين الصفا والمروة بعد ما طافا البيت «فلما صارا في السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك...».

فقد بلغ معه السعي ولمّا يتم الرحلة إلى ربه والدعوة المتناصرة إلى دينه، ولمّا يولد له ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٣] وهم محمد ﷺ وعترته المعصومون عليهم السلام

---

(١) اختلاف الروايات من الفريقين في «من هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟» تقطعه الآيات حيث البشارة بإسحاق تأتي بعد قصة الذبيح بكاملها، وهذه من الهرطقات الإسرائيلية أن إسحاق هو الذبيح لينحّوا فضلاً عن إسماعيل إلى إسحاق، كما روى ابن بابويه بإسناده عن داود بن كثير الرقي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام؟ أيهما أكبر إسماعيل أو إسحاق وأيهما كان الذبيح؟ فقال عليه السلام: إسماعيل كان أكبر من إسحاق بخمس سنين وكان الذبيح إسماعيل وكانت مكة منزل إسماعيل وإنما أراد إبراهيم أن يذبح إسماعيل أيام الموسم بمنى... أما تسمع لقول إبراهيم حيث يقول: رب هب لي من الصالحين، إنما سأل الله عزّ وجلّ أن يرزقه غلاماً من الصالحين وقال في سورة الصافات: فبشرناه بغلام حليم يعني إسماعيل من هاجر قال: ففدى إسماعيل بكبش عظيم فقال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٢-١١٣] يعني بذلك إسماعيل قبل البشارة بإسحاق فمن زعم أن إسحاق أكبر من إسماعيل وأن الذبيح إسحاق فقد كذب بما أنزل الله عزّ وجلّ في القرآن من نبئهما (تفسير البرهان ٤: ٣٠ ح ٥).

(٢) نور الثقلين ٤: ٤١٩ ح ٦٧ في عيون الأخبار عن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال سألت أبا الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام عن معنى قول النبي ﷺ: أنا ابن الذبيحين؟ قال: يعني إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام وعبد الله بن عبد المطلب، أما إسماعيل فهو الغلام الحليم الذي بشر الله تعالى به إبراهيم ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ وهو لما عمل مثل عمله...

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

وقد استجيب في هذا الدعاء كما يتوافق له النصّان من التوراة ومن القرآن: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾(١) (٢).

ونص الاستجابة حسب الأصل العبراني في التوراة كالتالي:

«وُليشمَعيل شِمَعتِينحا هيِّنه بِرَخْتي أوتُو وَهِيفرتي اوتُو وَهِيربتي أوتُو بِمْئُدْ مِئُدْ شِنيم عاسارْ نِسيِئيم يُولد وِنتِّيوُ لغُوى غادُلْ» (تكوين المخلوقات ١٧ : ٢٠):

«ولإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها أنا أباركه كثيراً، وأنمّيه كثيراً، وأثمره كثيراً، وأرفع مقامه كثيراً بمحمد ﷺ واثني عشر إماماً يلدهم (إسماعيل) وأجعله أمة كبيرة»(٣).

بعد هذه وتلك يؤمر الخليل بذبح إسماعيل وليس ذبحاً واحداً، إلّا وحيداً يجمع في جنباته ذبحات عدة أعلاها محمد ﷺ وعترته، وقد روي عنه ﷺ أنا ابن الذبيحين!

إذاً فتسليمهما لهكذا ذبح دونما سؤال علّةٍ ولا خَطِرةٍ ببال، إنه القمة العليا من التسليم و﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾!

لو أمر إبراهيم أن ينتحر كان عليه أسهل من نحر إسماعيل، فقد أمر بذبح من يفوقه في الكيان بحب الهَيَمان، وأنه جد الرسول محمد وعترته، وقد بلغ معه السعي ووصل إلى ذلك السعي بمساع الهجرة الهاجرة بواد غير

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٢) المصدر ٤٢١ ح ٧٥٦ المجمع وروى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق... إلى أن قال عليه السلام فلما رفع قواعده خرج إلى منى حاجاً وقضى نسكه بمنى ورجع إلى مكة فطاف بالبيت أسبوعاً ثم انطلق فلما صارا في السعي قال...

(٣) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٤٠ - ٤٣ تجد تفصيل هذه البشارة.

ذي زرع: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ...﴾[١] فـ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾! وبالروعة الإيمان والطاعة والتسليم!

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ...﴾.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ تلمح لتكرار الرؤيا وتأكدها ﴿فِي ٱلۡمَنَامِ﴾ ورؤيا الأنبياء وحي[٢] دونما ريب، فلماذا يتروَّى في تحقيقها بعد الرؤيا الأولى، ويستنظر ابنه فيها، والوحي منذ نزوله ماض لوقته المقرر، صارم للموحى إليه؟

إنه ما رأى في الرؤيا صيغة الأمر بالذبح حتى يمضي فيه دون تروّ، وإنما ﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ دون «أمرت بذبحك» ورؤية الفعل لا تدل على الأمر وإنما تلمح لوقوعه، وفي الثانية تقوى هذه اللمحة، وفي الثالثة توصل لحد الأمر[٣] فإن أفعال الأنبياء خيرات تُفعل بالوحي ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[٤] سواء أكانت في المنام أو اليقظة، ولأن ما في المنام صورة عن الواقع في اليقظة، فليحقق إذاً في اليقظة سماحاً أو رجحاناً أم فرضاً، وما لمح لإبراهيم بفرض الذبح المتراءى إلّا في رؤياه الأخيرة فقال ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

... وقد تعني ﴿أَرَىٰ﴾ رؤيا واحدة متأكدة دون تكرار، وفي تبديل

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٢) الدر المنثور ٥: ٢٨١ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: ...
(٣) الفخر الرازي في تفسيره الكبير ٢٦: ١٥٣ وروى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية في منامه كأن قائلاً يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهمَّ بنحره فسمي يوم النحر وهذا هو قول أهل التفسير... أقول: من المحتمل صدقه إلا في شكه أم من الشيطان، وكما ذكرناه في المتن.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

الماضي «رأيت» بالمستقبل ﴿أَرَىٰ﴾ لمحة إلى أنه عاش رؤياه ذاكراً لها دون نسيان، وأن مفاد رؤياه باقٍ إلى الحال وحتى يتحقق عملياً، ففي الماضي مجال التحول نسخاً في الحال!

ولأن ذلك الأمر كان بلاءً مبيناً لهما، لا - فقط - لإبراهيم، فليُعرض على الذبيح كما عرض على الذابح، ولكي يُسلم كما أسلم الذابح، دونما مفاجأة عليه فيما رآه! فلا يأخذه على غفلة وغِرَّة تنفيذاً لما رأى، بل تحضيراً له لكي يرى ما رأى ولينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم، فإنه يحبُّ لابنه ما يحبه لنفسه! و﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾!

ففي رؤياه تلك بلاء، وفي عرضها على ابنه بلاءٌ ثان، وفي تحقيقها بعد عرض ثالثة البلاء، فهي تفوق كل بلاء ابتلي بها إبراهيم طول حياته، ولأنها التالية لبلاء أبيه آزر وقومه، وبلاء النار وسائر البلاء ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾[1] وتلك هي الكلمات العينية الدالات على قمة التسليم لرب العالمين! دون اللفظية التي يلفظها كل إنسان أياً كان وأيان!

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ ... فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾.

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ رؤيا أنا أراها صادقة وأرى تحقيقها دون تروٍّ ومُهلة، زوايا ثلاث من الرؤية ﴿فَٱنظُرْ﴾ نظرَ العقل والبصيرة ﴿مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ فيما أرى بكل تروٍّ ومهلة! مشاورة ما أورعها وأروعها لتحقيق أمر هو بظاهره إمر، لكنه لا مرد عنه ولا محيد ولتجري سنة المشاورة حتى فيما لا محيص عنه لغرض التمحيص، وكما يؤمر الرسول ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[2] إبلاغاً مبلغك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

في الأمر، لا تبلُّغاً بهم إلى أمر ثابت بالوحي، حيث المشاورة تعم التناصر علمياً وعملياً في أمر، كالمعتاد منها، أم ليستفيد المشير فيما يستشير فكذلك الأمر، أم ليفيد المشير مستشيره أمن ذا تمحيصاً له وتدريباً يبلِّغه مبلغه، وهكذا كانت مشاورة الرسول محمد وإبراهيم الخليل!

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

كأنها كانت نظرة حاضرة دونما حاجة إلى تأملة وفكرة، حيث بلغ معه السعي فارتقى في سعيه إلى القمة التي ارتقى إليها إبراهيم من قبل، فتجاوبا في ذلك البلاء المبين ﴿... أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ...﴾ ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ وهنا ﴿مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ عبارة أخرى تفسيراً لـ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ...﴾ فقد كان أمراً عملياً دونما لفظة، ووحياً إليه من فعل الخيرات يراه الذبيح فكيف لا يراه الذابح؟!

ولكنه بحاجة إلى صبر خارق وتسليم فائق ليس في طَوق الإنسان أياً كان، ولكنك ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشية التكوين التوفيق بعد مشيئة التشريع ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أمام أمرك! وفي تحويل «صابراً» عن خاصة نفسه إلى ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ حيث تشمله وسواه، تحوُّل من الأنانية بالتفرد، إلى جمعيته الرحمة، وتلميح أديب توصيةً إلى أبيه بالتصبر كما هو يصبر وأين صبر من صبر!

هنا لا تأخذه بطولة ولا شجاعة واعتماد على همة ولا يرى لنفسه حولاً ولا قوة إلَّا بالله، ويا للأدب الرائع ونُبل الإيمان وجزالة التسليم، وإلى المذبح بكل طوع وتعظيم:

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾:

أوَ لم يسلما لحد الآن؟ ومن قبل كانا مسلمَين بكل مراتبه! أجل ولكنه حاضر التسليم عملياً، بعد تحضيره نظرياً، وأين القول من النظر؟ وأين النظر

من العمل؟ «تقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد»!

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ ثم ماذا؟ ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ صرعه ﴿لِلۡجَبِينِ﴾ ثم ماذا؟ لا نجد بين إسلامهما وتلّه هنا حديثاً، وهو مطوي يعرفه بطبيعة الحال كل عارف بالموقف والحال، ولا نجد لـ«فلما...» جواباً، وقد طوي عنه لأنه مدهش دون حدٍّ، وموحش لأي أحد. وها هنا كل إخلاص وإسلام، هنا كل إسلام وتلٍّ، واستسلام على التَّلِّ، إسلام التل وتلُّ الإسلام في أرفع قمة من القلل، إسلام لا يفوقه إسلامٌ.

إنه ليس هو الشجاعة والجرأة ولا اندفاعة وحماسة في الميدان، يَقتل فيه المجاهد أو يُقتل، ولكنه لا يقتل نفسه، بل أنفس من نفسه: إسماعيله، وميدان التل في مُنى إبراهيم عند جمرة العقبة[1] لا مثيل له في أي ميدان.

علَّه قال لأبيه بين إسلامه وتلِّه: «لا تذبحني وأنت ناظر إلى وجهي فترحمني فلا تجهز علي، يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب فتُضرِب عني، واكفف عني ثيابك كيلا ينتضح عليها شيءٌ من دمي فتراه أمي فتحزن، أسرع مر السكين على حلقي بقوة...» فهذه وتلك أحاديث تروى وليس هنا إلَّا ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾.

إنه ما تلَّه على القفا مهما كان أبعد عن الانعطاف، وإنما «للجبين» كما يفعل بالذبائح كلها، فأفضل الأعمال أحمزها.

﴿أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ﴾ ولمَّا يحقق فعله، رغم ما كمَّل ما لديه فلم يبق إلَّا عمل المدية الواردة على عنقه، إذاً بخطاب النسخ لما أمر؟ فإنه يجوز حين العمل

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٨٠ - أخرج أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: إن جبرائيل ذهب بإبراهيم إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع فساخ فلما أراد...

ولمَّا يتم إذا كان أمر الابتلاء لا أمر العمل، فقد نُسخ أمر الذبح ولمَّا يعمل:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

ومن تصديقه الرؤيا ﴿أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ نعرف أنه اشتغل بذبحه، ولكنما المدية وقعت بين أمر الخليل ونهي الجليل: «الخليل يأمرني والجليل ينهاني» صورة ثانية عن خرق العادة، فـ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] أمر من الجليل خلاف كل التآمرات على الخليل ولينجوا في معركة صاخبة بين الحق والباطل، و﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ هنا نهي من الجليل تخليصاً ثانياً للخليل هو أنبل وأعلى من خلاصه الأوَّل، وفي الخلاصين له إخلاصٌ، وأين خلاص من خلاص وإخلاص من إخلاص؟.

ماذا يدريك أموراً حصلت بين ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ - ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ إنها فوق المواصفة والإدراك ولذلك يطوى عنه إلى أمر الخلاص ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لم يكن القصد من أمر الذبح قتل البريء، وإنما ظهور مدى الإخلاص وقد ظهر بأعلاه، حيث تم الابتلاء وطمَّ، ولم يعد يبقى إلَّا الجسد الذبيح والدم المسفوح ولم يكن بنفسه مقصوداً، وإنما بالإخلاص في تحقيقه وقد حصل:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

لقد جُدتَ يا إبراهيم بكل ما تملكه وفوقه، وجُدتَ بإسماعيلك وهو أعز من نفسك وكل نفيسك، بكل هدوءٍ وطمأنينة، فلم يبق هناك إلَّا اللحم والدم، وهما ينوب عنهما أي ذبح من لحم ودم هو رمز للفداء، وغذاء للفقراء.

لقد كانت هنا مشيئتان، ظاهرة بالذبح كما أمر الله تشريعاً في ابتلاء،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

وباطنة ألَّا يُذبح تكويناً جزاءَ البلاء للمحسنين، فقد «أمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشأ أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله. . .»(١).

أترى هناك تورية في أمر الله؟ والله لا يورِّي، ولا يقول أمره ونهيه إلَّا صُراحاً! كلّا إن الله لا يورِّي.

وإنما يمكر الماكرين عن قوة، وليس منهم إبراهيم، ولم يكن أمره إلَّا صورة الذبح ﴿أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ وقد حصلت تلك الصورة، فليس للمكلف إلا فعل ما يؤمر كما يستطيع، وقد فعل إبراهيم كما يستطيع ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فلم تكن هناك أية تورية!.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾:

بلاءٌ يُبين مدى تسليم المبتلى، ويبين أن إبراهيم تحقُّ له الإمامة الكبرى، حيث أتم به كلمات حمِّل لتدليلها على معانيها، التي تتوحد في غاية التسليم لرب العالمين:

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

الذبح كسراً مصدر وفتحاً هو المذبوح، أترى بعد أن «ذبح عظيم» هو المذبوح كبشاً نازلاً من الجنة رعى أربعين خريفاً فيها؟(٢) وهو ذَبح وليس ذِبحاً،

(١) نور الثقلين ٤: ٤٢٠ ح ٧٢ في كتاب التوحيد بإسناده إلى فتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام حديث طويل وفيه يقول: يا فتح إن لله إرادتين ومشيتين، إرادة حتم وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء ذلك ويأمر وهو لا يشاء، أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وهو يشاء ذلك ولو لم يشأ لم يأكلا، ولو أكلا لغلبت مشيتهما مشية الله وأمر إبراهيم. . .

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٨٤ - أخرج البخاري في تاريخه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: هبط الكبش الذي فدى ابن إبراهيم من هذه الخيبة على يسار الجمرة الوسطى، وفيه أخرج البغوي عن عطاء بن السائب قال كنت قاعداً بالمنحر مع رجل من قريش فحدثني القرشي قال =

ثم وليس عظيماً وجاه المفدى له مهما كان عظيماً لأنه عطية الرب من الجنة، فأين إسماعيل الذبيح وأين هذا الكبش أياً كان من كبش التأريخ؟ ثم وليس لزام «ذِبح عظيم» وحدته، خلاف «ذبح عظيم» حيث تشي إلى وحدته!...

ولأن ذلك الكبش لم يكن هو - فقط - العظيم يأمر النبي ﷺ أن يخمر قرناه المعلقين على الكعبة المشرفة[1]!.

أم أنه ذِبح الذبيح العطشان الإمام الحسين عليه آلاف التحية والسلام؟ وهو أعظم من إسماعيل فكيف يفدى به لمن هو أدنى منه! ثم الذابح للحسين ليس هو الله ولا كان بأمر الله، فكيف إذاً ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾؟!.

قد يعني ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ سنة الذبح يوم الأضحى، فرضاً للحاج في مُنى، ونفلاً لغيره في غيرها، بادئة من ذلك الكبش وإلى كل ذَبح في مُنى إلى يوم الدين، ولا تنافيه الروايات القائلة أنه ذلك الكبش، حيث بدأت به سنة الأضحى.

إن في تقديم الأضاحي يوم الأضحى، وهو مما ترك على إبراهيم في الآخرين، فيه رموز عدة كل واحدة في حدها عظيمة، فهو ذبح عظيم في نفسه وفي مغزاه، في جسمه وفي معناه، يفدى به إسماعيل العظيم، فهو أمثولة أولى للتضحية والفداء، والأضاحي كلها أمثاله إلّا في اللحم والدم!

= حدثني أبي أن رسول الله ﷺ: قال له إن الكبش الذي نزل على إبراهيم في هذا المكان. وفي نور الثقلين ٤: ٤٢٩ ح ٩٣ المجمع عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن كبش إبراهيم عليه السلام ما كان لونه؟ قال: أملح أقرن ونزل من السماء على الجبل الأيمن من مسجد منى بجبال الجمرة الوسطى وكان يمشي في سواد ويأكل في سواد وينظر في سواد ويعبر في سواد ويبول في سواد.

(١) الدر المنثور ٥: ٢٨٤ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد والبيهقي في سننه عن امرأة من بني سليم قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة فسألت عثمان لما دعاه النبي ﷺ قال قال ﷺ: إني كنت رأيت قرني الكبش حينما دخلت الكعبة فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلين.

إن مناسك الحج كلها رموز، ويبدأ قسم منها من قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل كرمي الجمرات والأضاحي في منحر منى.

إبراهيم يرمي الشيطان المتمثل في صورة شيخ هرم عند الجمار الثلاث في كلٍّ بسبع حصيات، حيث كان يعترضه ناصحاً لكي يهدم صرح عزمه في تضحيته، والسبع رمز إلى شيطنات سبع، والثلاث إلى شياطين ثلاثة.

الحاج يبدأ في مناسكه بإحرامه من مكة المكرمة، ثم إلى عرفات ليستحكم معرفيَّات مستجدّاً لها، مستعرضاً إياها في زواياها الثلاث نفساً وخلقاً آخرين وخالقاً، ثم إلى المشعر الحرام، غربلة دقيقة لما استعرفه في عرفات، وليستخلص سمينها عن غثها، شعوراً أدق من عرفات، ومن ثم إلى مُنى ليطبق مُناه في كلا النفي والإثبات: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ طرداً ودحراً للشيطان بمختلف شيطناته برمز رمي الجمرات، وإثباتاً للرحمن برمز التضحية والفداء، ونقصاً عن نفسه بحلق أو تقصير خلاصاً عن نفسياته وإنياته، وإخلاصاً لله، تهيئةً لها وتعبيداً لطريقها إلى طواف وسعي أماذا.

فلما يرجع من جبهة العقبة وقد رمى الشيطان الأكبر، ينحو نحو المنحر ليقدم أضحيته، وكما فعله إبراهيم بإسماعيل عليه السلام، وفيها زوايا ثلاث لكلٍّ أهميتها وعظمها، فهي إذاً «ذِبح عظيم».

فالزاوية الأولى منها رمز التفدية للنفس في الله، أنني يا رب - وبعد نفي الشيطان - حضَّرت نفسي للفداء في سبيلك وبأمرك، ولأن الانتحار محرَّم في شرعتك، أقدِّم بديلاً عني فداء الأضحية: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾(١) هدية ترمز إلى الفداء والتضحية: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ...﴾(٢) ومن ذلك أنها تُشعر بذلك الرمز.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٦.

والثانية رؤية سيول الدماء والأشلاء حتى لا يهابها في سبيل الله دفاعاً وجهاداً أن يَقتل أو يُقتل، فإن لمعرض الدماء والأشلاء تأثيراً عميقاً في استقبال المعارك الدموية في سبيل الله، وهذه ثانية الشعائر.

والثالثة أنها معرض عريض لإطعام الجياع: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1] ﴿... لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[2].

ففي الهدي هدىً معنوية في بعدين ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ...﴾ وهدىً اقتصادية في بعد واحد هو الركن الركين في ظاهر الأمر، المأمور بها في آيات الهدى: إطعام البائس الفقير، القانع والمعتر ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ فإنها تنال الفقراء ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ رمز الفداء وألّا يُهاب الدماء والأشلاء!

هكذا تصبح الأضاحي قياماً للناس بسائر الشعائر والمناسك، وكما قام الـخـلـيـل ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ...﴾[3].

وهكذا ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ لو أن المسلمين ذبحوا كما يجب قياماً لهم في جنبات روحية واقتصادية، لا أن يهدروا أتلال اللحوم تعفِّن جو العبادة فتُحرَق أو تُدفَن والفقراء الجياع لا ينالهم منها إلّا قليل لا يُعبأُ به[4].

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٦، ٣٧. (٢) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

(٤) لقد فصلنا القول حول حكم الأضاحي في منى بعيداً عن كل إسراف وتبذير في كتابنا (أسرار - مناسك وأدلة حج) باللغة الفارسية فراجع، وكذلك في سورة الحج.

هكذا: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)﴾.

تركاً لذكر إبراهيم وذكراه في التضحية والفداء، لحد أصبح تقديم الضحية من فروض الحج في مُنى، كما وأن إبراهيم شيخ الأنبياء يُذكر بمناسبات هامة رسالية في كتابات الأنبياء وفي كل حياتهم:

﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾:

﴿سَلَامٌ﴾ من الله ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ وسلام من المتروك عليه من أهل الله ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ سلاماً عليه قولاً، وتسليماً له فعلاً، وكل سلام من أهل السلام ما بقي الدهر ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ و﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ طولَ الحياة في هذه الأدنى وفي الآخرة إلى دار السلام.

وتلك بشارة أولى لإبراهيم بإسماعيل غلام حليم حيث بلغ معه السعي وحلم في البلاء المبين ومن ثم ثانية:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾:

فبشارته بإسحاق ثانيتهما، وبعد أن ولد إسماعيل وترعرع وبلغ معه السعي وتذبّح، وقد تتطلب هذه لأقل تقدير ثلاث عشرة من السنين، فهناك غلام حليم ما أحلمه لإسماعيل، وهنا نبيّ من الصالحين لإسحاق، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: إسماعيل وإسحاق ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ومن أحسن المحسنين من ذرية إسماعيل محمد وعترته المعصومون، ومن أظلم الظالمين من ذرية إسحاق الصهاينة المجرمون، وإلى عرض موجز عن جموع من النبيين:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

هنا منن ربانية على موسى وهارون، ابتداءً بسلب هو دوماً يتقدم الإيجاب ﴿وَنَجَّيۡنَـٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وهو فرعون وملأه إذ كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاءٌ من ربهم عظيم!

ثم إيجاب في مربع من المنة: ﴿وَنَصَرۡنَـٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ﴾ نصرة بالحجة منذ الدعوة، وأخرى في خوض اللجة حيث أغرق فيها فرعون وملأه - ثم.

﴿وَءَاتَيۡنَـٰهُمَا ٱلۡكِتَـٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾:

نصرة بعد نصرة، والكتاب هو التوراة، أوتيته موسى أصلاً، وهارون فرعاً، وهو المستبين حيث يستبين في هذه الرسالة السامية ما تتطلبها دعوة للأمة إلى صراط مستقيم كما:

﴿وَهَدَيۡنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾:

صراط العصمة العبودية والرسالية وصراط الدعوة الصارخة الصارمة، لحد:

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

وعلّه مخمّسَ المنة ولا سيما الضلع الأخير: الصراط المستقيم، فـ:

﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾:

سلام معهم وسلام في الآخرين الذين هم استمرارية لسلامهم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾:

الذين يحسنون الدعوة إلى الله والدعاية لله.

﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

وقد تضاربت الأخبار والأقوال حول: من هو إلياس، والمتقن هو أن إلياس هو إلياس، فلا تهمنا أسماء تختلف عن النص أو تخالفه، ومحطة رسالته هي الإنذار:

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

الله، وبأسَ الله، وأيامَ الله؟.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

وبعل هي أحد الأوثان المعروفة، وكأنها كبير الآلهة عندهم، وكيف تذرون دعوة أحسن الخالقين وبعل من مخلوقيه دون الأحسن، وأنتم أحسن المخلوقين ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(١) وهو ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴿١٢٦﴾﴾ فضلاً عن بعل ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ الذين كانوا يدعون بعلاً، فالعُبّاد والمعبودون دون الله والآباء القُدامى كلهم من خلقه، ثم يَعبد خلق مِن خلقه وهو في أحسن تقويم - يَعبد بعلاً وهو في أدون تقويم، لأنه جماد فهو أدنى من نبات هو أدنى من حيوان هو أدنى من جان هو أدنى من إنسان، فما هذه الدناءة في الدعوة ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾؟.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

هم كلهم، من المكذبين وسواهم، إحضاراً للحساب، فإلى ثواب أو عقاب.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾:

إذ لا سؤال عنهم يوم السؤال فـ ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾(٢).

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤. (٢) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩)﴾:

دعوتَه ورسالتَه، حيث المرسلون - تِلوَ بعضهم لصِق بعض - يتناصرون في الدعوة الرسالية دون خمول ولا فتور.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾:

ترى من هو ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ دون مدٍّ كما في بعض القراءات وهي المثبتة في القرآن؟ ومن هو ﴿آلِ يَاسِينَ﴾ مداً كما في قراءة آخرين؟[1]

فهل هو «إلياس»[2] السابق ذكره، وكما يقتضيه الترتيب في إبراهيم وموسى وهارون؟ فلماذا - إذاً - ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ دون إلياس المذكور قبله وفي الأنعام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[3]! ولماذا بعد الفصل بين «إلْ وياسين»؟

أم هو المخفف عن «إلياسيّين» فيعني به إلياس وآله وأتباعه من المؤمنين؟ والصحيح - إذاً - هو الشدُّ دون تخفيف صوناً عن أي التباس! وكيف يختص إلياس بهذه الكرامة الشاملة دون إبراهيم وموسى وهارون وهم أفضل منه وأنبل؟!

ولماذا الفصل - إذاً - بين ﴿إِلْ﴾ و﴿يَاسِينَ﴾! وهكذا الأمر لو كان هو نبياً غير إلياس لا نعرفه في سائر القرآن! وإذ لا مجال فيما نعرف لـ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ فهو هو «آل ياسين»؟

ترى أنه بعد «إلياس» لأنه ابن ياسين؟ ولا نجد في سائر القرآن نبياً

---

(١) المد هو قراءة نافع وابن عامر ويعقوب وزيد بن علي وابن عباس وعمر بن الخطاب والكسر قراءة آخرين.

(٢) الدر المنثور ٥: ٢١٦ - أخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: هو إلياس.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٥.

ينسب إلى أبيه أياً كان، فإن نسبة النبوة تغنيه عن أية نسبة! ثم وصحيح النسبة «ابن ياسين» أو «الياس بن ياسين»، وأن يذكر أولاً بنسبته ثم تثنى.

أم إنه آل محمد، فإن ياسين من أسمائه في القرآن، عنى به النداء في يس، والعَلَم تخلياً عنها في الصافات، كما ارتآه بعض كبار الصحابة[1] وكما اتفقت عليه رواية أهل البيت في حجاجات وإجابات عن السؤال حول «آل ياسين»[2]؟.

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٨٦ - أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصَّافات: ١٣٠] قال: نحن آل محمد آل ياسين، وفي ملحقات إحقاق الحق للمرجع الديني العظيم السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٣ ص ٤٤٩ رواه جمع من فطاحل القوم ونحن نكتفي بسرد من وقفنا عليه فنقول: منهم فخر الدين الرازي في تفسيره ٢٦ : ١٦٢ والقرطبي في جامع أحكام القرآن ١٥ : ١١٩ وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ٧: ٣٧٣ وابن كثير في تفسيره ٤: ٢٠ والهيثمي في الصواعق المحرقة ١٤٦ والترمذي في مناقب مرتضوي ٥٤ والشوكاني في فتح القدير ٤: ٤٠٠ والألوسي في روح المعاني ٢٣: ١٢٩ والسيد أبو بكر الحضرمي في رشفة الصادي ٢٤ ونقله النقاش عن الكلبي، كلهم يروون قول ابن عباس أنه آل محمد، وفي كفاية الخصام ٤٦٩ وأبو نعيم الأصفهاني بسنده عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مثله وعن ابن بابويه بسنده عن ابن عباس في الآية قال: «السلام من رب العالمين على محمد» وآله وعليهم السلام لمن تولاهم في القيمة وعنه عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عمر بن خطاب كان يقرأ هذه الآية فقال أبو عبد الرحمن: آل يس هم آل محمد، وممن روى عن عمر بن الخطاب قراءة المد أبو عبد الرحمن الأسلمي أخرجه عنه بعدة طرق ابن بابويه القمي في الخصال.

(٢) أخرج في كفاية الخصام من طرق الشيعة ستة عشر حديثاً أن آل ياسين في الآية هم آل محمد وفي نور الثقلين ٤ : ٤٣٢ ح ١٠٣ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه ولهذه الآية ظاهر وباطن فالظاهر قوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] والباطن قوله: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] أي سلموا لمن وصاه واستخلفه عليكم فضله وما عهد به إليه تسليماً وهذا مما أخبرتك أنه لا يعلم تأويله إلا من لطف حسه وصفاً ذهنه وصح تمييزه وكذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ لان الله سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الاسم حيث قال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . . .﴾ [يس: ١-٣] وفي كفاية الخصام ٤٧١ محمد بن عباس بسنده عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية أنه=

وكيف يسلِّم هنا على آل ياسين ولم يُذكر يس بنفسه وهو الأصل! وليذكر خاتمة الذكرى من هؤلاء النبيين فإنه خاتمهم! ثم إفراد الضمير في ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١] لا يناسب جمع الآل على أية حال!

قد يعني «آل ياسين» - فيما يعنيه - كلا إلياس وآل محمد فإن كلًّا من آل ياسين، ولا يردف يس نفسه بهؤلاء لأنه سيدهم وله صلوات فوق السلام في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٢] وقد يعني «إنه» إلياس فإنه من آل ياسين، ويعني محمداً ﷺ على البدل، فالمرجع واحد على أية حال، فياسين - إذاً - ياسينان والآل آلان وهذه الثانية تصبح وجهاً وجيهاً لـ«آل ياسين» ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨١﴾[٣]!

وإذا كانت «آل» مداً، والكتب المتواتر من القرآن دون مدٍّ، فهل ليس ذلك تحريفاً في الذكر الحكيم؟ كلَّا فإن قراءة المدّ مروية عن الأربعة الكبار وعليها إجماع أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فقد اختص آل محمد ﷺ بالسلام عليهم ضمن السلام على هؤلاء النبيين الكرام ولم يسلم على آلهم، وكما اختص الرسول وآله بالصلاة عليهم بين الأمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٤].

= قال إن رسول الله اسمه يس ونحن الذين قال: سلام على آل ياسين ورواه مثله في معاني الأخبار بإسناده إلى كارح عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عنه عليه السلام.

(١) سورة الصافات، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٨٠، ٨١.

(٤) وفي عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة حديث طويل وفي أثنائه قال المأمون: فهل عندك في الآل شيء أوضح من هذا في القرآن: قال أبو الحسن عليه السلام: نعم أخبروني عن قول الله تعالى ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ...﴾ [يس: ١-٢] فمن عنى بقوله: ﴿يسٓ﴾ قالت العلماء: محمد ﷺ لم يشك فيه أحد قال أبو الحسن عليه السلام =

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

وهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام ومن دُعاة رسالته، وقد نجاه الله في رسالته عما نزل بقومه

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾:

هي امرأته الغابرة في كفرها، الغائرة مع الغابرين

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

ومنهم ﴿عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم...﴾:

على آثارهم الخاوية

﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

وهم على طريق الحجاز إلى الشام.

وهذا مرور خاص بواقع آثارهم لخصوص المارِّين عليهم القاطنين في أرض الحجاز، ثم مرورٌ لكل ساكني المعمورة.

ومن ثم مرور شامل على تاريخهم كما حصل حيث «تمرون عليهم في القرآن»[1].

= فإن الله عزّ وجلّ أعطى محمداً وآل محمد من ذلك فضلاً لا يبلغ أحد كنه وصفه إلا من عقله وذلك أن الله عزّ وجلّ لم يسلم على أحد إلا على الأنبياء صلوات الله عليهم فقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصّافات: ٧٩] وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصّافات: ١٠٩] وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصّافات: ١٢٠] ولم يقل سلام على آل نوح ولم يقل سلام على آل إبراهيم ولم يقل سلام على آل موسى وهارون وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصّافات: ١٣٠] يعني آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال المأمون: قد علمت أن في معدن النبوة شرح هذا وبيانه.

(١) نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾:

لقد ذكر يونس هنا باسمه، وفي يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١].

وفي «ن» هو «صاحب الحوت»: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾[٢].

وفي الأنبياء «ذا النون»: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾[٣].

فيونس ذا النون صاحب الحوت هنا في الصافات يذكر بتفصيل من قصته، والثلاثة الأخرى كملتقطات منها، وهوامش لها، ولكلٍّ تفسيرٌ في محله، وهنا ﴿يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠﴾:

وهل إنه إباق عن رسالته ولمّا تكمل؟ وهو خلاف العصمة والاصطفاء للرسالة! إم إباقٌ المغاضبة على قومه؟ وهو ذهاب دون إباق ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾! ولماذا الإباق بمجرد المغاضبة وهي مستمرة في تاريخ الرسالات! أم إباقاً خوفَ العذاب الموعود لهم وهو على الأشراف وهو ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ...﴾!

علَّ الإباق يشمل الثلاثة كلها، وطبعاً دون إباق عن الرسالة، بل قلة

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٢) سورة القلم، الآيات: ٤٨-٥٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

الصمود عليها وكما يروى عن الرسول ﷺ: «كان رجلاً تعتريه الحِدَّة وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزاً عما حُمِّل من ثقل أوتار النبوة وأعلامها...»[١].

﴿أَبَقَ﴾ عن قومه، وعن العذاب المشرف عليهم، وعن التصبُّر في تداوم الدعوة ﴿أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوءِ من مختلف الركاب، ظناً أن فيه نجاته ولكن:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

والدحض هو إزالة ما لا يُعنى، فمِن «ساهم» مساهمة الاقتراع ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ نعرف أن الفلك أصبح ثقيلاً براكبيه، مشرفاً على الغرق، فكان ولا بد من إنجاء الجميع دحض البعض، ولكيلا يتنازعوا اقترعوا «والقرعة لكل أمر مشكل» فحصل هنالك «مدحَضون» قدَرَ اللازم من تخفيف العبءِ، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ في البحر ولكنه هو بين المدحَضين:

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾:

نفسَه، لماذا أبق عن قومه إلى الفلك فأصبح ما ظنه نجاةً سجناً أو هلاكاً، كراً على أشرَّ مما فرَّ!.

أصبح يليم نفسه من بادرته المسرعة ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٢] قائلاً: ﴿سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٣] المنتقصين كمال الدعوة، ظلماً لا ينافي العصمة، فالرسل درجات وليسوا على سواء.

---

(١) نور الثقلين ٥: ٣٩٧ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام كتب أمير المؤمنين عليه السلام قال: حدثني رسول الله ﷺ أن جبرائيل حدثه أن يونس بن متى بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة وكان رجلاً... الحديث بطوله ذكرناه في ٢٩ من الفرقان.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾:

و﴿كَانَ﴾ هنا تضرب إلى عمق الماضي وإلى حاضر بطن الحوت: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الليل، والبحر، وبطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ من أن تظلمني وتسجنّي دون تقصير «إني» أنا لا أنت ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]!.

والظاهر من «لبث» هنا لبثه كما كان، فهما إذاً حيّان ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي ذلك اللبث المقدر المعلق شاهد صدق على إمكانية زيادة الأعمار مئات الأضعاف والآلافات.

فلبقاء الإنسان حياً في بطن الحوت، دون جو صالح للتنفس، وهو في البحر، ليس له إلّا دقائق معدودة، فأين هي وإلى يوم القيامة؟

فإذا قدّرنا مكوث الإنسان حياً في بطن الحوت لخمس دقائق أصبح مكوث السنة/ ٩٣٣٧٠ ضعفاً فكيف بالآفات السنين إلى يوم الدين؟

وهل إن ذلك المكوث - وليس إلا للنبهة عن خطأ - أهم، أم مكوث صاحب الأمر الحجة بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، حياً يرزق، لإقامة دولة إسلامية عالمية سامية.

إنه عليه السلام - لحد الآن - ما مكث إلّا (١١٤٣) سنة وهي بمتوسط التقدير عشرة أضعاف العمر المتعوّد، وسنة واحدة من مكوث يونس في بطن الحوت هي/ ٩٣٣٧٠ ضعفاً للمكوث العادي هناك، فإذا مكث الإمام المنتظر لحد الآن - عشرة أضعاف العمر، لم يمكث إلّا كخمسين دقيقة من مكوث يونس فتصبح سنة من مكوثه/ ٩٣٣٧٠٠٠/ سنة من مكوث صاحب الأمر، فضلاً عن ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؟

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

وترى ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هو يوم قيامة الإحياء، وهو الظاهر من البعث الجمعي؟ أم قيامة الإماتة؟ إذ لا بد لكل نفس من موت فكيف يلبث يونس إلى يوم الإحياء!

قد يعني ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ مجمع اليومين فإن موتهم الجمعي ليس إلا لبعثهم جميعاً، أم إن ذلك فرض وتقدير، ولا ضير في عدم الموت لإنسان يقدر له هكذا تقدير، ولكن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[1] وإن البدن يوم الحساب خلاصة عن هذا البدن وليس كله، فلا بد إذاً من موت حتى يبعثوا كما يناسب حياة الحساب.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾:

«العَراء» هو المكان المكشوف الذي لا ستر عليه ولا ظل فيه، والنبذ يرمز إلى رفض وترذيل كما في آياته كلها إلَّا ما هي في مريم ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[2].

ولكن يونس نُبذ وهو ممدوح ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ وهذه النعمة هي دوام التسبيح والاعتراف بالظلم.

ثم ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قد يعني إلى سقم الجسم سقماً في الروح، لماذا ذلك الإباق؟ ولكي لا يتأذى بحرِّ الشمس:

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾:

وليكن الإنبات فور نبذه، فإنه من إكرامه، وفي تأخيره دون ستر بالعراء ذمُّه وهو غير مذموم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ٢٢.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾:

ذلك إرسال له ثانٍ ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ بعدما ذهب مغاضباً وأبق إلى الفلك المشحون، فسجن هو وزال العذاب عن قومه، معاكسة عجيبة بحساب، لأنه استعجل عن قومه وهم آمنوا في غيبته: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] ثم استكمل إيمانهم لمّا ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ...﴾ ثانية ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وترى ماذا تعني ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ولا تردُّد في علمه سبحانه؟ علَّهم حين أرسله إليهم كانوا مائة ألف، ولو لم يزد ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ لاختصت رسالته بهم دون مواليدهم، ولكن ﴿يَزِيدُونَ﴾ المستقبل تضيف إليهم الولائد الجُدُد ما دام يونس فيهم، و«أو» تُقسِّم مدى رسالته إلى ﴿مِائَةِ أَلْفٍ﴾ حاضرين ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ مستقبلين.



(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٨﴾ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

استفهامات تنديدية هي استفحامات بمن يتخذون لله بنات ﴿وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾! تفضيلاً لأنفسهم على الله، كما فضّلوا عليه أصنامهم، قسمة ضيزى ما لها من مثيل.

ففيما يفترون على الله اتخاذ البنات، هم يفترون على الملائكة أنهم هؤلاء البنات:

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾؟:

وقد خلقوا من بعدهم، وحتى لو خلقوا قبلهم أو معهم فما هم في خلق الرحمن من الشاهدين: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[1]!

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

فلا ولادة لا حقيقية ولا تشريفية، لا أنثويَّة ولا سواها، وفي كلمة واحدة «إنهم لكاذبون» وحتى لو اتخذ ولداً فكيف يصطفي لنفسه البنات على البنين؟ أإيثاراً على نفسه وليست به خصاصة، ثم الإيثار على خصاصة - على فرضها - مستحيل في ساحة الربوبية

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾؟:

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾:

هذه الغلطات الغليظات التي لا تدخل في أدمغة المجانين فضلاً عن سائر العالمين!.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾:

يبين فريتكم الكذب كحق متين، وليس ذلك إلَّا كتاباً من الله كما يوحي إلى المرسلين

﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾:

وليس «كتاب الله» لأنه مستحيل على الله.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

آية النسب هذه هي الوحيدة في نسب الجن من الله ولادةً، وقد تعنيه فيما تعنيه ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[(١)] ولو كان هنالك نسب فهم حَسَب النسب مكرمون، ولكنهم كما يعلمون ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

ما تتعالى عنه ساحته، أيّاً كان الواصفون، مهما كانوا مؤمنين ومخلصين.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾:

فإنهم لا يصفونه إلّا كما وصف نفسه.

فكل توصيف إيجابي من أي واصف بعيد عن ساحته لأنه نابع عن جهالة، أم المعرفة غير القمة العالية، ولكن ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله عن كل شين ورين، وعن كل جهل، هم يصفونه كما هو أهله، لأن الله صنعهم كما يشاء، ولا خطأ في صنع الله، فلا خطأ - إذاً - في وصفهم لله!

هذا في التوصيف الإيجابي، وأما السلبي فيشاركهم في صدقه المخلَصون والمؤمنون، فإذا قال قائل منهم: ﴿اللَّهَ عَالِمُ﴾[(٢)] يعني أنه لا يجهل، دون أن يصوِّر عن علمه مفهوماً إيجابياً كما يفهمون، فإنه تشبيه!.

إذاً فتوصيف المخلَصين عاصم ومعصوم، إن في سلبية الصفات أم في إيجابيتها، وتوصيف المخلَصين في إيجابيتها غالط مأثوم، وفي سلبيتها غير مأموم، وتوصيف من سواهم قد يكون إلحاداً، وأخرى شركاً كما يصفه المشركون أن بينه وبين الجنة نسباً!

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٥.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٨.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾:

من أصنام وأوثان وطواغيت

﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾:

لستم أنتم العبدة والمعبودون على الله بفاتنين، فتنة تنقلب فيها صفاته الحسنى إلى ما تبغون أم تنغَلب فيها ذاته عما هي عليه، إلّا فتنة عليكم

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾:

إذ يعني هنا الفتنة ولكنه هو المفتون ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾[1]!

فهذا الاستثناء منقطع يقطع كل فتنة على الله، ألّا فتنةَ راجعةً إلى فاتنين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ و﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[2]!

ثم وغير الفاتنين من المعبودين كالملائكة فهم كما يقولون:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾:

مقام في أعمال، ومقام في درجات الأعمال، دون تجاوز عنها ولا قيد شعرة.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾:

نَصِفُّ جنوداً لرب العالمين، صفوفاً متراصة لانتظار الأمر وتحقيقه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[3] أجل وهم «صافون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون»[4].

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

(٣) سورة مريم، الآية: ٦٤.

(٤) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام. =

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾:

لله، فكيف نرضى أن نُعبد من دون الله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[(١)] وهنا نتلمح من «الصافون...» استحباب الصفيف حالة التسبيح العبادة، وقد كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: استووا، تقدم يا فلان، تأخر يا فلان، أقيموا صفوفكم، يريد الله بكم هدى الملائكة..[(٢)].

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾:

هذه حجة دامغة عليهم ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ خلاف ما ينوون ويعرفون ﴿لَوْ أَنَّ...﴾.

ولو أن الذكر يجعلهم عباد الله المخلَصين، فما هو الفارق بين ذكر الأولين والآخرين، إلا أن ذكر الآخرين هو أقوى ذكر للعالمين، فلماذا لا يؤمنون، فضلاً عن كونهم عباد الله المخلَصين[(٣)]؟!

﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴿١٧٠﴾﴾:

هذا الذكر العظيم، القرآن الكريم، رغم قولتهم الخواء

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾:

= وفي الدر المنثور أخرج محمد بن نصر وابن عساكر عن العلاء بن سعيد أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: أطّت السماء وحق لها أن تئط، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد ثم قرأ الآية.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.

(٢) مر في الصفحة السابقة الهامش رقم ٤.

(٣) الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا قام...

كلمة سابقة سابغة من رب العالمين ما لها من كاذبة ﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هنا ولـ ﴿جُندَنَا﴾ كما وسائر المؤمنين معهم في «المؤمن»: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[1] [2].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾:

استئصالهم، أم حين موتهم، فإنهم لا محالة مغلوبون

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

أنت الآن أبصر، ولكنهم الآن عمون ﴿فَسَوْفَ﴾ بعد الآن ﴿يُبْصِرُونَ﴾ ولكنهم سوف لا ينتفعون!

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾:

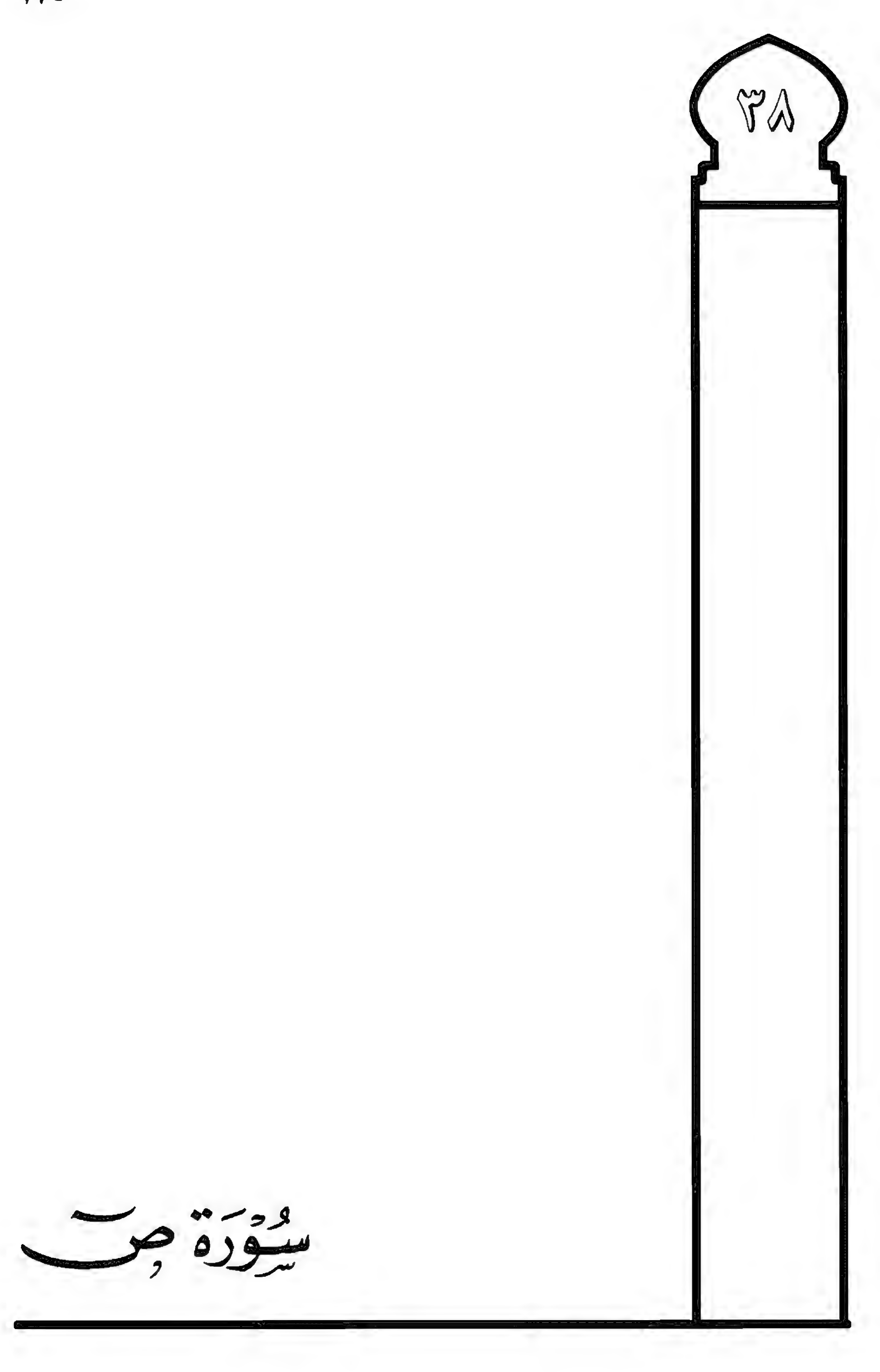
استعجالاً لمرسى الساعة، أم مرسى العذاب قبل الساعة، وتلك إذاً حماقة كبرى...

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.



(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) راجع الفرقان تفسير الآية في سورتها ففيه قول فصل فلا نكرره هنا.


٣٨
سُورَة صٓ



مكيّة وآياتها ثمان وثمانون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾

﴿صٓ﴾ هي كسائر الحروف المقطعة، من مفاتيح كنوز القرآن، تعني من

أنزل عليه القرآن ومن في منزلته، وأما نحن فـ«ما ندري ما هو»؟[١].

وعلّها بمناسبة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ هو النبي الصادق في دعواه ودعايته، الذي لم يعرف الكذبَ ولم يعرفه الكذبُ منذ تكلم، قبل رسالته وبعدها! كما وعلَّ مدها تأشيرة لمدّ الصدق وصدق المد طول حياته المنيرة؟ اللّهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا!

ثم ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ في صورة القسم وسيرة البرهان، ليس إلّا لإثبات «ص» في صدق النبوءة والرسالة وكما في ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾[٢] إذ لا نجد قبل ولا بعد مقسماً لأجله إلّا «ص»!

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾:

يذكّر الفِطَر والعقول، وهو ذكر في كافة الحقول، ولأنه بنفسه دليل على وحيه الصادق، يذكركم أن رسوله هو الصادق الأمين، وكما الرسول هو بنفسه ذكر يشهد لوحي القرآن الحكيم: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا...﴾[٣] بل والرسول هو من ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[٤] وكما القرآن هو رسول الذكر.

ذكران لِصقَ بعض، يشهد بعضه على بعض، وينطق بعضه ببعض، ذكراً عن كتابي التكوين والتشريع، وذكراً لمواضع الغفلة من الفطر والعقول والعلوم!

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٩٦ - أخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: سئل جابر بن عبد الله الأنصاري وابن عباس عن ﴿صٓ﴾ فقالا: لا ندري ما هو؟

(٢) سورة يس، الآيات: ١-٤.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) سورة يس، الآية: ٦٩.

ذكر على ذكر يوضحان كل صغير وكبير، وكل دقيق ورقيق وَضْح الشمس في رابعة النهار، فلا يبقى مع ذكرها أية غفلة:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾:

فليس كفرهم بذلك الذكر، لقصور في الذكر، وإنما لتقصير منهم أمام الذكر، فهم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ غارقين في أنانية الشهوات والفرعنات ﴿وَشِقَاقٍ﴾ إذ جعلوا أنفسهم في شِق يقابل شق الرسالات الإلهية: فنحن رجال وهم رجال.

لا يفضل رجال عن رجال، بل نحن أرجل منهم وأنبل في بنين وقوات وأموال!

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾:

قرون كافرة مضت وغبرت درج التأريخ «أهلكناهم» هلاك استئصال العذاب أم موت ﴿فَنَادَواْ﴾ حين هلاكهم استغاثة النجاة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وفرار وخلاص.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾:

ويا عجباه من عجبهم ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ والمجانسة هي من لزامات الدعوة الرسالية تكملة للحجة، وإيضاحاً عملياً للمحجة ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالتوحيد والرسالة ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ يسحرنا بكلامه ﴿كَذَّابٌ﴾ في دعوته، ومن أدلة كذبه دعوته إلى خلاف الأصل:

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾:

وي! كأن الأصل الأصيل في الألوهة هو الآلهة، فالداعي إلى إله واحد يدعو إلى شيء عجاب! وترى كيف انقلب الباطل أصلاً والأصل باطلاً حينما يتعود الإنسان على باطل ودون أي برهان، إلا تعاقب الآباء القدامى على أصالة العدد ورغم أن الأصل بين المشركين - أيضاً - إله واحد هو

خالق الكون: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل فأنى تؤفكون»؟!... ومن ثم اختلقوا له أنداداً ليضلوا عن سبيله، وعلى مرّ الزمن وتوالي القرون تناسوا ذلك الأصل، وعاكسوا أمره بخلاف الأصل، فليأت من يدعي الوحدة ببرهان! رغم أن الواحد متفق عليه والزائد مختلف فيه، وعلى مدعي الزيادة أن يأتي ببرهان!

فهنا يصور النص مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية العقلية، التي تصدقها كافة البراهين ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ لا يخلد بخلد، فهو - إذاً - جعل مختلق، وتآمر مدبر يراد من حزب الدعوة الرسالية:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾:

هناك ﴿يُرَادُ﴾ تحريف الجماهير عن الآلهة في دعوة مبيتة مختلفة بغية الرئاسة وهنا ﴿يُرَادُ﴾ أن تصبروا على آلهتكم،! ولا تسمعوا لهذه الدعوة التي هي بدع من الدعوات! إذاً فـ ﴿ٱمْشُوا۟﴾ ابتعاداً عن هذه الدعوة العوجاء الهراء ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ وهم أصل الألوهة.

وفي ﴿وَٱنطَلَقَ﴾ تلميحة إلى أنهم احتسبوا مقامهم لسماع هذه الدعوة أسراً لعقيدتهم السليمة، وتسليماً لها إلى غير سليمة، فلذلك ﴿وَٱنطَلَقَ﴾ عن أسرهم، وصبراً على حريتهم في عقيدة الآلهة!

فقد انقلبت حرية العقيدة - الفطرية العقلية والعلمية - لديهم أسراً وأسر العقيدة حريةً، كما انقلب أصل الإله الواحد إلى الآلهة! وهكذا يخيل إلى من رانت قلوبهم وعميت بصائرهم أن يعكسوا أمر الحق والباطل، تصويراً لكلٍّ بصورة الآخر، وهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾:

وكأن الملّة الآخرة هي الأخيرة قبل الإسلام: المسيحية، التي شاعت

فيها أسطورة التثليث؟ أم وملة أخرى ممن عاصروهم حيث الإشراك أصبح سنة شاملة تحلِّق على أكثرية الأجواء، وهم - بطبيعة الحال - لا يعاشرون إلّا أضرابهم المشركين مهما اختلفت صنوفه.

وهكذا يكون أهل الباطل، إنهم لا يفتشون عن الحق بل ويستوحشون من أهله، فبالطبع لا يسمعون إلّا ما هم من أهله، فيأخذونه حجة على الحق وأهله!

وهذه طريقة مكرورة ماكرة في الأجواء الطاغوتية، حيث يصرف فيها الطغاة جماهيرهم الأذيال عن الاهتمام بصالحهم العقائدي والبحث وراء الحقيقة المنشودة، حيث اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق خطر عليهم، إذ يكشف أباطيلهم وأضاليلهم، فيصعب بذلك استحمارهم.

وقد تلمح ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ بأنهم كأنهم استضعفوا أمام داعية الحق، فلينطلقوا عنهم خلاصاً عن أسرهم بأسرهم، وصبراً على آلهتهم المظلومين المهاجَمين ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ بهم من مسٍّ لكرامتهم!

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾:

وإذا كان الذكر ينزل على بشر مثلنا، فكيف أنزل عليه الذكر من بيننا ونحن أولى به منه، وليس ذلك العجاب لأنهم عرفوا الذكر ثم شكوا فيمن أنزل عليه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ إذ ما عرفوه، ولذلك أنكروه، وإذا عرفوه فهم قد ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ حتى يثوبوا ولات حين مناص!.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾:

لذلك فلهم الخِيَرة في نزول الرحمة على من يشاؤون، دون ربك، ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾[2]

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤. (٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾:

هنا - في الكون - أسباب عادية متعدِّدة لكل متسبب بها تقتضيه لحاجات، وهناك أسباب علمية لا تُنال إلَّا بالكشوف العلمية بمختلف درجاتها، وهنالك ثالثة لا تُنال إلَّا بالوحي إلى رجالاته، ثم رابعة تختص بمن له ملك السماوات والأرض.

فذو القرنين يُتبع سبباً وسبباً وسبباً من القسم الثالث بما سببها الله له في مسيرته الأرضية الكبرى، والرسول محمد ﷺ يُتبع سبباً سماوياً يحلِّق على الأفق الأعلى عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى.

وأما أسباب التكوين الخاصة بمن له ملك السماوات والأرض وبيده ملكوت كل شيء، فلا تُملَّك لأحد أو تُخوَّل.

فرعون يطلب من هامان بناء صرح ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[٢] بكل غباوة وتخرُّف!

وهنا المشركون يُتحدَّون بارتقاء الأسباب الخاصة بالله، لمكان ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أم والخاصة بتسبيب الله، ولكي يستملكوا خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب، ويختصوا وحيه بمن يشاؤون.

أو يمنعوه عمن يشاؤون ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أسباب السماوات حيطة على الوحي في الملإ الأعلى، وأسباب الأرض، حيطة على قلوب الموحى إليهم، وليحدّد وحي الله كما يحدِّدون، ويهبط إلى أي مهبط يحبون.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٢) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

فهذه الآية وأشباهها من آيات الأسباب ترمز إلى أسباب غيبية لم تكشف البشرية عنها النقاب، وسوف يكشف عن بعضها، الخاصة بغير الوحي، وغير الخاصة بالله، على ضوء الكشوف العلمية المتواصلة.

وهناك أسباب لا سبيل إليها بأي سبب من الأسباب، ولن يكشف العلم عنها النقاب مهما تقدم وتصدى! فإنها «أدق من الشعر وأحدُّ من الحديد وهو بكل مكان إلَّا أنه لا يُرى»[1].

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أيُّ الأحزاب ﴿هُنَالِكَ﴾ ارتقاء في الأسباب ﴿مَهْزُومٌ﴾ في غزو الفضاء، مهما هزمت الجنود العلمية الجبارة أسباباً تنهزم في الأرض والسماء.

إنَّ كافة الجنود، بكل الإمكانيات والطاقات، هي ﴿هُنَالِكَ﴾ أمام الارتقاء في الأسباب، إنها ليست إلَّا ﴿جُندٌ مَّا﴾ في كل هزالة وبذالة أمام مُلك السماوات والأرض ومَلكِهما وأسبابهما الغيبية الخاصة!

كما و﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ أمام حجة الوحي محجوج ﴿مَهْزُومٌ﴾ من أي حزب ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مهما أبرقوا وأرعدوا، فإن للحق دولة وللباطل جولة!

إن صرْح الوحي لا يُساوى أو يسامى بـ﴿جُندٌ مَّا﴾ وكل الأجناد في تلك الساحة العالية هي ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾!

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2] على جبروتهم

---

(١) الدر المنثور: ٥: ٢٩٧ - أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس قال: الأسباب...

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

﴿وَعَادٌ﴾ أصحاب ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾[1] ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أوتاد الحكم الأوطاد، والأسباب التي بها السلطان كما يثبت الخباء بأوتاده، ويقوم على أعماده، أوتاد الأبنية المشيدة المشددة، والقواعد الممهدة التي تشبه الجبال في ارتفاع الرؤوس ورسوخ الأصول، حيث الجبال قد تسمى أوتاد الأرض، فأبنيته كانت كالجبال الأوتاد، كالأهرام التي تقوم في الأرض كالجبال.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣﴾:

الأيكة هي الغابة الملتفَّة وهم قوم شعيب، وهؤلاء هم أطغى وأنحس وأغوى حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي، لحد يحق لهم القول ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ المتحزِّبة ضد الرسالات، كأن لا أحزابَ سواهم!.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾:

لقد جنَّدوا كل طاقاتهم وإمكانياتهم، وحصروها في تكذيب الرسل، فحق عليهم عقابي في الأخرى، وأحياناً في الأولى زيادة عليها، فهم ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾!

﴿وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾:

ما ينتظر هؤلاء الناكرون ليوم الحساب - واقعاً دون انتظار - إلَّا صيحة واحدة ما لها من مهلة حتى قدر فَواق.

فقد ينتظر الإنسان أمراً هو مصدقه فناظره، وقد لا ينتظره إذ هو ناكره فغير ناظره ولكن ذلك الأمر هو ناظره، وهناك نظراً إلى المستقبل الواقع يصح القول أنه ينتظره.

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٧، ٨.

والفواق فتحاً هو الراحة، وضماً هو فواق الناقة، والنص كالأول، إذاً فما لهم من هذه الصيحة من راحة، فلا إفاقة من سكرتها، ولا استراحة من كربتها ولا قدر فُواق، كما يفيق المريض من علته والسكران من نشوته.

وقد تعني ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ واحدة تلو الأخرى على الأبدال، فقد تكون لهم صيحة يوم الدنيا هي عذاب الاستئصال، ثم لهم ولكل العالمين صيحة لقيامة الإماتة، هي لهم أولاء عذاب، ومن ثم صيحة قيامة الإحياء، ولا فَواق لأيٍّ من هذه الصيحات لهولاء الأنكاد!

وقد تعني - فقط - الصيحة الثانية ليوم الحساب: ﴿وَقَالُوا۟ . . . قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فلكل صيحة قبل يوم الحساب فواقٌ بعدها، حيث النوم في البرزخ فواق: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1] فليس بينهما عرض على النار، لكن ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[2] إذ لا تخفيف فيه ولا فواق.

ويا لعُجالة الحماقة لهولاء الأغباش يستعجلون قِطّهم من صيحة الحساب قبل يوم الحساب، ومهما تكن لهم من صيحة يوم الدنيا فما هي إلّا دون صيحة الحساب!.

والقِطّ في الأصل هو المقطوع عرضاً كما القِدُّ هو المقطوع طولاً، إذاً فهو النصيب المفروض المفروز، ولكن قط الصيحة الأخيرة ليس مفروزاً مهما كان مفروضاً، فإنه صيحة الإحياء ثم لا فواق بعدها للكافرين ولا نومة فيها فواق، خلاف سائر الصيحة قبلها حتى صيحة الإماتة فإن بعدها وقبل الأخرى برزخ فيه نوم مهما قل أو كثر، وهو فواق!.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٦.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

الآيات العشر الأولى استعراضة خاطفة لحياة داود عليه السلام في سلطتيه

الروحية والزمنية، بيانَ الواقع الرسالي لهذا النبي الملك، وإجابةً عن شطحات المشركين: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ ونحن أولو قوة وسلطة ومال؟

فذلك لمصداق من مصاديق الرسالات السامية، أن ليس بين القيادة الروحية والزمنية أية منافرة ومناحرة، بل السلطة الزمنية هي - فقط - حقٌّ للروحيين، مهما حَرمهم أهل الزمن طول قرون الرسالات، حرموهم حقوقهم ولكن ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وهي آخر الزمن، ثم في الزمن جمع بينهما أحياناً كما في داود وسليمان عليهما السلام بما جعل الله تكويناً وتشريعاً، وأخرى فصل بينهما لشراسة الزمنيين من ناحية وتقاعس الروحيين أو سائر المؤمنين من أخرى كما عشناه طول القرون الإسلامية.

وثالثة محاولة إيمانية صامدة من المؤمنين لكسر جبروت الطواغيت واستلام أزمة الحكم كما فعله الإمام الحسين سيد الشهداء عليه السلام وعدم نجاحه لاستلام السلطة الزمنية هو من جرّاء تخاذل المسلمين إن لم ينصروه، مهما نجح روحياً كأمثولة عالية منقطعة النظير في التضحية والفداء، روحي وأرواح العالمين لتراب الشهداء مقدمه الفداء.

ورابعة هي من جراء الثورة الحسينية كالثورة الإسلامية السامية الحاضرة في إيران، حيث يقودها ابن الإمام الحسين عليه السلام.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾:

ذلك الأيدي الداودية هي أيدي السلطة الزمنية إضافة إلى الروحية، وثالثة يد التجاوب معه في تسبيحه من الجبال والطير، ومن أهم أيديه يد العبادة ﴿عَبْدَنَا﴾ وعلى حد المروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ينبغي لأحد أن

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

يقول إني أعبَد من داود»[١] اللهم إلّا قائله لأنه - ﴿أَوَّلُ ٱلۡعَـٰبِدِينَ﴾[٢]! ولماذا ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ لـ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يؤوب إلى ربه ويثوب دائبة دون وقفة!

﴿ٱصۡبِرۡ﴾ على معاناة الدعوة الصعبة المعارضة، و﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ على هذه الدعوة، فلتجعل الصبر زادك في هذا الطريق المليء بالدماء والأشلاء، مفعمة بكل ابتلاء.

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾:

ويا لها من يدٍ في الغيب، إن الجبال الجامدة غير الشاعرة بظاهر الحال، هي تسبح معه بالعشي والإشراق. لا - فقط - معية واقعية، فإنها مع كل الكائنات، ولا - فقط - معه! بل ومعية تَسامُع أصواتها في تسبيحها، كما ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ مسخرة معه يسبحن، و﴿كُلّٞ﴾ من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

ولماذا - فقط - العشي والإشراق؟ لعلهما تعنيان مساءَ صباحٍ تعبيراً ثانياً عن الأوقات كلها، ولأنهما ركنا الأوقات، أم تعنيان وقتي الصلاة، أنها كانت مفروضة في شِرعته في الوقتين.

ثم هي كلها أوابة لله ولكن هنا ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ في معية التسبيح وتبعيته له، إضافة إلى تسامعٍ أو سمعه فقط.

أجل ﴿لَّهُۥٓ﴾ لا لسواه، وكلٌّ أوبة إلى الله، ما يدهش العقول من ضخامة العظمة لهذا النبي الملك العظيم!

﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾:

مُلك مشدود بعناية الله، شديد على أعداء الله، مديد في أرض الله،

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٩٧ - أخرج الديلمي عن عمر قال قال رسول الله ﷺ . . .
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

إضافة إلى الحكمة وفصل الخطاب، فالمُلك دون حكمة ساقط، والحكمة دون مُلك غير مشدودة بالواقع الملموس، وهما دون فصل الخطاب مفصولان عما يراد منهما!

و﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ هو الخطاب الفصل، قاطعاً دون تردد، مقنعاً دون تبدُّد، يفصل بين الحق والباطل، وبين المتخاصمين، وكذلك كل فصل حكيم، كمعرفة مختلف اللغات حيث تفصل بين مختلف المخاطبين في اللغات[١].

ومع كل ذلك تراه يُبلى ببلاءٍ، وأنت لم تبل بمثل بلائه العناء، فمهما لم يكن لك ملك، فهناك الحكمة الحكيمة القاصعة، وفصل خطاب قاطع دون ابتلاء في هذه السبيل مهما ابتليتَ بقوم لُدٍّ ما أتاهم قبلك من نذير!.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾:

الخصم هو الخصومة وكأنهما هما نفس الخصومة لعظُمها وشدتها، ومن آيته تسوُّر المحراب: ارتقاءٌ بتكلف إلى سور المحراب، دون بابه المتعدِّد، وهو بادرة غير متعددة تكشف عن بالغ الخصومة، لذلك ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ - ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ لسنا نحن من خصمائك، وإنما نحن ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾.

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ٤٣ - ابن بابويه بسنده عن أبي الصلت الهروي قال كان الرضا عليه السلام يكلم الناس بلغاتهم وكان والله أفصح الناس وأعلمهم بكل لغة فقلت يوماً : يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إني لأعجب من معرفتك بهذه اللغات على اختلافها فقال: يا بن الصلت أنا حجة الله على خلقه وما كان الله ليتخذ حجة على قوم لا يعرف لغاتهم أما بلغك ما قال أمير المؤمنين عليه السلام : وأوتينا فصل الخطاب فهل فصل الخطاب إلا معرفة اللغات؟

الخصم هنا يطالبونه بالحكم بينهم بالحق ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ثم تقريراً لشاكلة الحكم، وكأنهم هم الحاكمون عليه: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ إفراطاً في البُعد عن الحق ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ من الحق، وفيه فزعٌ لداود على فزع، وهو النبي الملك فكيف يُشطط؟.

وهنا في قصة «الخصمان» و«تسع وتسعون نعجة وواحدة» شَطَطٌ من المختلقات الزور أقحمت في رواياتنا، تُضرب عرض الحائط، وعلى من نسب إليه الزنا بامرأة أورياه الحِتيِّ حدُّ القذف، لا سيما وأن سليمان حسب الخرافة الإنجيلية ولد منها[1]!.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾:

كأن العصمة العلمية الإلهية هنا انقطعت عن داود عليه السلام لفترة الحكم فتنة له، ولكي لا يزهو بشد الملك والحكمة، ويلمس تماماً أن العصمة الإلهية هي - فقط - التي تعصمه عن الأخطاء.

والقضية - كما هي معروضة - تحمل في باديها ظلماً صارخاً مستثيراً، لحد يحمل داود النبي الأواب على الحكم العاجل، دونما نَظِرَة دفاع للمحكوم عليه أو سؤال عنه.

---

(١) إنجيل متى ١ : ٦ «إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا» - راجع «عقائدنا» ص ٤١٩ - ٤٢٦ - تجد تفصيل الحوار بيننا وبين الجمعية الرسولية الأمريكية حول الفرية التوراتية على داود عليه السلام، وفي تفسير البرهان ٤: ٤٥ - ابن بابويه بسند عن صالح بن عقبة عن الصادق عليه السلام في حديث قال فيه: يا علقمة إن رضى الناس لا تملك وألسنتهم لا تضبط وكيف تسلمون مما لم تسلم أنبياء الله ورسله وحججه عليهم السلام ألم ينسبوا يوسف إلى أنه هم بالزنا؟ ألم ينسبوا أيوب إلى أنه ابتلي بذنوبه؟ ألم ينسبوا داود إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة أوريا وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم زوج زوجها؟

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ لمحةً من تسوُّر المحراب، وأخرى من جرأة الخصم: «لا تُشطط» وثالثة بعد حكمه وهدوء البال وسكون الحال انتبه خطأً في حكمه، أو علَّ المحكوم عليه اعترض عليه، لماذا الحكم - فقط - بدعوى المدعي دون سماع إلى المدعى عليه؟.

هنا «ظن» أنه فتنة وبلية إلهية، وتجربة مُرَّة تُلفت نظره إلى ضعفه على قوته وشدة وطأته في ملكه!

«ظن» ما ظنّه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ لربه ﴿وَأَنَابَ﴾ إلى ربه مما أخطأ.

فالظن هنا بمعناه كما في سواه، دون العلم بتأويل، إذ لا مدخل هنا للعلم أنه فتنة إلهية، وإنما ملامحها تدل دلالة راجحة غير قاطعة على أنها فتنة!

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾:

ولماذا «غفر لنا له ذلك» الحكمَ الشطط؟ لأنه كان ابتلاءً إلهياً، وكان العجال في الحكم لظاهر الفخامة في الظلم، فلم يحكم عن شطط، ولا عن جهل، بل عن غفلة ابتلي بها كفتنة إلهية يتكامل بها عباده المخلَصون! «وغفرنا» لذلك ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ كأصل أصيل من حياته الإيمانية.

لذلك تراه يغفر له فور ظنه، ثم يمدحه بما يزيح عنه وصمة خلاف العصمة، ثم يجعله خليفة في الأرض:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾:

أترى يُوسم داود بوسام الشرف هذا، حاكماً مطلقاً بين الناس، لأنه ظلم في حكمه، أم لأنه غُفِر له عن شطط حكمه؟!

وقد يلمح أو يُصرح ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أن خلافته الرسالية كانت بعد فتنته ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ بحكم الشرعة العامة وحكم الأقضية الخاصة، وهنا تزول كل مشكلة تحيك حول عصمة الرسالة، و﴿خَلِيفَةً﴾ هنا كما في غيره لا تعني خلافة عن الله، فإنه إشراك بالله وأضل سبيلاً، حيث الخلافة تقتضي مستخلَفاً عنه متجانساً، الميت أو الساقط عن كيانه، سبحان الله العظيم.

وإنما تعني خلافة الحكم الرسالي عن رسول أم رسل سابقين.

ثم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ﴾ برهان لا مرد له أن الحكم بين الناس بحاجة ماسة إلى جعل إلهي، فلا خلافة الرسول عن رسول، ولا خلافة خلفاء الرسول عن الرسول، ليس شيء منهما إلّا بجعل وانتصاب إلهي.

فخليفة الشورى! هو خليفة الناس دون الرسول، كما الخلافة الحاصلة بالسيف والنار، دون شورى ولا جعل إلهي، هو خلافة السيف والنار. فحقٌّ لثاني الخلفاء ألّا يدري أخليفة هو أم ملك[1]؟.

فلأنك خليفة من قبل الله ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ رغم ما حكمت بغير الحق قبل هذه الخلافة، وهو طبيعة الحال في غير المعصومين، ولا دليل على عصمة غير أولي العزم قبل رسالتهم.

يرى داود هذه التجربة المرة قبل خلافته، ولكي يذكر حاله قبل خلافته.

هنا مواصفات عشر لداود عليه السلام تحتفُّ بخطإٍ واحد، فهلا تفسِّر عشيرة العشرة عشيرتها الواحدة أنها خطيئة صغيرة، بل وأصغر بكثير من خطيئة آدم، وكلتاهما كانتا قبل الرسالة.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٠٦ - . أخرج ابن سعد عن ابن أبي العرجاء قال قال عمر بن الخطاب: والله ما أدري الخليفة أنا أم ملك؟ قال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً قال: ما هو؟ قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق وأنت الحمد لله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا!

ثم وتبتدئ هذه العشر ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ في أسوة التصبُّر، ولولا أنه صبور على فعل الطاعات وترك الخطيئات ومصابراً في البليات، لما صح ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ...﴾[1] وهذه العشر الكاملة هي:

﴿عَبْدَنَا - ذَا ٱلْأَيْدِ - إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ - سَخَّرْنَا... - وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ - وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ - وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ - وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ - وَحُسْنَ مَـَٔابٍ - يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾!

أتُرى بعدُ أن هذه العشر الكاملة كلها لما تحتف به من خطيئة كبيرة هي الزنا بامرأة أورياه الحِقِّي وقتله لكي يخلص منه؟

والقرآن يذكر لداود عليه السلام من غير هذه العشر فضائل أخرى وفواضل:

فقد يهزم جالوت الجبار بضربته القاضية: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ...﴾[2].

كما ويفضله على كافة المرسلين إلَّا أولي العزم منهم، حيث يُفرِد بذكر كتابه بينهم: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[3].

ثم وهنا بعد آيات ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[4]، فهل إن المولود عن زنا وهبة إلهية ونعم العبد إنه أواب؟!

ومما يُحير العقول أنه خاض جماعة من المفسرين مع إسرائيليات مختلَقات مُقحَمات في روايات إسلامية حول هذه الفتنة الداودية خوضاً

(١) سورة ص، الآية: ١٧.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٥٠، ٢٥١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.
(٤) سورة ص، الآية: ٣٠.

كبيراً، تتنزه عنه طبيعة الإنسان العادي غير المؤمن فضلاً عن ذلك الرسول العظيم!.

وحتى الروايات التي حاولت تخفيف الوطأة عن تكلم الأساطير سارت معها شوطاً أو أشواطاً، وسحبت معها أشراطاً، وهي - أساساً - لا تصلح للنظر، فكل واحدة من أوصافه العشر جند صامد يذود عنه هذه الوصمات!

وليس هنا - أولاً وأخيراً - إلَّا حكمه بما حكم حسب الدعوى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وما تيقن الفتنة فما تأكد - إذاً - من الخطيئة ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ لاحتمال أنه خطيئة لربه ﴿وَأَنَابَ﴾ لو أنها بعَّدته عن زلفاه ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ستراً لما ظنه، وعلَّه ستر لأصل الظن دون المظنون إذ لم يكن خطيئة، وقد تلمح له تعقيبه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ فبمجرد ظن الفتنة يزدلف إلى ربه ويؤوب!...

تنبيهات على ضوء هذه الآيات:

١ - إن للمُلك والأيدي زهوة لا تُبقي ولا تذر، فليتحذر عنها كل ذي بصر، وحتى داود النبي، فليستغفر ربه ستراً عن الزهوات الهاجمة إليه:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[1] استغفاراً يدفع عن النوازل، لا أنه يرفع الكائن الحاصل!

٢ - على الحاكم بين الناس أن يتخلى عن كافة الطوارئ، آفاقية وأنفسية، فلا يتأثر بأي مؤثر، فلا يتبع الهوى فتضله عن سبيل الله، لا! وحتى هوى عقله المستنار بإثارة الهدى كما في داود، وليجعل الحق بين عينيه.

---

(١) سورة النصر، الآيات: ١-٣.

٣ - إن حالة الاستغفار تتطلب كل خضوع وخنوع، وحتى للذي ظن فتنة دون علم ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

وهل الركوع هو الركوع؟ والسجود أفضل منه في الخضوع! الركوع المقابل للسجود هو الركوع، ولكنما المطلق منه - كما السجود - يعني مطلق الخضوع، ثم القرائن هي التي تقرر موقفه، وهنا المناسب هو السجود وكما يروى عن الرسول ﷺ أنه سجد في «ص» وقال: «سجدها داود ونسجدها شكراً»[(١)].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾:

لأن خلق الباطل هو خلقٌ باطل وهو خلاف الحكمة، وأن فرض الأعمال يوم الدنيا دونما جزاءٍ، ثم لا حساب بعد الموت، ذلك يشي إلى بطلان خلق الكون، لذلك ينفيه هنا، وأن ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ﴾ بالله واليوم الآخر، حيث الإيمان بالله يقتضي الإيمان باليوم الآخر ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

هنا ﴿بَٰطِلًا ۚ﴾ تضرب إلى ثالوث البطلان: ﴿مَا خَلَقْتَ﴾ حال كوني باطلاً - وخلقي باطلاً - والسماوات والأرض باطلاً، فبطلان الألوهية الحكيمة ينتج خلقاً باطلاً، وكوناً باطلاً، وفي ذلك إبطال الألوهية، فنكران يوم الحساب نكران للألوهية وحتى لو كان معه شريك أو شركاء.

بل هو الحق، وخلقه حق، والكون مخلوق بحق، مما يتطلب خليفة في

(١) الدر المنثور ٥: ٣٠٤ - أخرج النسائي وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس أن النبي ﷺ . . . وفيه أخرج سعيد بن منصور عن الحسن قال: كان رسول الله ﷺ لا يسجد في حتى نزلت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فسجد فيها رسول الله ﷺ.

الأرض يحكم بالحق ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾:

أنجعل خلق السماوات والأرض باطلاً ومن بطلانه ﴿أَمْ نَجْعَلُ. . .﴾ أم نجعل تسوية بين الصالحين والطالحين، فكما المفسدين والفجار ليس لهم في ظن الذين كفروا حساب، كذلك المتقين ليس لهم ثواب، فهؤلاء إذ ينكرون المعاد، هم يسوون بين الفريقين في حساب الله حين لا حساب ولا عقاب ولا ثواب، بل وللفجار فضلهم إذ حظوا بحرية الشهوات يوم الدنيا والمتقون محرومون، و﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[2] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3]. . . فـ«لا ينبغي لأهل الحق أن ينزلوا أنفسهم منزلة أهل الباطل، لأن الله لم يجعل أهل الحق عنده بمنزلة أهل الباطل»[4].

ولكي يظهر الحق ناصحاً ناصعاً وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فهذا:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾:

إنه ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ فيه من كافة البركات التي ترقى بالإنسان من أسفل السافلين إلى أعلى عليين، ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ لا ليقرأوه أو يتبركوا بوجوده، إنما ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أن يجعلوا الآيات دَبْر بعض، تفسيراً لبعضها ببعض، وتفكيراً في بعضها البعض، سرداً رتيباً أديباً رائعاً في لُباب الآيات ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧.
(٢) سورة النجم، الآية: ٢٢.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٧.
(٤) تفسير البرهان ٤: ٤٦ - الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: لا ينبغي. . . لم يعرفوا وجه قول الله في كتابه إذ يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [ص: ٢٨].

. . . والآية القرآنية تُتدبر من زوايا ثلاث ولكي يظهر لُبابها لأولي الألباب.

يتدبر فيها أولاً تعقيباً لها، تحقيقاً عن معناها بكل إمعان وإتقان، ثم يُنظر إلى آياتها العشر معها قبلها وبعدها، حيث التأليف قاصد كما الآية نفسها، ثم نظراً إلى كافة الآيات التي تعني ما تعنيه، لنستمد منها كلها ما تعنيه.

فكلما تدبرت في آية أكثر وأكثر، عقلتها أكثر وأكثر، في مجالات فاسحة واسعة فإنه كتاب مباركٌ لا حدَّ لمغزاه، ولا وقفة لمعناه في مرماه!



﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠) وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤)﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠)﴾:

سليمان النبي الملك هنا وهْبة ربانية لداود: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ ولماذا؟ لـ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كما داود أواب.

فهل تصدق - بعد - الفرية التوراتية والإنجيلية على داود وسليمان، أنه وليد زناً وباني المعابد الوثنية على الأتلال لنسائه المشركات أمّا هي من هرطقات جارفة هراء![1].

---

(١) في الملوك ١١ : ١ - ٨ ونحميا ١٣ : ٢٦ يقول: أخذ سليمان يعاشر ويعاشق النساء =

ففي إنجيل متى: «إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا» (١ : ٦) وفي صموئيل ١١: ٣ - ٢٦، أنه زنى بامرأة أوريا فحبلت منه! وقد مضيا.

كلّا! يا مدنسي الكتاب المقدس، إنه وهْبة إلهية لا من دعارة، وهو نعم العبد إنه أواب.

وإن ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ من المعبود. . . يجعل من العبد قمة مرموقة من العبادة كأنه هو العبادة نفسها رغم أنه ملك!

«سليمان» وهو مذكور في (١٧) موضعاً من القرآن بكل تبجيل وتجليل، هي لغة عبرانية تعني المليء من السلم، فهو - إذاً - عبارة أخرى عن ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ حيث العبودية هي السلم للمعبود، فإذا مُلىء منها العبد فهو ﴿سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾:

﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ هي الخيل الصافنة التي تصفن وتصف قدميها عند السكون بكل استقامة ووقار، جياد شديدة الجري وسريعة إذا جرت وعدت، وهي خيل الجهاد.

مَلِكٌ كسليمان النبي له سيطرته وسطوته، تعرض له صافناته الجياد ليركبها هو وجنوده في مقاتلة الأعداء، فيبتهج منها ابتهاجةً دون زهوة ولا غفلة ولا رعونة، وليست مقالته حينذاك إلّا ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ حب الصافنات الجياد - فقط - للجهاد، فما أحببتها عن شهوة مال أو جمال،

= الغريبات اللاتي منع الله عن عشرتهن فنكح منهن سبعمائة بالعقد الدائم وثلاثمائة منقطعاً فاجتذبن وأملن قلبه عن ربه إلى أنفسهن وهو على كهولته وشيخوخته تنحى نحوهن لحد بنى لكل واحدة منهن مذبحاً للأوثان على الأتلال. . . أقول: وهذه خلاصة عن تفاصيل (راجع عقائدنا ٤٢٧ - ٤٤١) تجد فيه حواراً شاملاً مقارناً بين القرآن والعهدين بشأنه.

ولا عن كبرياء ودلال، ولا عن شهرة ونوال، وإنما ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ حب ناشئ ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾.

فليس سليمان يحب شيئاً من مال وجمال إلا عن ذكر ربه، لا عن دافع شهوته ونزوته، ولا يختص ذكره لربه بصلاته وصيامه وقيامه في عبادة ربه، بل ويذكره فيما هو رمز للغفلة والزهوة، فلا يبطر في نعمته، ولا يعشو عن ذكر ربه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يرجع إلى ربه فيما هو بطبيعته يُنسي ذكر ربه!

وهذه السنة المجيدة في ذكر الله هي سنة الأوابين، الذين حياتهم أوبة إلى ربهم على أية حال وفي كل مجال، فليس ﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ هنا خصوص الصلاة ولا ﴿عَن﴾ تجاوزاً، حتى يحب الخير ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ تجاوزاً عن الصلاة، فكيف - إذاً - يستحق كرامة رد الشمس؟ ولا ﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ تعني الشمس، إذ لم يسبق لها ذكر أبداً، وإنما هي ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ المتوارية في سيرها بالحجاب.

ولا ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ ردٌّ للشمس، فمن هؤلاء الذين يأمرهم بردها له حتى يقضي فائتة الصلاة، أهم أرباب؟ أم عباد أمثاله وهم أقوى منه؟.

ثم وليس للشمس المردودة المختلَقة سوق وأعناق حتى يمسحها ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ ولا أن المسح قطع وذبح للصافنات الجياد كما في مختلف الروايات، وحتى لو أنها أغفلة عن الصلاة فما ذنبها حتى تذبح، بل المذنب آنذاك هو نفسه فليذبح - إذاً - نفسه!

وحين يترك هو صلاته للجياد، ثم يذبحها، ظلماً بعد ظلم! فكيف - إذاً - كرامة رد الشمس؟

وأخيراً فماذا يفيده رد الشمس؟ ألكي يصلي صلاته قبل غروبها؟ وقد غربت! وحتى إذا رجعت فعليه صلاة قبل رجوعها: «صلاة الفجر» وقبل غروبها «صلاة العصر» وقد فاتت الفائتة على أية حال!

وحتى لو طلعت ليوم واحد عدة مرات، فلكل طلعة وغربة صلوات فلا فرق - إذاً - بين ردّها في يومه وبين طلوعها على سنتها لغدها، وردُّها ليومها يرهقه لأداء فرائضه مرة بعد أخرى، فليقض ما فاتته من فريضة ليومه أو غده!

أم إذا كان ﴿مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ تحبباً إلى الصافنات الجياد، فهو - إذاً - أواب إلى التي أغفلته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب! فلماذا تُستجاب دعوته لرد الشمس وقد زاد غفلة - على غفلته - معمَّدة!

كلاَّ يا مختلقي الأكاذيب المعارضة للذكر الحكيم، أنه تغافَلَ عن الصلاة ثم رُدّت له الشمس، مهما كان رد الشمس عُلقة وذريعة لمن يعتقدونها في الإمام علي عليه السلام خرافة جازفة تمس من كرامة العدالة فضلاً عن العصمة!

لقد كرر سليمان ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ شكراً لربه طيلة عرض الصافنات الجياد ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ ثم قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ ليكرر مقالته الشاكرة ويتلطف بالخير الناشيءِ عن ذكر ربه «فطفق مسحاً بالسوق والأعناق». !

ولو كانت المتوارية بالحجاب الشمس المُقحمة في هذا البين، لاستلزم ذلك أنه أخذ يكرر مقالته تلك ولم يصل حتى غابت الشمس، وهو تناقض بيِّن حيث يجمع بين غفلته عن صلاة طيلة المدّة، وذكره أني غفلت عن ذكر ربي![1].

---

(١) تفسير البرهان ٤: ٤٧ عن ابن بابويه في الفقيه بإسناده قال زرارة والفضل قلنا لأبي جعفر عليه السلام: أرأيت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]؟ قال: يعني كتاباً مفروضاً وليس يعني وقت فوتها إن جاز ذلك الوقت ثم صلاها لم تكن صلاة ولو كان كذلك لهلك سليمان بن داود عليه السلام حين صلاها لغير وقتها ولكن متى ذكرها صلاها.

=

وبعد كل ذلك ففي رد الشمس من الناحية الكونية قفزة إلى الوراء، تخلفاً عن سنتها في دائب سيرها، وفي ذلك كورها وتمام دورها قبل قيامتها!

إن كل واحدة منها من «عبدنا» إلى ﴿خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ برهان قاطع لا مرد له على براءة ساحته القدسية قبل رسالته مما افتري عليه، فضلاً عما بعد ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ...﴾[1].!

والمفترون هنا يجعلون من النعاج والنعجة امرأة، ومن امرأةٍ زوجة أورياه، إقحامات واتهامات رديئة دنيئة لا تُنسب إلى الأوباش الأغباش، فضلاً عن خليفة الله في الأرض!

«عبدنا» في صيغة الجمع تصوغه كأفضل عبد يجمع في عبوديته بجامع العبادة. وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «كان أعبد البشر»[2].

فـ «نا» وهي ترمز لجمعية الصفات، تجعل داود عبداً لله من كافة الجهات، دون من يعبد الله على حرف...! ويا ترى كيف يليق بـ «عبدنا»

= وفيه عن الطبرسي قال قال ابن عباس: سألت علياً عليه السلام عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها يا بن عباس! قلت بل سمعت كعباً يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة فقال: ردوها علي يعني الأفراس وكانت أربعة عشر فرساً فضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً لأنه ظلم الخيل بقتلها فقال علي عليه السلام: كذب كعب ولكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس ردوها علي فردت فصلى العصر في وقتها وإن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم لأنهم معصومون مطهرون.

وفي الدر المنثور ٥: ٣٠٩ - أخرج الطبراني في الأوسط والإسماعيلي في معجمه وابن مردويه بسند حسن عن ابن أبي كعب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] قال: قطع سوقها وأعناقها بالسيف!

أقول: وهي وأمثالها من أحاديث مخالفة للكتاب فلا تصدّق على المعصومين عليهم السلام.

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٩٧ - أخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء قال كان النبي ﷺ: إذا ذكر داود عليه السلام وحدث عنه قال: كان أعبد البشر صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

أن يرتكب جريمتي القتل والفحشاء، أم كيف يليق بربنا أن يجعله قدوة الصبر لمحمد وهو أوَّل العابدين، أقدوة لا يصبر على شهوة الجنس، فيقضي على روح مسلم ومنكوحه لقضاء السعار الحيواني من شهوة الجنس؟!

ثم ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ هل تعني أيدي الجنس المتخلف لكي يرتكب تلك الجريمة النكراء؟ وهي أيدي الرحمة الفائضة الغزيرة التي جعلته حقاً «عبدنا»!

و﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كثير الرجوع إلى الله، كيف يناسب أوبته هكذا إلى سعار الجنس، رغم توبته؟

وهل ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ...﴾ لتساعده على استلاب النواميس والأعراض؟

أو ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ لكي يملك قتل كبير من قواد جنده «أورياه» ليملك زوجته بكل حرية ودناءة؟!

أم ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ ليأتي بخلاف الحكمة وخلاف العدالة والخلق الإنسانية؟!

أم ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ ليخاطب جنده أن يجعلوا أورياه في مقدمة المقاتلين لكي يُقتل؟!

أم ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ بهذه التأكيدات الأربعة، ليرتكب أنحس الكبائر بحق رجل مسلم مجاهد؟!

أم ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ إذ آب إلى ما آب، وخاب ما خاب، بما افتري عليه من فتك وقتل وفاحشة؟![1].

---

(١) في صموئيل ١١: ٢ - ٢٦: «وكان وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بنت بشتبع اليعام امرأة أوريا الحثي؟. =

ثم وفي هذه البادرة الهامة مطلع للعائشين نصف الكرة لردها، حيث يبصرونها راجعة بعد غروبها، ومطلّع الآخرين، لمكان التأخر في أوقاتها، وفي ذلك إجماع قاصد ملموس لسكنة الأرض كلهم، فكيف يختص نقلة بأشخاص خصوص؟

ومن الناحية الأدبية كيف يكون «نعم العبد إنه أواب. إذ عرض عليه... فقال إني أجبت» فهل إن التغافل عن ذكر الرب في معرض الصافنات يجعله ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ فحين لا يتغافل هو - إذاً - بئس العبد؟!

ولأنه ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ في تأخير الصلاة فلترجع الشمس حتى يقضيها؟

وكيف يقدم عشياً عرض الصافنات وهو وقت الصلاة؟ غفلة عامدة ما لها من عاذرة؟

هراءات خارفة، ومختلقات جارفة أقحمت في أحاديث الإسلام، ونحن بعرضها على القرآن نضربها على الحائط!

ثم ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ قد تكون بياناً لمدى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾ أنه كررها ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ لا أن حب الخير محدد بـ ﴿تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ حيث التواري ليس ليواري عنه حب الخير عن ذكر ربه.

= فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى.
فأرسل داود إلى يوآب يقول: أرسل إلي أوريا الحثي... فأتى أوريا إليه... فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم، وغداً أطلقك... ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وفي الصباح كتب داود إلى يوآب: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت... فقتل أوريا كذلك... فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات رجلها....... ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود إليها وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً.
أقول وفي إنجيل متى ١: ٦ «إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا»!

وعلَّ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ قاصد إلى استمرارية ذكره، ولكي يتلطف بالصافنات الجياد بمعشر الجنود، وليعلموا أن سليمان يحب الجياد - فقط - للجهاد.

وقد يعني ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ تواري الصافنات بحجاب الشمس مع حجاب البُعد عن سليمان، فأزال أحد الحجابين بـ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ وأزال الآخر أدبياً بـ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾!

ولو كان ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ طلباً لرد الشمس، فهي كلمة عارية عن كل أساليب الأدب عقيب ترك كل أدب للرب حيث ترك الصلاة، وكأنه متآمر على ربه، ويعتبره جماعةُ من جنوده، ﴿رُدُّوهَا﴾ أم يأمر جنود ربه، واللائق بهذه الحالة الضراعة البالغة والبكاء، والمبالغة في إظهار التوبة، وأما أن يقول متهوراً مستهتراً متغاضياً عن عظمة الرب ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فلا يقولها أدنى الناس!

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ تأشيرة لامعة أن عرض الصافنات لم تكن فتنة له وابتلاء، وإلّا فلماذا هنا ﴿فَتَنَّا﴾ وهناك ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾؟

وترى ما هو الجسد الملقى على كرسيه وممَّ أناب؟

هل هو جسد سليمان نفسه حين مرض لحد كأنه جسد لا روح له؟ وصحيح التعبير عن المرض هو المرض، دون الجسد الصريح في ميت! ثم ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ دون ضمير يرجع إليه، و﴿جَسَدًا﴾ منكراً دون جسده، ثلاثة دالة على أنه غير سليمان نفسه!

أم إنه الشيطان الملقى على كرسيه يحكم بديله أياماً[1]؟ فكذلك الأمر،

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣١٣ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: الجسد الشيطان الذي كان دفع سليمان إليه خاتمه فقذفه في البحر وكان ملك سليمان في خاتمه وكان اسم الجني صخراً، وأخرج ابن جرير عن السدي أن الشيطان حين جلس على كرسيه أربعين يوماً... أقول وإنها خرافة نكراء هراء!

ولأنه حيٌّ غير مريض، وإلقاء الشيطان على كرسي الحكم الرسالي إلغاء للحكم الرسالي!

أو أنه جسد صبي له كان «استرضعه المزن خوفاً من بأس الشياطين، فألقاه الله على كرسيه جسداً تنبيهاً على أن الحذر لا ينفع من القدر»[1]؟ ولو أن للشياطين مقدرة على قتله لقتلوا مسترضع المزن والسحاب! وكيف يخافهم ولا مُميت - كما لا محيي - إلَّا الله!

أو أنه ولدٌ له من واحدة من السبعين امرأة جاءت بشِق ولد، رغم ما هواه أن يؤتى بسبعين ولد يضربون بالسيف في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله[2]؟ وقد يجوز ولكي لا يقول لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله!

ومهما يكن من شيء فليس الجسد الملقى على كرسيه من شأنه حتى يكون شائناً فيه فيستغفر وينيب، فإنما له صلة بشأن منه، فتنة له في غير محظور ولا مشكور.

فالابتلاءات مختلفة حسب مختلف المبتلَين، فكما أن منها جزاء بما عمل من سوء تنبيهاً وتخفيفاً عن جزاء، كذلك منه ما يبتلى بها عباد الله الصالحون ولكي يزدادوا من ربهم زلفى، فإن أفضل الأعمال أحمزها، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾[3] كذلك

---

(١) الطبرسي روي أن الجن والشياطين لما ولد لسليمان ابن قال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من البلاء فأشفق عليه السلام منهم فاسترضعه المزن وهو السحاب فلم يشعر إلا وقد وضع على كرسيه ميتاً تنبيهاً على أن الحذر لا ينفع من القدر وإنما عوقب على خوفه من الشياطين وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٦: ٢٠٨ - روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره فو الذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهد كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾... وأخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

يبتلي سليمان بفتنة، فيسأله تعالى بعد نجاحه ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ... ﴾ فيؤتاه سؤله ﴿فَسَخَّرْنَا... ﴾.

أتراه لأنه عصى ربه يطلب منه ذلك المُلك القمة، بديلَ التوبة؟ وكما قالوه في عرض الصافنات الجياد؟!

﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ حين ترك إن شاء الله، وحين ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ فما فزع من ذلك الجسد الذي عكس هواه في سبيل الله، فلما نجح ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ من تركِ المشكور هنا: إن شاء الله، ومن أن يعترضه أي محظور، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ إلى ربه في استيهاب الملك القمة.

ولماذا الاستغفار من ترك المشكور - إن صح الحديث إن ترك إن شاء الله -؟ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين!.

وقد يلمح استيهابه ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده أن الجسد الملقى على كرسيه كان من يرجو سليمان أن يرثه ملكه، فلما ابتلي بموته استبدل به ما هو خير:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾:

أتراه يبخل في ذلك الاستيهاب الاستيعاب، فيتطلب ملكاً لا ينبغي حتى لخاتم الأنبياء روحياً، ومن ثم لخاتم الأوصياء زمنياً وروحياً وهو يصفهما على البدل كأفضل محبوب كما في النص العبراني التالي:

«حِكو مَمْتَقِّيم وِكُولُو مَحَمَّدِيمْ زِهْ دُودِي وِزِهْ رِعِي بِنُتْ يِرُشالامْ» (نشيد الإنشاد: ٥: ١٦).

«فمه حلو وكلُّه محمد هذا محبوبي وهذا ناصري يا بنات أروشليم».

وذلك بعدما يصف محبوبه بأوصاف فائقة في آيات سابقة، فكيف له أن يفضِّل مُلكه على محبوبه الوحيد؟ كما وأن أباه داود يصف القائم

المهدي عليه السلام بعدة مواصفات في تصريحات تحيد عمن سواه![1].

قد لا يعني أثَرَه له على من يأتي بعده طول الزمن وحتى في آخر الزمن، بل ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لصقاً أم طوال الرسالة الإسرائيلية وقد حصل، فإن ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ يعم البَعد القريب والبَعد الغريب، ونحن نبعِّد البعيد ذوداً للبخل عن ساحة سليمان، وتأشيراً منه وأبيه في المُلك العالمي الأخير للقائم المهدي عليه السلام.

أم يعني ملكاً لا ينبغي لأحد من الملوك بعدي «مأخوذاً بالغلبة والجور واختيار الناس»[2] وقد حصل فعلاً على ذلك المُلك، فما ملك أحد بعده ولن يملك زمنياً كما ملك، وأما روحياً فالمسيح ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل منه، وأما زمنياً وروحياً معاً؟ فالقائم من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكمل منه.

أم يعني ﴿مُلۡكٗا﴾ في طول مكوثه[3] بين صالحي الملوك وكما هو واقع، فلم يأت حتى الآن ملك يملك طول ملكه.

---

(١) راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

(٢) تفسير البرهان ٤ : ٤٨ - ابن بابويه بسند عن علي بن يقطين قال قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : أيجوز أن يكون نبي الله عز وجل بخيلاً؟ فقال: لا فقلت له قول سليمان عليه السلام : ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [ص: ٣٥] ما وجهه ومعناه؟ فقال: الملك ملكان، ملك مأخوذ بالغلبة والجور واختيار الناس وملك مأخوذ من قبل الله تبارك وتعالى كملك إبراهيم وملك جالوت وذي القرنين فقال سليمان: هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي أن يقول إنه مأخوذ بالغلبة والجور واختيار الناس فسخر الله له . . . فعلم الناس في وقته وبعده أن ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس والمالكين بالغلبة والجور قال فقلت له قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : رحم الله أخي سليمان ما كان أبخله، فقال عليه السلام : لقوله وجهان: أحدهما ما كان أبخله بعرضه وسوء القول فيه، والوجه الآخر يقول: ما كان أبخله إن أراد ما يذهب إليه الجهال ثم قال: قد والله أوتينا ما أوتي سليمان ولما لم يؤت سليمان وما لم يؤت أحد من العالمين قال الله في قصة سليمان: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وقال عز وجل في قصة محمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾.

(٣) الدر المنثور ٥ : ٣١٣ - أخرج الحاكم في المستدرك عن عمر بن علي بن حسين قال مشيت مع عمي وأخي جعفر فقلت: زعموا أن سليمان عليه السلام سأل ربه أن يهبه ملكاً قال حدثني أبي عن أبيه عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لن يعمر ملك في أمة نبي مضى قبله ما بلغ بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم من العمر في أمته، أقول قد يعني قبله قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلَّ مثلث المعنى هو المعني إذ يصلح كلٌّ معنى صالحاً لذلك الاستيهاب القمة، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه، والجمع بين الوجوه الحسنة هو أحسن الوجوه!

وقد يخرج المسيح ومحمد ﷺ والمهدي من آل محمد ﷺ عن ﴿لِأَحَدٍ﴾ حيث يعني - فقط - الملوك بعده، وهؤلاء لم يكونوا ملوكاً مهما يكون لثالثهم سلطة فوق كافة السلطات الروحية والزمنية.

فالقائم المهدي عليه السلام يعيش عيشة الفقراء فلا يقال عنه: أحد من الملوك، وسليمان النبي عاش كأفضل عيشة الملوك مهما لم تملكه زهوة الملوك!

فـ ﴿مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ﴾ يعم الملوك من غير النبيين حيث لا ينبغي لهم مُلك النبوة مهما كانوا عدولاً، والنبيين غير الملوك إذ لم يعطَوا مُلكاً إلى نبوة، والإمام المهدي الذي أوتي أقوى قوة روحية وزمنية ليس في عداد الملوك ولا النبيين، فلا ينبغي أن يقال له: مَلِك، لأنه فوق الملوك، وأن عيشته عيشة أفقر الفقراء.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾:

طرف من ملكه الذي لا ينبغي لأحد أن سُخِّرت له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب، فهو إذاً راكب الريح يسوقها كما يسوق ركاب الطائرات[1].

إنها ريح ﴿عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[2] وهي ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[3].

أترى لا تُنافي ﴿رُخَآءً﴾ هنا «عاصفةً» هناك؟ كلَّا! فإن رخاءً حال جريانها

---

(١) راجع سورة سبأ من الفرقان تجد تفسيراً مفصلاً لآية الريح.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨١.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٢.

بأمره ألّا تستصعب مطاوعة أمره، ثم وقد يتجمع العصف والرخاء، أنها تجري سريعة تعصف، ولكنها عصفة الرخاء كأن لا حراك لها، رغم أن الاضطراب وشديد الحراك من خلفيات السرعة.

فالريح العاصفة الرخاء كانت له مركبة فضائية لا تشعره بحراك رغم سرعتها الهائلة! ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ كما سخر الله ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ سليمان من هدف يرميه، وأي مكان يعنيه، اللّهم إلّا أن يشارك عاصفة لمولاه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام فيدور بساطه كما دار[1].

وهذه الريح هي من أسباب السماوات والأرض، التي لا تسخَّر بالعلم، إلّا بما يسخر الله لمن يشاء ويرضى، وسوف تسخر هي مع سائر الأسباب - إلّا التي تخص ربنا - تسخَّر لصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

«و» سخرنا له «الشياطين» يعملون له ما يشاء ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ منهم في البر و«كل» «غواص» في البحر سيطرة شاملة على البر والبحر!: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[2] وقرنهم في الأصفاد هو من ذوق عذاب السعير.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ مُلكاً لك يا سليمان ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: لأحد له عطاء،

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ٥٠ وروي أن سليمان عليه السلام كان يجلس على بساطه ويسير في الهواء فمر ذات يوم وهو سائر في أرض كربلاء فأدارت الريح بساطه ثلاث دورات حتى خافوا السقوط مكنت الريح ونزل البساط إلى أرض كربلاء فقال سليمان للريح: لم سكنت؟ فقالت: إن هنا يقتل الحسين عليه السلام فقال: ومن يكون الحسين؟ فقالت: هو سبط محمد المختار وعلي الكرار فقال: ومن قاتله؟ فقالت: يقتله لعين أهل السماوات والأرض يزيد لعنه الله فرفع سليمان يديه ولعنه ودعى عليه وأمن على دعائه الإنس والجن فهبت وسارت.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٢.

ولا حساب عليه أجراً ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾ صرفاً وعطاءً لمن تشاء وكما تشاء ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ - ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

أتراه عطاءً فوضى في منٍّ أو إمساك بغير حساب؟ كلّا حيث المُعطى له حساب دون فوضى:

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾:

فزلفاه عند ربه تمنعه عن فوضى العطاء والإمساك، وحسن مآبه يدفعه ليكون العطاء والإمساك آئبين إلى الله، فما سليمان - إذاً - إلا أداةٌ لمرضاة الله في ذلك العطاء بغير حساب.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾﴾:

أترى أن الله يسلط الشيطان على عبده ورسوله أيوب أن يمسه بنصب وعذاب، و﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾(١) وهو ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾؟.

هنالك سلطة ممنوعة للشيطان على المخلَصين هي على عقولهم وأرواحهم وأعمالهم، لكيلا تبطل حجج الله على عباده، وهنا سلطة ممنوحة على أبدانهم وأموالهم هي من الابتلاءات الربانية الشاملة لعباد الله الأمثل منهم فالأمثل.

والسلطة الشيطانية على أيوب في ردح من زمن المحنة لم تكن إلّا على الناحية المادية، وقد بلورت فيها السماحة الروحية ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

فيا لهذا العذاب الجسداني من عذوبة روحية حين يصبر العبد عليه

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

دونما شكوى ولا نكوى، وكما نراه في سائر الصالحين طول الزمن الرسالي من مختلف النُّصب التي تُنصب لهم، والعذاب الذي يقصدهم في سبيل الدعوة، أم في طريق التكملة الرسالية لتكمل الدعوة، وهذه الثانية تمثلت لأيوب ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾(١).

نصان في سائر القرآن يتحدثان عن بلوى أيوب وصبره عليها، باختصار في الأنبياء، وفصلاً هنا.

ذلك النبي العظيم الذي طمع الشيطان في تضليله بنصبه وعذابه، أن يصدّه عن عبادة ربه أم ينقصه، ولم يصده ربه امتحاناً لعبده، فعمل في ذلك واعتمل ولم يرجع عنه على طول المدة وطائل النصب والعذاب إلّا خاسئاً وهو حسير!

أجل، وليكن أيوب قبساً وهّاجاً في الإيمان، ومثلاً عالياً وحيداً في الصبر واليقين، حيث ينكص الشيطان على أعقابه ويجمع شياطينه المردة، ويوحي لهم أن الله ليس ليصدهم عن أية أذى يريدونها بأيوب، فقالوا: نجرِّده عن أهله وماله وصحة حاله ليعود مجرداً عن إيمانه حيث تشغله بليتُه بالَه هنا يريد الله بذلك السماح إمتحان عبده، ويريد الشيطان امتهانه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

ولقد سُلّط الشيطان على قصوره فجعلها قبوراً، وعلَّ على ولده أيضاً فبدَّلهم ميتاً، وعلى مواشيه وأمواله، وعلى بدنه، فقلبه في حظوظه المادية ظهر بطن لا يبقي له شيئاً ولا يذر إلّا أطاح به ودمَّر.

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣، ٨٤.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

يريد الشيطان ليضطر عبد الله أيوب إلى اختراق ثوب الاصطبار إذا تهدمت عليه أركان حياته، في ماله وأولاده ودُوره وحاله، ويريد الله ليجعل من أيوب عبداً صبوراً أوَّاباً شكوراً، تصبح قصته ذكرى للعابدين وعبرة للمصابين، وعزاءً للمكروبين، وسلوى للمرضى والزمنى والمجروحين.

مرت الأيام، وتحدرت الأعوام وأيوب لا يزال على شكاته حتى هزل جسمه وذهب لحمه، وأصبح منقوف الوجه شاحب اللون، لا يقر على فراشه من الآلام.

فرّ عنه الصديق، وجانبه الرفيق، ورغبت عنه شيعته ومَن حوله إلّا زوجه الرؤوف العطوف الحنون حيث تحننت عليه ما وسع قلبها الحنان، وعنيت به ما استطاعت إليه سبيلاً، ورَفّت عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها، وما شكت إلّا هموماً تُساورها من آلامه، ومخاوف تتحذرها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة.

لهذا أعيى أمر أيوب عبدُ الله إبليس عدو الله، ولم يجد إليه سبيلاً إلّا من قبل زوجه، فانطلق إليها وهي في بعض شأنها مع أيوب، فتمثل لها رجلاً وقال: أين زوجك؟ قالت: هوذا عميداً وقيذاً، يتضور من الحمى، ويتقلب مما ألح عليه من الداء، فلا هو حي ولا هو ميت.

هنا طمع اللعين في إغوائها فأخذ يذكرها بما كان لزوجها في صدر شبابه وغضاضة إهابه من صحة وعافية ونعمة صافية، فأعادت لها الذكرى الأشجان، وأثارت لديها كوامن الأحزان، ثم أخذ يدركها الضجر وينساب إلى قلبها اليأس فذهبت إلى أيوب قائلة:

حتى متى تعذَّب، أين المال؟ أين الجمال، أين الحال والعيال، أين شبابك الذاهب، أين عزك القديم؟! فأجابها قائلاً: أراك قد سوَّل لك الشيطان أمراً، أتراك تبكين على عزٍّ فائت، وولد مائت؟

فقالت: هلا دعوت الله أن يكشف عنك حزنك ويزيح بلواك؟

قال: كم مكثت في الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: وكم في البلاء؟ قالت سبعاً.

قال: أستحي من ربي أن أطلب إليه كشف بلائي، ولمَّا قضيت فيه مدة رخائي، ولكن يخيل لي أنه قد بدأ يضعف إيمانك، ويضيق بقضاء الله قلبك، ولئن برئت وأتتني القوة لأضربنك مائة سوط، وحرام عليَّ أن آكل من يديك بعد اليوم طعاماً أو أشرب شراباً، أو أكلفك أمراً، فاغربي عني حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً!

أصبح أيوب - الآن - وحيداً فريداً وقد اشتدت آلامه، وتضاعفت أسقامه، ففزع إلى ربه داعياً متحنناً، لا شاكياً متبرماً فـ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1] وذلك في آخر الامتحان، وكما تدل الآية التالية ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ...﴾ استجابة دون فصل!

يشكو ربه الرحيم من الشيطان الرجيم دون أن يصارحه في كشف ضره، وإنما عرضاً لحاله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ...﴾ وقرناً لرحمته تعالى إلى حاله ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فإن رأيت فارحم عبدك، وإلّا فأنا من الصابرين، فاستجاب له ربه فور عرضه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ...﴾.

أجل! ولحد الآن يصمد أيوب لوسوسة الشيطان، فيرتقي إلى ذروة الإيمان ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ - وليس الركض حسب العادة إلّا برجل - فذلك لمحة إلى مدى مرضه لحد لم يك يمشي برجل، ولكنه الآن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ عدواً قفزة أولى إلى الصحة، ثم

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

وثانية إلى العافية: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فلم يكن يسطع قبل لاغتسال ولا شرب شراب.

فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحه ظهر بطن، وبرئت جروحه، وكأن بارد الماء كان مرحماً ملحماً، رغم أنه يضر بالجروح في عادية الأحوال!.

ولقد كانت زوجته رق قلبها وحدبت عليه ولم تطاوعها نفسها الكريمة الحنونة أن تتركه وشأنه، وقد لزمته منذ أوّل بلائه على طول المدة وطائل المحنة، فرجعت إليه كعادتها تعاود إصلاح شأنه فترى عجباً حين ترى شاباً مكتمل الشباب، غض الإهاب، مكتنز اللحم، وافر المُنة والقوة، فحمدت الله على ما ردت إليه من عافية.

فهل إن أيوب يتركها ويستبدل بها غيرها، بعد أن يضربها مائة سوط كما عهد من ذي قبل؟ ما هكذا الظن به ولا المعروف من فضله، أن يتناسى حنانها الدائب، وحضورها الواصب.

وحين لا يتركها فماذا يفعل بعهده عليها وهو بلاء على بلاء وعناءٌ على عناء، إذاً يأتي الوحي الحبيب من الحبيب:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾:

خذ حزمة من القش والريحان تشتمل على مائة باقة واضرب بمجموعها زوجك مرة واحدة، حفيفاً رقيقاً رفيقاً، رخصة لك في يمينك، ورحمة بهذه المخلصة الصالحة التي احتملتك في مرضك، وشاركتك في آلامك!.

ولئن سئلنا كيف يبتلى أيوب بمثل هذه البلية التي تنفِّر عنه الطباع، أبذنب؟ والأنبياء لا يذنبون، أم بغير ذنب فأسوأ وأنكى، ومن لزامات الرسالات بقاء الرسل في حالة جذابة غير منفرة، والروايات تقول أصبح بدنه كله منتناً مدوَّداً.

فلنضرب بروايات متخلفات ومختلقات - تمس من ساحة نبي الله أيوب وتنتقص من سماحته - نضربها عرض الحائط، كما هو مصير آيات مختلَقات متناقضات في العهد القديم[1]، فقد طغت إسرائيليات في رواياتنا هنا وهناك

(١) ففي حين يصفه حزقيال ١٤: ١٤ و٢٠ بكمال العبودية والايمان وأنه تحمل ألوان الرزايا صابراً محتسباً - و: ليس كمثله أحد في كمال الاستقامة والتقوى (أيوب ١: ٨ و٢: ٣و٣٨: ١ و٤٠: ١ و٦: ٤٢: ٧).

نجده يصفه بما يناقضه: (قد كرهت نفسي حياتي، أسيِّب شكواي، أتكلم في مرارة نفسي قائلاً لله: لا تستذلني، فهمّني لماذا تخاصمني؟ أحَسَنٌ عندك أن تَظلم، أن ترذل عمل يديك وتشرف على مشورة الأشرار، ألك عينا بشر أم كنظر الإنسان تنظر...

حتى تبحث عن إثمي وتفتش على خطيئتي، في علمك أني لست مذنباً ولا منقذ من يدك...

إن ارتفع تصطادني كأسد ثم تعود وتتجبر علي، تجدد شهودك تجاهي وتزيد غضبك علي، نوب وجيش ضدي فلماذا أخرجتني من الرحم... (أيوب ١٠: ١ - ٨).

أشكو بمرارة نفسي... قد ذبت لا إلى الأبد أحيا... ما هو الإنسان حتى تعتبره وتضع عليه قلبك وتتعهده كل صباح وكل لحظة تمتحنه، حتى متى لا تلتفت عني ولا ترخيني ريثما أبلع ريقي... لماذا جعلتني عاثوراً لنفسك حتى أكون على نفسي حملاً... (أيوب ٧: ١١ - ٢١).

فاعلموا أن الله قد عوجني ولف عليّ أحبولته، ها إني أصرخ ظلماً فلا أستجاب، ادعوا وليس حكم، وقد حوط طريقي فلا أعبر، وعلى سبيلي جعل ظلاماً، أزال عني كرامتي ونزع تاج رأسي، هدَّمني من كل جهة فذهبت، وقلع مثل شجرة رجائي، وأضرم على غضبه وحبسني كأعداء معاً جاءت عزاته وأعدوا على طريقهم وحلوا حول خيمتي، قد أبعد عني إخوتي، ومعارفي زاغوا عني، أقاربي قد خذلوني، والذين عرفوني نسوني، نزلاء بيتي وأمنائي يحسبونني أجنبياً، صرت في أعينهم غريباً... نكهتي مكروهة عند امرأتي، وقممت عند أبناء أحشائي، الأولاد أيضاً رذلوني، إذا قمت يتكلمون عليّ كرهني كل رجالي والذين أحبهم انقلبوا عليّ عظمي قد لصق بجسمي ولحمي ونجوت بجلد أسناني، ترأفوا ترأفوا أنتم عليّ يا أصحابي، لأن يد الله قد مستني، لماذا تطاردونني كما الله، ولا تشبعون من لحمي، ليت كلماتي الآن تكتب، يا ليتها رسمت في سفر ونقرت إلى الأبد في الصخر بقلم حديد وبرصاص...» (١٩: ٦ - ٢٤).

«... من يعطيني أجده فآتي إلى كرسيه، أحسن الدعوى أمامه، وأملأ فمي حججاً فأعرف الأقوال التي يجيبني وأفهم ما يقوله لي... ها أنا ذا أذهب شرقاً فليس هو هناك وغرباً فلا أشعر به، شمالاً حيث عمله فلا أنظره، يتعطف الجنوب فلا أراه» (٢٤: ٣ - ٨) «حي هو الله الذي نزع حقي والقدير الذي أمرّ نفسي» (٢٧: ٢). =

فشوهت الحقيقة الناصعة التي أتى بها القرآن العظيم، ولا نؤمن إلا بما جاء نصه في الذكر الحكيم.

والقول الفصل في الجواب في أصوب الصواب تجده عند باقر العلوم عليه السلام: إن أيوب عليه السلام ابتلي من غير ذنب، وإن الأنبياء لا يذنبون، لأنهم معصومون مطهرون، لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً، وإن أيوب عليه السلام مع جميع ما ابتلي به لم ينتن له رائحة ولا قبحت له صورة، ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ولا استقذره أحداً رآه، ولا استوحش منه أحد شاهده، ولا تدوّد شيءٌ من جسده، وهكذا يصنع الله عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه، وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بما له عند ربه تعالى من التأييد والفرج، وقد قال النبي صلّى الله عليه وآله: أعظم الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي تهون معه على جميع الناس، لئلا يدعوا معه الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه، وليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين استحقاق واختصاص، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه، ولا فقيراً لفقره، ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنه يُسقم من يشاء، ويشفي من يشاء متى شاء بأي سبب، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء، وشقاوة لمن شاء، وسعادة لمن يشاء، وهو عزّ وجلّ في جميع ذلك عدل في قضائه، وحكيم في أفعاله، «لا يفعل بعباده إلّا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلّا به»[1].

= هذا! ولكن ربه يناقضه في هذه التهم «فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر» (١ : ٨) «إلى الآن هو متمسك بكماله وقد هيجتني عليه لأبتلعه بلا سبب (٢: ٣) فانظر إلى هذه الشطحات المتناقضات في التوراة والروايات المتأثرة بها ثم انظر إلى القرآن الحكيم فاقض ما أنت قاض.

(١) تفسير البرهان ٤ : ٥٣ - ابن بابويه القمي بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام.

ثم في ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ تلميحة أنه ناداه استرحاماً تربوياً كما يراه الرب صالحاً دونما اقتراح عليه أمراً، إلّا ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ هنا ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ في الأنبياء.

و«نُصُب» هي مختلف التعب ﴿وَعَذَابٍ﴾ فوق التعب وقد عبر عنهما في الأنبياء بـ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقد يعم ضرُّه الدعايةَ على رسالته تذرعاً إليها بمرضه وذهاب ماله وولده، وذلك صورة عامة عن السيرة الرسالية لسائر المرسلين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾(١).

وقد يعني النصب سائر أتعابه الظاهرية، ﴿وَعَذَابٍ﴾ هو العذاب الروحي حيث كان الشيطان ينفر خلصاءه القلائل وحتى زوجه الحنون، فيؤذيه ضلالهم أشد مما يؤذيه ضره!

إن الله تعالى عافاه بمغتسل بارد وشراب فور دعائه، لا فحسب، بل:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿أَهْلَهُۥ﴾ تشمله زوجه، وبأحرى من سائر أهله، وقد كانت معه طيلة مصابه، فكيف ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ ثم ماذا تعني ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾؟

هذه الوهبة الربانية تشير إلى انفصالة بينه وبين أهله ضمن مصابه الواصل إلى قمته، فرجعها الله إليه قبل دعائه - كما رجع سائر أهله، ثم أتم وهبتها إليه بعد استجابته، حيث لم يرفضها، وعالج موقفه من يمينه أن يضربها ولا يحنث.

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.

ثم الميِّتون من أهله خلال المحنة أحياهم الله وهم تتمة من أهله، وعلَّ مثلهم معهم عديد كأمثالهم ماتوا من ذي قبل فأحياهم معهم[(١)] ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ زائدة على زحمة حصلت ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أن الله لا ينسى الصابرين يوم الدنيا كما لا ينساهم يوم الدين.

وقد تعني ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أنه أولد له مثلهم من ولده، وزوجة مثل زوجته، اللّهم إلَّا هيه لو أنها ترفض الثانية فإنها على كونها رحمة له ولكنها - حسب العادة - لها زحمة ومشقة! ولكن ﴿مَّعَهُمْ﴾ تلميحة لمعية الأهلية فليكونوا آهلين لعشرتهم، ساهلين في عشيرتهم.

ولأن النص لا يشير إلى إحياء ميت من أهله، ولا أنهم أو بعضهم ماتوا في هذه الفتنة، وأن «وهبنا» بعيدة عن إحياء، فقد تعني الهبة إرجاع أهله إليه كما كانوا قبل الابتلاء، ثم أولد له مثلهم معهم.

ثم وفي أخذ الضغث - أن يضرب به ولا يحنث - دليل أنه كان ما حلف به مسموحاً له غير ممنوع، تأديباً لزوجه في محنته، إلَّا أنها لما رجعت عما صدر منها خفف الله عنها، وليس ذلك حيلة شرعية فإن الله ليس ليحتال لنفسه وهو طرف الحلف، وإنما احتراماً للحلف والحالف والمحلوف له كضابطة ثابتة في كافة الالتزامات، أن يحافظ عليها، مهما يخفف عن وطأتها حينما يخف سببها.

وفي ذلك لمحة إلى مدى التخفيف عن مجازاة المجرمين، حين يخف الإجرام، أم في العقوبة زيادة على الاستحقاق كما في الزانيين اللذين لا يتحملان الحد المقرر لهرم أو ومرض[(٢)].

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ٥٢ محمد بن يعقوب بإسناده عن يحيى بن عمران عن هارون بن خارجة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قلت: أحيا له ولده كيف أعطى مثلهم معهم؟ قال: أحيا له من ولده الذين ماتوا قبل ذلك بآجالهم مثل الذين هلكوا يومئذ.

(٢) الدر المنثور ٥ : ٣١٧ - أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني وابن عساكر عن=

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)﴾

اذكر إبراهيم في مختلف بلواه وصبره الحكيم، وإسحاق في محنته، ويعقوب في يوسفه ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾: الطاقات الروحية في مختلف شؤون الاصطبار والعبودية، و«أولي الأبصار» وبصائر القلوب، حيث كانوا يبصرون نفاذاً إلى الأعماق، وقد تعني ﴿الْأَيْدِي﴾ الأعمال الصالحة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ النظر الصائب الثاقب والفكر السديد.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ فهم - إذاً - من المخلَصين الذين ليس للشيطان إليهم سبيل، كما درسناه هنا في أيوب، أترى ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ دون مقابل وظرف صالح؟ كلّا، وإنما ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ حيث هم أخلصوا أنفسهم فليس ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ إلّا ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ وإنما خالصتهم هي ذكرى الدار، ذكرى خالصة دون شائبة: ذكرى الله في الدار الدنيا، وذكراها أنها دار مجاز وممر، وذكرى الدار

= سعد بن عبادة قال: كان في أبياتنا إنسان ضعيف مجدع فلم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من أهل الدار يعبث بها وكان مسلماً فرفع سعد شأنه إلى رسول الله ﷺ فقال: اضربوه حده فقالوا: يا رسول الله ﷺ إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلناه! قال: فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه واحدة ففعلوا!

أقول: إن صح النقل فلا بد من اثبات شرعي للزنا حتى يحكم الرسول ﷺ بما حكم وهنا روايات أخرى بألفاظ أخرى يجمعها التخفيف عن الضعيف.

الأخرى، إنها هي الحقيقة والمقر، وقد تكون خالصة صفة للأيدي والأبصار، أعمالاً خالصة، وأبصاراً خالصة، تجتمعان في ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾.

فهذه الذكرى ذات العلاقتين بالنشأتين، هي التي جعلتهم يخلصون أنفسهم لله، ولكن بخالصة ليس ليخلصهم لحد العصمة المطلقة، فإنها إخلاص من الله يخالطه هي ذكرى الدار، فليدركهم إخلاصٌ من الله.

فالعصمة الربانية هي في ظرف العصمة البشرية دونما فوضى جزاف، ولا ترجيحاً دون مرجح!

ثم ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ هنا تذكُّر لهم ثم تذكير لغيرهم دون اختصاص بهم، وإلّا لم يصلحوا لإخلاص العصمة الخاصة بالدعوة المعصومة.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم صادق الوعد ﴿وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ وقد نجد لهم نبأً في الأخبار(١).

هؤلاء الرسل هم أقطاب الاصطبار في الله على مختلف درجاتهم، فلتكن ذكراهم تسلية لخاطر النبي الأقدس وتقوية له في سفره الشاق الطويل الطويل، فهم رفاقه القدامى الذين عبّدوا له سبيل السلام والإسلام عليهم السلام.

---

(١) في البحار عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام فيما احتج به على جاثليق النصارى أن قال: إن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص فلم يتخذه أمته رباً - الخبر.

وعن قصص الأنبياء الصدوق عن الدقاق عن الأسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام أسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟ وهل كان من المرسلين؟ فكتب عليه السلام: بعث الله عزّ وجلّ مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وإن ذا الكفل منهم وكان بعد سليمان بن داود وكان يقضي بين الناس كما يقضي داود ولم يغضب إلا لله عزّ وجلّ وكان اسمه (عويديا) وهو الذي ذكره الله جلت عظمته في كتابه حيث قال: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (٥٩) قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ (٦٤)﴾

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر من ذكرى اصطبار المرسلين، أم هذا القرآن ككل ﴿ذِكْرٌ﴾ فمن يتذكر به وهو الذي يتقي الغفلات ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ لا في الأخرى فحسب، بل وفي الأولى كما في جموع المرسلين، وطبعاً إنَّ للطاغين لشر مآب، وإلى حسن مآب للمتقين في دار الثواب:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (٥٠)﴾:

فلأن الأصل هو الجنة فلتكن مفتحة لهم الأبواب إلّا من أغلقها على نفسه بما قدم، ولكن النار ليست مفتحة الأبواب حتى يساق أهلوها إليها، فلهم ما قبل سوقهم مجالات لكيلا تفتح لهم أبوابها، من صالحات يوم الدنيا، وعقوبات يوم البرزخ، وشفاعات قبل سوقهم إلى النار: ﴿وَسِيقَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا...﴾[١] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا...﴾[٢] حيث الواو في جيئة أهل الجنة حالية، وعدمها في جيئة أهل النار دليل فتحها فور وصولهم لا قبلها[٣].

ومع ذلك الذكر المتواصل المديد لا تبقى للغافلين أية حجة يوم يقوم الأشهاد[٤].

في هذه الجولة نرى تقابلاً في المجموع والأجزاء، في الأسماء والسمات وفي الميِّزات.

فهنا ﴿لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهناك ﴿لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ هنا ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[٥] وهناك ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[٦] ويا له من مسرح هو مصرح لكل مآب وكأنه حاضر! ففي جنات عدن:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾:

لهم راحة المتكأ وراحة الفاكهة والشراب، وكذلك لهم متعة الفتيات والحوريات:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٣) راجع سورة الزمر في الفرقان.

(٤) تفسير البرهان ٤ : ٦٢ محمد بن يعقوب بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: يؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي افتتنت في حسنها فتقول: يا رب حسنت خلقي حتى لقيت ما لقيت فيجاء بمريم فيقال أنت أحسن أم هذه قد حسناها فلم تفتتن، ويجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه فيقول: قد حسنت خلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت فيجاء بيوسف فيقال: أنت أحسن أم هذا؟ قد حسناه فلم تفتن في حسنه، ويجاء بصاحب البلاء الذي قد أصابته الفتنة في بلائه فيقول: يا رب قد شددت علي البلاء حتى افتتنت فيؤتى بأيوب فيقال: بليتك أشد أو بليته هذا فقد ابتلي ولم يفتتن!

(٥) سورة ص، الآية: ٥٠.

(٦) سورة ص، الآية: ٥٦.

﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾:

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على أزواجهن، لا تتعداهم إلى سواهم لا في طرْف العيون ولا طرْف القلوب، فهن لهم خالصات خالدات غير مشوبات، وهن ﴿أَتْرَابٌ﴾: لِدات مُنشآت مع بعض، متماثلات الجمال، متوافيات السن مع لِدانهن ومع أزواجهن، و﴿أَتْرَابٌ﴾ كـ«ترائب» هي ضلوع الصدر المتقارنات.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾:

كما لا نفاد زمناً ليوم الحساب فلا حساب في مداه، كذلك لا نفاد ﴿لَرِزْقُنَا﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١)

هذه ضَفَّة الجنة ومن ثم ضفة النار وأين ضفة من ضفة؟:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦﴾:

إن ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وهو أسوؤه، و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ وهو إيقاد النار، إنهما يشهدان أن «الطاغين» هنا هم رؤوس الطغيان، دون الأذناب الأتباع إلَّا من هم كأمثالهم، فآيات الصلي كلها تختصهم دون مَن دونهم: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾(٢).

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾:

﴿هَٰذَا﴾ حميم: شراب ساخن يحمٌّ ﴿وَغَسَّاقٌ﴾: قيح شديد النتن يغسق ويُظلم على آكله، كما غاسق الليل ﴿وَءَاخَرُ﴾ غير هذا ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ في الحمة الحرارة، والنتن ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ فكل شراب النار حميم، وكل طعامه غساق، على ألوانها.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.
(٢) سورة الليل، الآيتان: ١٥، ١٦.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩﴾:

ذلك هو الأصل في صلي النار، ثم و﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ﴾ في صلي النار، كما اقتحموا معكم في الطغيان، دخلوه على بصيرة من باطله، رغم وضوح الحجة وضْح الشمس في رابعة النهار، فدخولهم - إذاً - مع الطغاة اقتحام بمشقة وتعب، لأنه خلاف واضح الحجة وخلاف العقل والفطرة، وذلك طغيان على الحق وتعامي للحجج، فهم إذاً طاغون أتباع، كما هؤلاء طاغون أُصلاء، مهما اختلف طاغ عن طاغ، ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ فالأصلاء يدخلون النار قبلهم ليصلوها قبلهم صِلاء أصيلاً، ثم هم حشاشات على صلائهم!

﴿فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ﴾ وأنتم قائلون لهم: لا مرحباً - فإذا هم بمعاكسة القول:

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠﴾:

أنتم الأصلاء في الطغيان أحق بـ ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ لأنكم ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ حيث أضللتمونا ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾!

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾:

لأن من سنَّ سنة سيئة فعليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيءٌ.

فهذه طلبة عادلة أن للمضلل عذاباً فوق العذاب، ومنه دخولهم قبلهم في النار للصَّلْي الأوّل الأصيل للنار.

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣﴾:

﴿وَقَالُواْ﴾ كل من في النار من الأصلاء والفروع ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾ كنا

نعرفهم يوم الدنيا و﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾، إذ كنا نعد أنفسنا من الأخيار، فمن يخالفنا - طبعاً - كان من الأشرار.

ولماذا - فقط - رجالاً - والنساء المؤمنات أمثالهم؟ لأنهن لا يبرزن حتى يعرفن.

فهؤلاء هم الأخسرون أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] دون سائر الضالين الذين يرون أنفسهم في ضلال.

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ يوم الدنيا خطأً منا؟ ﴿أَمْ﴾ هم معنا في النار ولكن ﴿زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وبينما الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان، يرونهم إذ يتراؤون.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾:

النار عذاب من ناحية، وتخاصم أهل النار عذاب فوق العذاب، وليس في الجنة تخاصم إلّا وئام تام.



(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ يثبت أصالة التوحيد ووساطة الرسالة، ثم ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ هل يعني نبأ التوحيد لأقربيته في المكان والمكانة؟ واحتفافه بذكرى القرآن: هذا ذكر ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ يقرِّب نبأ القرآن كما و﴿إِنَّمَآ

أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ يسمح أنه نبأ الرسالة، وسابق ذكر المعاد يُلحقه بنبإٍ عظيم![1].

قد يعني «النَّبَإِ الْعَظِيم» ذلك المربع العظيم على الأبدال، على مختلف الدرجات في عُظمها، و﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ صادق بالنسبة للكل بين مختلف المكذبين المعرضين.

ولأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، فما أعظم عظيمه، ولكن حماقى الطغيان هم عنه معرضون!

ثم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ يحصر كيانه الرسالي في الإنذار كتكليف عام للرسول بالنسبة للعالمين أجمعين، وكونه بشيراً يختص بمن يتأثر بالإنذار.

إذاً فـ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تخلٍّ له عن علم الغيب إلَّا ما يوحى إليه: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ نجده هنا، وثانية في الصافات: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾[2].

ولأن ﴿ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ هنا أفعل مطلق، فملأه أعلى بصورة مطلقة مكانة أو ومكاناً، وهم أمناء الوحي تكويناً وتشريعاً من الكروبيين.

فقبل أن ينزلوا الوحي من قبل الله على الرسول ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ ولكنه يعلم بما يوحى قدر ما يوحى، أترى ذلك الملأ أعلى حتى من الرسول الذي ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[3]؟ كلَّا! حيث الأعلى مكاناً ليس هو الأعلى مكانة، والرسول وهو ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[4] لا ريب أنه أعلى من كل أعلى إلَّا ربه الأعلى!

---

(١) والروايات القائلة إن أمير المؤمنين هو النبأ العظيم هي من باب الجري والتفسير بالمصداق المختلف فيه إلحاقاً بالمتفق عليه وهو الرسالة كما فصلناه في سورة النبأ.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٨.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

ولأن الرسول ليس ملأً كشخص، فـ ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ غير مفضلين عليه، إلَّا على سائر الملإ، وحتى إذا كان ملأً فهو مستثنى عن مطلق الأعلى.

وترى فيم كانوا يختصمون؟ قد يكون هو الاختصام في خلق الإنسان: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ...﴾ ولكن أين هنا الاختصام إلَّا بين إبليس وربه؟ وليس الرب من الملإ، ولا إبليس من ملإٍ عال فضلاً عن الأعلى.

أو أن اختصامهم مطوي عنه هنا، مذكور في البقرة: أتجعل فيها... ولكنه - أيضاً - ليس اختصاماً بينهم، بل سؤال استفهام عن الله كيف يجعل فيها من يفسد فيها؟.

ثم - وعلى أية حال - كيف يختصم الملأ الأعلى وفيم يختصمون، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؟

هنا الاختصام - وبقرينه الافتعال - ليس ليعني الخصومة، وإنما هو الحوار حول الوحي النازل إليهم وما سوف يتنزل، وتقدُّم الوحي عليهم ثم إلى الرسول، لا يقدِّمهم في مكانة الوحي على الرسول، فما هم إلَّا وسائط الوحي الرسالي للرسول «ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»!.

وقد يعني الاختصام - فيما يعنيه - ما علَّه حصل من ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ كما تلمح له: إذ قال ربك... فحار المحتار منهم لذلك الاختيار وحصل الحوار: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ...﴾.

ولقد فسرنا قصة آدم والملائكة وإبليس في مواضيع عدة، وهنا زيادات في تنبيهات:

١ - ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تبين نفاقه حين كان مع الملائكة فأبرز كفره

حين الأمر بالسجود، ولو كان من الملائكة ما عصى فضلاً عما كفر ومنذ الأول، كلّا! إنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1].

٢ - ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ترى الظرف يتعلق بـ ﴿خَلَقْتُ﴾؟ خلقته بيدي «واستكبرت» عليَّ؟ أم ﴿بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ حيث خلقتك أيضاً بيدي، وأقدرتك بيدي؟

قد يعنيهما ﴿بِيَدَيَّ﴾ وما أحلاه جمعاً جامعاً للتنديدين بهذا اللعين.

وترى ما هما اليدان هنا وفي أمثاله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[2] واليد مفرداً في سواه: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[3]؟

اليد هنا وهناك كناية عن القدرة والنعمة والسماحة، وعلَّهما هنا وفي أضرابهما كناية عن كرامة القدرة القمة، حيث الخلق تختلف حسب الدرجات في القابليات والفاعليات والعطيات: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[4] ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[5].

وعلَّ اليدين هنا يد الخلق لجسم آدم وروحه، حيث الشيطان تناسى اليد الثانية وأكبَّ إلى الأولى ففضَّل نفسه على آدم: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ولو أن إبليس نظر إلى نورية آدم ولم ينظر إلى نارية نفسه لم يكن منه ما كان!

وإنه الحسد ينضج من ذلك الرد الكافر، والتغافل عن العنصر الكريم الزائد على الطين في آدم! «استكبرت» عليَّ أم على آدم، والأول كفر والثاني فسق، وقد جمع بينهما، فاستكبر على الله وعلى آدم ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ على الله؟ ولا إله إلا الله! أم على آدم، وليس العلو إلّا بعلو الروح، وحتى

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.
(٤) سورة التين، الآية: ٤.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

إذا كنت من العالين على آدم فليس لك أن تعلو على الله في أمر آدم، فإنه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾(١).

ويلوح من جوابه كأنه من العالين على آدم: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ. . .﴾ ولكنه استكبار على الله، تحكيماً للقياس الباطل على حكم الله.

وترى هنا «العالين» على آدم وقد خلق في أحسن تقويم؟ أجل، عالين على آدم لا على كل الناس، فأهل بيت الرسالة المحمدية هم العالون على آدم ومَن فوقه من النبيين، ولكنهم لو كانوا يؤمرون أن يسجدوا لله شكراً لما خلق أباهم آدم لما كانوا يتركون!

هنالك صدَر الأمر برجم الشيطان الرجيم: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾(٢) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

وما هو مرجع ضمير المؤنث في ﴿مِنْهَا﴾؟ إنه الجنة التي كان فيها آدم: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(٣) دون الرحمة إذ لم يكن الشيطان في الرحمة ولم يسبق ذكر إلّا للجنة!

هنا اللعين يستنظر ربه إلى يوم الدين، فيستجاب ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾(٤) ولو كان هو - فقط - يوم الدين لكان الجواب - كذلك - هو يوم الدين، وعلّ الوقت المعلوم يعني يوم الدين نهاية، ويوم القائم مهلة واسعة، حيث يضيق عليه بين اليومين لأنه من أيام الله، فلا دولة فيه للشيطان مهما كانت له بعض السلطة!

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٤) فصلناه في سورة البقرة وغيرها فراجع.

وهنالك يتهدد اللعين الرجيم ذرية آدم، تحدداً لمنهجه وطريقه معهم:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

وليس استثناء المخلصين تطوعاً منه وتراحماً، ولكن عجزاً، فإن الله هو الذي أخلصهم: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[1] إذاً فالمخلصون في خطر عظيم وأعظم منهم غيرهم، والمخلصون لا خطر عليهم.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

وترى «منهم» تعني من المجموعة، فالمخلَصون - فقط - هم لا يدخلون الجحيم؟ وهذا خلاف الضرورة والنص أن الجنة هي للمتقين، سواء السابقين وأصحاب اليمين، وكل من رجحت حسناته على سيئآته أمّن هو، أم تعني التابعين، العائشين بحساب الشيطان الرجيم، فـ«من تبعك» لا تعم من تبعه في صغائر، أم وفي كبائر مكفرة بتوبة أم شفاعة!

أم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لا يدل على حتمية العذاب فـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[2].

ولكن الداخلين هنا هم كافة المكلفين من أهل التقوى والطغوى، ثم ينجوا أهل التقوى، والنص هنا ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾.

ثم وملأ الجحيم ممن تبعه منهم يعم الداخلين الخالدين، مؤبدين وغيرهم، كما يعم غير الخالدين، وهؤلاء الثلاثة هم تابعوه، الذين يعيشون على حسابه، دون المتقين على درجاتهم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا...﴾[3].

(١) سورة ص، الآية: ٤٦.
(٢) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.
(٣) سورة مريم، الآية: ٧٢.

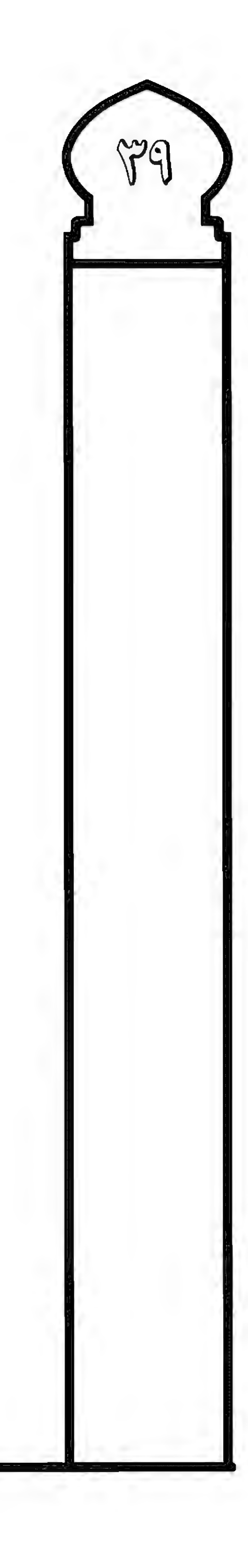
﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

فلا أتصنَّع وأتحلَّى بما ليس لي، ولا أُماري حتى في عدم سؤال الأجر، فمن الدعاة من لا يسأل أجراً على تكلف وتصنُّع، أو يدعي فوق مكانته على تكلف، ولكن ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ كما هو لائح من كل أقوالي وأعمالي، لا نعرف تكلفاً ولا يعرفنا تكلف طول الحياة رسالية وقبلها.

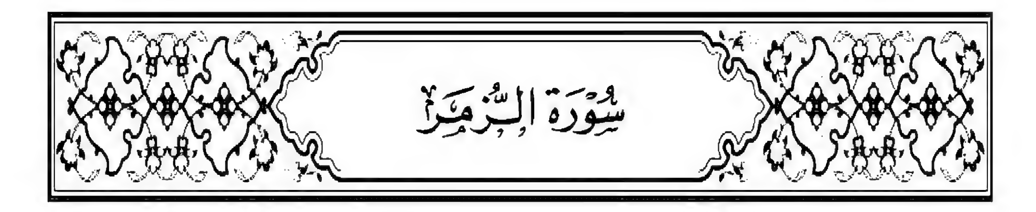
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾:

إنْ القرآن، وإنْ نبي القرآن إلَّا ذكر للعالمين، ولتعلمن نبأ ذلك الذكر بعد حين، إذ تتذكرون هنا بذكراه، أم تعرضون فذكراه حين الموت، ثم ذكرى بأكملها حين الحساب، أحيان ثلاثة، ينفع أولاها، ثم ولات حين مناص، إذ فات يوم خلاص.





سُورَةُ الزُّمَرِ



مكيّة وآياتها خمس وسبعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ
ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ
كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ
خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ
فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ
ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم
مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾

تتسمى هذه السورة بالزمر لأنها تتحدث عن الزمر جملة وتفصيلاً، ففي جملتها سوق الذين كفروا إلى النار زُمَراً وسوق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً، وتفصيلاً حيث تتحدث على طولها عن زمر الجنة وزمر النار.

وكلها تحوي محوى موضوع واحد هو توحيد الله تعالى، طائفة بالقلب في تعاقب جولاتها تطبع فيه حق التوحيد والتوحيد الحق، وتمنع عنه تسرّب كل شرك، حيث تستعرضها في صور شتى.

وتَقارب آياتها في صلاتها يبرزها كأنها نزلت كما أُلِّفت وأُلِّفت كما نزلت، حيث الصلة الأليفة تُبعِّد اختلاف تأليفها عن تنزيلها، وليست بذلك بِدعاً من السُّوَر فكم لها من نظير.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾: إنا أنزلنا.

كما أن إنزال الكتاب من الله العزيز الحكيم كان جملة في إحكام في ليلة القدر دفعة دون تدريج، كذلك تنزيل الكتاب تفصيلاً في تدريج طول البعثة هو من الله العزيز الحكيم ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1] فـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزّل هو المُنزَل مهما اختلفت صورة الجملة عن صورة التفصيل.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبره المؤكد، أو أنه خبرٌ للبسملة، أنها تنزيل الكتاب في تفصيله المجمل فإنها تحوي الكتاب جملةً كما الكتاب كله تحويه تفصيلاً، أم إنه خبر لـ «هذا» أمّاذا من مبتدأ؟ وكلٌّ محتمل والأول أجمل وفاقاً لأدب اللفظ دون حذف، ولأدب المعنى حيث أردف التنزيل بالإنزال.

فعزة الله وحكمته باهرتان في هذا التنزيل كما هما في ذلك الإنزال، ومن تنزيل الكتاب ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾!

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ②﴾:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾ تأكيد مثلث في «إن» وتكريرُ «نا» لجمعية الصفات في مثلث الحق: «أنزلنا بالحق» «إليك بالحق» «الكتاب بالحق» حق أنزل إلى حق إنزالاً بحق، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، ومن لم يجعل الله له من نور فما له من نور!

فالحق سمة الكتاب في أصله ونزوله ومنزِله، أترى كيف بالإمكان تسرُّب الباطل في ذلك الحق؟! إذاً ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

و﴿ٱلدِّينَ﴾ يوم الدنيا هو الطاعة، وهو يوم الأخرى جزاء الطاعة، وهو

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

بروز حقيقة الطاعة ولا جزاء لها إلَّا هي، ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾: الطاعةَ، في عبادة السر والعلانية، في النية والعقيدة المطوية، وفي أعمال الجارحة الظاهرة جهاراً وخُفية، دون شركٍ ولا رئاءِ الناس أمَّن ذا حتى نفسك، متخلياً عمن سوى الله، متحلياً بالله.

فإخلاص الطاعة لغير لله إلحاد في الله، ومشاكسة الطاعة لله ولغير الله إشراك بالله، وإخلاص الطاعة لله توحيد في طاعة الله ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنت يا حامل الرسالة السامية، لتكون نبراساً تنير الدرب على الدينين كيف يدينون الله في طاعته وعبادته! ولتقوم الحياة فرادى وجماعات على هذا الأساس، مراساً في إخلاص وإخلاصاً في ذلك المراس، وليكون متراساً وجاه كل إشراك بالله في أي حقل من الحقول.

ليس الدين الخالص كلمة تقال، فكثيرون يتكلمون بالإخلاص ولا يدينون، إنما هو منهاج حياة في كافة الجنبات يبدأ من تصور فتصديق فاعتقاد، وينتهي إلى نظام عملي في حياة الفرد والجماعات.

(ألا): فانتبهوا - إعلانا عالياً مدوِّياً في إذاعة قرآنية، وتعبيراً جلياً جليلاً مجلجلاً للعالمين أجمع: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ فكما له الألوهية والربوبية الخالصة دون ندٍّ ولا ضد ولا شريك، كذلك له الدين الخالص طاعة وعبادة، فلا يُعبد في ميزان الله - وهو الحق - إلَّا الله، ولا يطاع إلَّا الله، اللّهم إلَّا من يحمل رسالة الله كوسيط في طاعة الله فـ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1].

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾:

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

إنه لا ولي في كافة معاني الولاية الحق إلّا الله، أمّن يلي شرعة الله والدعوة كوسيلة إلى الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعبدونهم من دون الله، لقد هرفوا فخرفوا في أسطورتهم العاذرة في تخيُّلهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١]!

عبادة غير الله يبعِّد العابد عن الله، لأنها تسوية بالله، فكيف تعبِّد طريقاً إلى الله: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؟! فالمعبود الوثن لا يعقل، فلا يقرّب ولا يبعِّد إلّا تبعيداً في فعل العابد، والمعبود الطاغوت طاغٍ على الله فكيف يقرِّب إلى الله زلفى، والمعبود العابد من مَلَك أو نبي أمّن ذا مِن الصالحين هم يتقربون إلى الله بدينه الخالص، ويقرِّبون إليه بالدين الخالص، فكيف يقربون إلى الله زلفى بما ينافر دعوتهم في بُعديها؟ بثالوث العبادة الخاسرة الكاسرة!

ولقد احتج الرسول ﷺ في حجاجه مع قادة الأحزاب، على مشركي العرب قائلاً: «وأنتم فلِمَ عبدتم الأصنام من دون الله؟ فقالوا: نتقرب بذلك إلى الله تعالى، فقال ﷺ: أو هي سامعة مطيعة لربها عابدة له حتى تتقربوا بتعظيمها إلى الله؟ فقالوا: لا - قال ﷺ: فأنتم الذين نحتمُّوها بأيديكم فلإن تعبدكم - هي لو كان يجوز منها العبادة - أحرى من أن تعبدوها إذا لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم وعواقبكم والحكيم فيما يكلِّفكم»[٢].

وفي الحق إن تسوية غير الله بالله في أية منزلة من منازل الربوبية ضلال

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) الاحتجاج للطبرسي عن النبي ﷺ حديث طويل وفيه: ثم أقبل على مشركي العرب. . .

مبين: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[١] وظلم عظيم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢] فكيف تكون - إذاً - حال من يعبد من دون الله ولا يعبد الله، زعم أنه يقرب زلفى إلى الله؟ إنه أظلم وأطغى وأضل سبيلاً! حيث الزلفى هي القربة الزلفى[٣] الراجحة على قربة العبادة دون إشراك! فيا لهم مُراماً ما أبعده أن يعتبروا عبادة غير الله أفضل وأحظى من عبادة الله.

وهكذا خيِّل إلى بعض الصوفية إذ يوجهون خطابهم في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى صورة المرشد القطب، زعماً أنهم لا يليقون لخطاب دون فصل لبُعدهم عن ساحته تعالى وبعده في محتده عنهم، فليَعبدوا مقرباً عند الله ليقربهم بذلك إلى الله! وهم بذلك يزدادون بعداً عن الله، كما ازداد طاغوتهم بعداً على بعد ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[٤]! وهم بهذه الهرطقة الجاهلة القاحلة ينزِّلون الرب عن ساحته، ويمسون من كرامته، مخالفين أمره في عبادته الخالصة، ورافعين درجة من يزعمونهم عباده إلى درجته الخاصة!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ «حكم» بين الموحدين وسواهم، وبين المشركين في مختلف شركهم، وبينهم وشركائهم، والمشركون هم المحكومون في هذه الثلاث لـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ في إشراكه بالله، ﴿كَفَّارٌ﴾ لأنعم الله، لا هدىً في الأولى ولا في الأخرى، فالإشراك بالله محكوم في كافة المحاكم العادلة، لدى الفطرة والعقل والشرعة الإلهية، ولا يملك أية برهنة إلَّا حجة داحضة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٣) الزلفى هي مؤنث أزلف فهي افعل تفضيل في القرب والحظوة.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٠.

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[١]!

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾:

﴿لَّوْ﴾ تنحو نحو الممتنع، حيث اتخاذ الولد له يمتنع، ولماذا يتخذ ولداً؟ ألكي يرثه بعد موته؟ وهو الوارث لخلقه حياً لا يموت! أم ليسانده في سلطانه؟ وهو المساند لكل سلطان، غنياً لا يستند ولا يساند! أم لوحشة عن وحدة؟ ووحشة الوحدة ليست إلَّا لضعيف عن ضده الأقوى، ولا ضد له فضلاً عن الأقوى! أمَّا ذا من أسباب اتخاذ الولد؟ وهي كلها مستأصلة عن ساحة الربوبية: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]؟

كل ذلك في بوتقة الاستحالة حياداً عن فقره تعالى ونقصه، كذلك والتبنِّي تشريفياً فإنه مجاز فيما تجوز حقيقته: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ...﴾[٣] فهم المصطفَون في العبودية دون البنوة التشريفية.

ومع الغض عن هذه الاستحالة ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ هو ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ه ﴿مَا يَشَآءُ﴾ دون نَظِرَة لاصطفاء المشركين ما يختلقونه كما يشاؤون! ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عن أن يتخذ ولداً، أو يصطفي مما يخلق ما يشاء ولداً، أو يصطفيه غيره ما لا يشاء له ولداً، لأنه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ واحد لا يثنى باتخاذ ولدٍ أو

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٢) سورة يونس، الآية: ٦٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

اصطفائه، وقهار لا يحتاج إلى ولد يرثه أو يسانده!... ولكنهم اصطفوا لله ولداً ليسوا ليصطفوه لأنفسهم ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾(1)؟

ولو تخطَّينا هذه الاستحالات فاتخذ الله ولداً، أم وَلَدَ لأبعد تقدير، لم يكن لزامه أن يُشرَك به إلَّا بإذنه دون الأهواء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾:

آية فريدة في تكوير الليل والنهار على بعض، قد تعني معنىً فريداً من الملاحم الغيبية هو كروية الأرض ودَوَرانها.

تكوير الشيء إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، فتكويره على شيءٍ إدارته عليه منضماً إليه، فكلٌّ من الليل والنهار دائر على زميله منضم إليه، فالكرة الأرضية تنقسم دائباً إلى أفقي الليل والنهار، متصلَين ببعض، وكلٌّ رَكْب الآخر دورياً، وكما هو الثابت علمياً والمشاهَد عينياً، فلا وقت من الأوقات ولا آن من الأوان، إلَّا أن نصف الكرة ليل والنصف الآخر المقابل له نهار، فكلٌّ مكوَّر على الآخر، وهما حسب الفصول والأيام في تبادل التناقص والتزايد: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾(2) وهما متلاحقان حثيثاً: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾(3).

فكلما تُدبر الشمس عن أفق يقبل فيه الليل فيَغشى النهار في طلبه

---

(1) سورة الإسراء، الآية: ٤٠.
(2) سورة الحج، الآية: ٦١.
(3) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

الحثيث، وكلما تُقبل يدبر فيه الليل فيَغشَاه النهار! فلولا كروية الأرض لاستحال تكوير كلٍّ من الليل والنهار على الآخر، فإما ليل فقط أم نهار فقط! ولولا دوران الأرض لاستحال إيلاج كل في الآخر، وغشيانه الآخر هو الآخر!.

كَوْر الليل من ناحية وكور النهار من أخرى يقتضيان دورين للكرة الأرضية، فلولا كور السطح نهاراً لم يكوَّر النهار على الليل، ولولا كور السطح المقابل ليلاً لم يكوَّر على النهار، حيث التقابل المسطح ليس كوراً، فإنما هو التقابل النصف دائري لمكان الكورين.

فهذه الآية ترسم أنسق تعبير وأدقه لكور الأرض ودورها حول نفسها وحول شمسها، لا نجده في الصلاحات الجغرافية طول التاريخ الجغرافي!

ثم في الآية ثلاثة مواضع تدلنا على إمكانية ولزوم المعاد الحساب:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

فعلى حق الخلق فيهما يحق المعاد، ولو كان باطلاً لبطل المعاد: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. فلو كانت الحياة هي الدنيا لحقَّ فيها الحساب، وإذ لا حساب هنا على الظلم الوفير فخلق العالم باطل لولا عالم الحساب.

ثم في تكوير كلٍّ من الليل والنهار على بعض تقريب لإمكانية الحياة بعد الموت كما الموت بعد الحياة، وهما لإحياء الإنسان حياة لائقة كما أن الليل والنهار حياة في الأولى سُباتاً وإبصاراً[3].

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٣٩.

(٣) راجع تفسير الآية ٣٩ من الدخان ففيه تفصيل الدليل على البعث على ضوء حق الخلق.

وأخيراً في جري الشمس والقمر لأجل مسمى دليل ثالث على أجل مسمىً.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾:

﴿خَلَقَكُم﴾ نوعَ الإنسان الحالي في طوله التاريخي وعرضه الجغرافي، دون المخاطَبين فقط زمن النزول حيث الخطاب من زمرة القضايا الحقيقية، لا الواقعية الفعلية، فهي كآية النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾[1].

﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ بادئ الخلق آدم أبو البشر، دون ثانيه وما يتلوه فإنه من نفسين اثنتين لا واحدة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ بعدما خلق النفس الواحدة وفيها خلقكم جملة كبداية، جعل منها زوجها وفيه خلقكم تفصيلاً، ثم لا ثالث لتفصيل الخلق كما لا ثاني لجملته، إذاً فمبدأ النسل الإنساني ككل في تفصيله ليس إلَّا نفسين، وأسطورة الحورية والجنية، على تضارب الروايات فيها، لا توافق القرآن هنا ولا سيما آية النساء ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، وهم «الناس» المخاطَبون أجمع، فلو كان هنالك لبثِّ الناس، رجالاً كثيراً ونساءً، مدخل من ثالث ورابع لكذب القول «منهما» والآية في مقام العرض لواقع التناسل أولاً وأخيراً!

و﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هنا ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هناك تعبيران عن خلق الزوج الأول المجعول لنفس واحدة و«منها» جنسية ونشوية، فهما متجانسان، لا في البداية فحسب، بل على طول الخط كما تلمح له «ثم» الدالة على التراخي، وليس خلقكم إلَّا بعد ما جعل منها وخلق زوجها، وهذه دلالة

(١) سورة النساء، الآية: ١.

ثانية ترفض ثالثاً ورابعاً من حورية وجنية وهما ليستا ﴿مِنْهَا﴾ ثم ﴿زَوْجَهَا﴾ ناشئة منها في البداية ولا تنشأ الحورية والجنية من الإنسان على أية حال، كدلالة ثالثة على إبطال هذه الأسطورة، وتفصيل البحث عنه تجده في آية النساء مما يشي ككل بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن الإنساني مبدأً ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وتناسلاً ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ دون تدخُّل لكائن آخر أولاً وأخيراً.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ...﴾ أنزولاً من السماء إلى الأرض؟ وليس الله إله السماء فقط أو ما كن السماء حتى يعني إنزاله لنا رحمةً إنزالاً من السماء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1] ومعلوم أن العِندية هنا ليست مكانية إذ ليس له مكان، وإنما عندية العلم والقدرة والرحمة، فتنزيله ككل، وإنزال ثمانية أزواج، إنزال لرحمة من عنده، نزولاً من عليائه إلى دنيا البشر «فإنزاله ذلك خلقه إياه»[2] كما ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ...﴾[3].

هذا، ولا يعني الإنزال من السماء إلَّا في تصريحة بالسماء ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ...﴾[4] و﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ مفسّرة في آية الأنعام: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا...﴾ ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ...﴾[5] ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ...﴾[6].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤٧٦ عن الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال في الآية: فإنزاله...

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤٤.

فلنا في بطون أمهاتنا خلق بعد خلق في ظلمات ثلاث، فما هما الخلقان وما هي الثلاث؟ «خلقاً بعد خلق» تشير إلى التطور الخِلقي الجنيني منذ النطفة إلى إنشائه خلقاً آخر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾(١).

فـ ﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ هي المني الذي جعل في قرار مكين ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾(٢) فـ «خلقاً بعد خلق» لا تعني اثنين، وإنما تطور الخلق في مراحله السبع هذه(٣).

والظلمات الثلاث هي «ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة»(٤) وهي الكيس الذي يغلف الجنين، وهو يستقر في الرحم المستقر في البطن، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة في مراحلها وظلماتها الثلاث، وعين الله ترعاها، وهل للعلماء مع كشوفهم العلمية المتقدمة وجهودهم المتواصلة واحدة من هذه المراحل في الأضواء، فضلاً عن السبع وفي ظلمات ثلاث.

وإنها رحلة قصيرة الزمن بعيدة الآماد، غريبة الأبعاد في مختلف التطورات لخليّة هزيلة في تلك الظلمات إلى إنسان كامل الأعضاء! وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى ولا استجلاب منفعة ولا

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٤.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٣٧.

(٣) راجع آية العلق في سورتها من تفسير الفرقان ج ٣٠، تجد فيه كيفية انعقاد النطفة وما يليها من الخلق بعد الخلق.

(٤) نور الثقلين ٤: ٤٧٧ في المجمع هو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وفي كتاب التوحيد للمفضل بن عمر المنقول عن أبي عبد الله عليه السلام في الرد على الدهرية قال: سنبتدئ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم.

دفع مضرة فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماءُ النباتَ فلا يزال ذلك غذاوه حتى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقاة الضياء، هاج هذا الطَّلق - بأمه فأزعجه أشد إزعاج - ذا عنفة حتى يولد!

سبحان الخلاق العظيم! -

رب إنك «ابتدعت خلقي من مني يمنى ثم أسكنتني في ظلمات ثلاث بين لحم وجلد ودم، لم تشهر بخلقي ولم تجعل إليَّ شيئاً من أمري ثم أخرجتني إلى الدنيا تاماً سوياً»[١] فـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ أفتعبدون ما لا يضركم ولا ينفعكم ولا يخلق شيئاً؟ «أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار نطفة دهاقاً وعلقة محاقاً وجنينا وراضعاً ووليداً ويافعاً»[٢]!

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾:

رغم هذه النعم السابغة، سابقةً ولاحقةً فـ ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ بالله كفراً أو كفراناً ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[٣] ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾[٤] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ لا تنقصون منه فتيلاً ولا تزيدونه كثيراً ولا قليلاً.

فلا شكركم ينفعه شيئاً ولا كفركم يضره شيئاً ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ

---

(١) من دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة: وابتدعت خلقي. . .
(٢) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.
(٣) سورة هود، الآية: ٥٧.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٩.

ٱلْفُقَرَآءُ﴾[١] وإنما يأمركم بشكره حيث ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ لا له ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ...﴾[٢] يرضى شكره لكم طاعةً وعبادةً لصالحكم أنتم ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٣] و«عباده» هنا كل عباده، لا الشاكرون فقط، إذ ينقلب إلى عكسه في الكافرين، فيرضى لهم الكفر ولا يرضى لهم الشكر! وفيه إعذار للكافر في كفره وتركه لشكره، فإنما المكلف بالشكر هو الشاكر بطبعه لا سواه!

فـ ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ نفي لرضاه الكفر تكويناً وتشريعاً، ولذلك ينهى عنه على أية حال، ولكنه ليس ليحملهم على شكره وألَّا يكفروا تسييراً حيث التكليف يتطلَّب الإختيار.

ثم الرضا والغضب من الله كسائر صفاته، لا تعنيان فيه تعالى تحوُّل الحال، إذ لا يتغير بانغيار المخلوقين شكراً أو كفراً أماذا؟ من غيار، فرضاه هي موافقة المصلحة فالثواب، وغضبه خلافها فالعذاب، وكلٌّ من الثواب والعقاب هو صورة واقعية تبرز يوم القيامة عن الشكر والكفر صورةً طبق الأصل، فـ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤]!

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٥] لا يحمل الشاكر وزر الكافر، ولا يحظو الكافر حظوَ الشاكر مهما تقاربت الأنساب أم تغاربت، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٦] - ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تقضون هذه الأدنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ في ربوبية الحساب والجزاء بعد ربوبية التكليف ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ إليه فقط لا سواه، فإنه

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٨.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٣٩.
(٥) راجع تفصيلها إلى الآية في سورة النجم.
(٦) سورة النجم، الآية: ٣٩.

هو ربكم لا سواه ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بعد تغافل في تساهل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر لـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾:

هذه هي سيرة الإنسان وسريرته، أن فطرته وهي الأصيلة في كيانه، تَبرز عارية في حالة الضر، متكشفة عن غبارها، ساقطة عنها ركامها وأوهامها، حين تنقطع الأسباب وتحار الألباب، حينئذٍ يتناسى الإنسان كل سبب لفشلها، ويذكر ربه مصلحياً فـ ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً عما كان يدعو - في غير ضره - إليه، نوبة بعد أخرى ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ أعطاه نعمة عظيمة بعد أن كشف ضره، وكلٌّ نعمة هناك عظيمة، فكشفُ الضر نعمة، وإعطاءُ نعمة بعده نعمة على نعمة ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من ضرٍّ منيباً إليه و«نسي التوبة إلى الله»[1]: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ...﴾[2].

﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ ليس إلّا ضره وتوبته لا ربَّه، فإنه كان عند ضره يدعوه ولا يدعو إليه، والتعبير الصريح عن الله هنا «نسي ربه» و«ما» لا

---

(١) «ما» بين موصولة وموصوفة ففي الأولى تعني «الضر» وفي الثاني تعني التوبة حال الضر وهما هنا معنيّان، والثاني نص الحديث التالي في نور الثقلين ٤ : ٤٧٨، ح ١٦ في روضة الكافي بإسناده عن عمار الساباطي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ...﴾ [الزُّمَر: ٨] قال: نزلت في أبي الفضيل أنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنده ساحراً فكان إذا مسه الضر يعني السقم دعا ربه منيباً إليه يعني تائباً إليه من قوله في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يقول: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ [الزُّمَر: ٨] يعني العافية ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] يعني نسي التوبة إلى الله عز وجل مما كان يقول في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه ساحر ولذلك قال الله عز وجل : قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار...

(٢) سورة يونس، الآية: ١٢.

تناسب ساحته وهو المعبِّر هنا عن نفسه المقدسة، ثم ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هي الأخرى قرينة على انه ليس ربه وإلّا لاكتفى بضميره «وجعل له...»!

﴿نَسِيَ ... وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ كما كان قبل ضره، والند هو المشارك في جوهر الذات فهو أعم من المثل المشارك في الذات والصفات، والأنداد هنا تعم الوسائل الظاهرة التي يعيشها بعد ما بطلت، والأوثان بعد ما ضلت، وسائر المحاولات بعد ما كلَّت، فاضطر - بعد ثالوث الأنداد التي تبنَّاها في حياته - أن ينيب إلى ربه، وبعد ما خوَّله نعمة منه نسي إنابته إليه وجعل لله أنداداً في ثالوثها المنحوس ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ التي اتضحت في ضره، تغطيةً على تغطية الرب، كأنها من الأنداد، وما أخوَنه وأظلمه وأكفره، أن يقضي وطره من إنابته حين ضره، ثم يخيِّل إلى المستضعفين أن الأنداد هي التي كشفت ضره وخولته نعمته.

﴿قُلْ﴾ لهذا الكَفور المبين والأحمق اللعين ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وكلّ متاع الدنيا بحياتها قليل ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾:

هناك صورة مطموسة نكدة مرهقة تقابلها هنا صورة وضيئة ووضاءة مرهفة، حساسة وشفافة مشرقة، أتلك هي الخيِّرة النيِّرة ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ يلزم الطاعة متخضعاً ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾[1] حال كونه فيها ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ وعلَّ «راكعاً» هنا مضمَّن في ﴿سَاجِدًا﴾ بقرينة «قائماً» وإنَّ الصلاة هي خير موضوع فهي خير قنوت! ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ حذراً عن موجبات عقابها على أية حال ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ

---

(١) سورة المزمل، الآيتان: ٣، ٤.

رَبِّهِۦٓ﴾ رجاءً بما يقدمه من صالحات تصلح للرجاء، فهو عائش حياته بين الخوف والرجاء.

فأين تلك الجهالة الحمقاء الخواء، وهذه المعرفة اللئلاء ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ قانتين في سجود وقيام، عائشين بين الخوف والرجاء على الدوام، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المضلون عن سبيل الله؟

فالعلم المُخرج عن الاستواء هو المعرفة بالله وتحقيق مرضاة الله، مهما جهل مختلف الصّلاحات من علم الظاهر أو علم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(١).

فرُبَّ عالم لا عقل له ولا معرفة، وأعلمهم إبليس اللعين، وليست الرفعة في ميزان الله إلّا للإيمان ومعرفة الإيمان: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(٢) فالأصل هو الإيمان، والمعرفة هي سبيل الإيمان.

هنا «الذين آمنوا» ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فهل الأولون والآخرون سواء، في اللّاسواء بينهم وبين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ أمّاذا؟

علَّهم هم فإنهم من الذين يعلمون، أم هم ليسوا هنا إياهم حيث الشاهد يختلف عن المشهود لهم أو عليهم، فكما أنهم ليسوا من ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كذلك ليسوا من ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ مهما كان مِن أولي الألباب مَن يعلمون، فإن مِنهم مَنْ هم في سبيل العلم ولمّا يعلموا، فألبابهم تدفعهم لأن يعلموا ثم يعملوا، ومن ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ من هُم فوق أولي الألباب، كالمعصومين عليهم السلام ولم يسبق التعبير عنهم بأولي الألباب كما «يُسمَّون قوّامين فإنهم تخطّوا درجات الإيمان إلى محض الإسلام»: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ قَدْ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.

أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ. . .﴾(١) ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

فقد ينطبق هذا التقسيم الثلاثي على المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام «لقد ذكرنا الله عزّ وجلّ وشيعتنا وعدونا في آية من كتابه» فقال عزّ وجلّ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾ «فنحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب»(٣) ويشبهه المروي عن الإمام الحسن المجتبى «نحن الناس وشيعتنا أشباه الناس وسائر الناس نسناس».

وهذا من باب التفسير بأظهر المصاديق بين هؤلاء الثلاثة ولهم مصاديق دون ذلك تعمهم الآية.

ثم العلماء الذين يذبون عن ساحة الدين بحجج الله التي علّمهم إياها هم من الذين يعلمون(٤) والذين لا يذبون بل ويذبلون ويترذلون هم من الذين لا يعلمون ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾!

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٨.

(٣) نور الثقلين ٤ : ٤٧٨ ح ١٧ الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد بن سليمان عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لأبي بصير يا أبا محمد! لقد ذكرنا الله عزّ وجلّ . . . ورواه مثله جابر وأبو بصير وزرارة عن أبي جعفر عليه السلام ومحمد بن مروان وحسان العجلي عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٤) المصدر ح ٢٢ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروى عن الحسن العسكري عليه السلام أنه اتصل بأبي الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام أن رجلاً من فقهاء الشيعة كلم بعض النصاب فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته فدخل على علي بن محمد عليه السلام وفي صدر المجلس دست عظيم منصوب وهو قاعد خارج الدست وبحضرته خلق من العلويين وبني هاشم فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست وأقبل عليه فاشتد ذلك على أولئك الأشراف فأما العلويون فأجلوه عن العتاب وأما الهاشميون فقال له شيخهم: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله هكذا أتؤثر عامياً على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين؟ فقال عليه السلام: إياكم وأن تكونوا من الذين =

وأولو الألباب هم أولو العقول الناضجة وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «ما قسم الله لعباده شيئاً أفضل من العقل فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل وإقامة العاقل خيرٌ من شخوص الجاهل ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من عقول جميع أمته، وما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجتهدين وما أدى العقل فرائض الله حتى عقل منه ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل من عقلائهم، هم أولو الألباب الذين قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾:

هل أمر الرسول ﷺ أن يقول لعباد الله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ متشاكساً ربه في عباده؟ وهو خلاف الضرورة التوحيدية وعشرات من النصوص القرآنية! أم إنه لفتة في ندائهم بقربهم لمكان إيمانهم، فيقربهم إلى الله زلفى بعد الإيمان بتقوى الإيمان، فلا هم مخاطبون هنا حضوراً، ولا معنيُّون بالخطاب غُيَّباً، وما الرسول ﷺ إلا حاملاً لخطابه تعالى، فما قوله لهم إلَّا «يا عباد الله المؤمنين» أو «يقول لكم ربكم يا عبادي»؟ أم يقرأ نص الآية دون نقص ولا زيادة وكما هو دأبه في حمل الوحي؟ تلميحاً لهم أن ربهم يخاطبهم هنا وهو الوسيط.

فلأن مجرد الإيمان في القلب ليس إحساناً في إيمان، فترك التقوى

= قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٢٣] أترضون بكتاب الله حكماً؟ قالوا: بلى قال: أوليس قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزُّمَر: ٩] فكيف تنكرون رفعي لهذا لما رفعه الله إن كسر هذا لفلان الناصب بحجج الله التي علمه إياها لأفضل له من كل شرف في النسب. . . .

إساءة في إيمان، و﴿قُلْ ... ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ تقوى في تطبيق الواجبات، وتقوى عن طغوى المحرمات، جمعاً بين إيمان الجوارح إلى إيمان الجوانح وهو الإحسان في الإيمان، ومما يلمح له الأمرُ بالتقوى بعد الإيمان، أن الطغوى تجامع الإيمان بل وبعض الشرك أيضاً: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾[2] والظرف هنا متعلّق بالإحسان فإنه يختص بالأولى وهي دار عمل، دون الأخرى وهي دار جزاء، ولا تعلُّق له بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ فإنها لا تختص بالأولى إلَّا شطر منها قليل، مهما عمَّت الحسنة حياة الدنيا والآخرة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾[3].

إنه ليست فقط في الحياة الأخرى لهم حسنة، بل والحياة الدنيا حيث يعيشونها مع الله ورضوانه، ولهم سلامة الروح وراحته، واطمئنان القلب وسكونته، فكل نائبة لهم في سبيل الإيمان منسية أمام مرضاة الرحمن، ثم في الآخرة لهم حسنة خالصة لا تشوبها سيئة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4].

ولأن التقوى قد تعترضها تقية تحدُّها، أم طغوى تزيلها حين تعيش في أرض الطغاة.

فهناك هجرة من أرض الطغوى إلى غيرها حفاظاً على تقوى الإيمان ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾[5]

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

مما يدل - من ناحية - على وجوب الهجرة حفاظاً على التقوى، ومن أخرى أن أرض الله لا تخلو من فاسحة لتطبيق التقوى لحدٍّ ما، فما دامت هناك أرض بالإمكان أن تتقي الله فيها أو تكون أتقى فواجب الهجرة لزام عليك دون أية عاذرة، إلا لمن ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾[١].

فإن كان في إقامتك في بلدة أو شخوصك عنها إلى أخرى ضرورة لك خلاف التقوى، أو قلتها، فعليك بشخوص أو إقامة تقوىً فيه على تقوى، فالأصل في حياة المسلم كلها - حيث يتبناه فيها كلها - هو التقوى في أي ظرف من زمان أو مكان يحافَظ فيه على كرامة التقوى.

وإن لم تسطَع على تقوى مطلقة فتقية هي تقديم الأهم على المهم على أية حال في كل حل وتر حال.

وذلك يتطلب صبراً على الحرمانات، على طاعة الله وعن معاصي الله[٢]، وعند المصيبات فـ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: توفية بغير حساب وأجراً بغير حساب ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣] وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان ثم تلا هذه الآية»[٤].

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٤٨١ ح ٢٩ في أصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه فيقال لهم من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله فيقول الله عزّ وجلّ: صدقوا أدخلوهم الجنة وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٤) المصدر عن المجمع روى العياشي بالإسناد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال=

لا نجد في سائر القرآن لغير الصابرين توفية الأجر بغير حساب، فللذين صبروا لله وفي الله على الحرمانات والأذيات والهجرانات، لهم منزلتهم الخاصة بين المؤمنين إذ يوفَّون أجرهم بغير حساب: لا حساب في أجرهم وتوفيته إذ تكفَّر سيئاتهم، ولا في أعمالهم، ولا في حسبانهم، ولا في أمد أجرهم، فهم - إذاً - في مربع اللّاحساب وذلك حسابهم إذ صبروا في الله بغير حساب.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾:

إخلاصاً في طاعته وعبادته لأعلى القمم!

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أولية تتخطى طول الزمان وعرض المكان، وهو فوق الزمان والمكان، فإنها أولية في المكانة والزلفى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[1] فلا مسلم في العالمين يسبقه أو يدانيه، من الملائكة والجنة والناس أجمعين: ﴿... قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

= قال رسول الله ﷺ: ... وفي الدر المنثور ٥ : ٣٢٣ - أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: إن الله إذا أحب عبداً أو أراد أن يعافيه صب عليه البلاء صباً ويحثه عليه حثاً فإذا دعا قالت الملائكة عليهم السلام: صوت معروف قال جبرائيل عليه السلام: يا رب عبدك فلان اقض حاجته فيقول الله تعالى: دعه إني أحب أن أسمع صوته فإذا قال: يا رب قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك وعزتي لا تدعوني بشيء إلا أستجيب لك ولا تسألني شيئاً إلا أعطيتك إما أن أعجل لك ما سألت وإما أن أدخر لك عندي أفضل منه وإما أن أدفع عنك من البلاء أعظم منه ثم قال رسول الله ﷺ: وتنصب الموازين يوم القيامة فيأتون بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلما ينصب لهم ميزان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

إنه كان عليه أن يحتل الأولية المطلقة في الإسلام، وقد فعل، وإلّا فكيف يأمره ربه بما لا يسطع، أو يخالف أمر ربه فيما يسطع، فقد أمره الله وهو طبَّق أمره ففاق العالمين في إسلامه لله رب العالمين.

﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ يستغرق ماضي الإسلام أياً كان وأيان، ثم ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يستغرق مثلث الزمان، فلا يعني الأولية - فقط - إسلامه قبل دعوته إليه، فإن صيغته الخاصة «أن أسلِم قبلكم» وقد كان مسلماً لله منذ فطامه في المُلك، ومنذ خلق الله الخلق في الملكوت، ولكنه حقق الأولية في إسلامه في عهده الرسالي بجهاده المتواصل وجهوده المتآصل.

فصاحب الدعوة هو الأوّل في إخلاص الدين والإسلام ثم يدعو، وهو أوَّل من أسلم وأول المسلمين في نطاق دعوته، ولكن الرسول الخاتم هو الأول في إسلامه طول الزمان وعرض المكان لأنه رسول إلى الرسل وشهيد الشهداء.

ولكنه مع هذه المكانة العليا ليس ليأمن العذاب إن عصى كسائر العصاة حيث التقوى هي التي تتبنَّى الأمن من العذاب:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

هو الرسول ﷺ يخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم، فهلا يخاف المرسَلُ إليه إن عصى بُغيَة الشفاعة؟ زيادة الفرع على الأصل! اللهم إلَّا بشروطات الشفاعة حيث تزيل دَرَن العصيان، فرجاء الشفاعة - إذاً - ممن يتهدر في العصيان - اعتماداً على الشفيع - هُراءٌ من الرجاء، حيث الشفيع هو رهن عصيانه فكيف يشفع لسائر العصيان: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] الله دينه وهو من ساءته سيئته وحسّنته حسنتُه، دون المتهدر الذي

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

لا يبالي أحسن أو أساء رجاءَ الشفاعة، ولا سيما شفاعة المعبودين من دون الله! وإذا يخاف الرسول إن عصى ربه عذاب يوم عظيم على عظيم منزلته عند الله، فأحرى بالمرسل إليهم أن يخافوا عذابه، وإن كان خوف العذاب ليس لزامه واقع العذاب إذ قد يُعفى عنه بتوبة أم رجاحة الحسنات أم شفاعة أو ترك كبائر السيئات، فلأن استحقاق العذاب عند العصيان محتَّم، ونفس العذاب بهذه الأمور غير محتم فهنا خوف العذاب دون واقعه.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾:

دون مشاكسة في عبادتي وشوب في ديني، مهما وعدتموني بمواعيدكم أو توعدتموني، وهنالك المفاصلة التامة حين لا تعبدون الله وترجون أن أعبد ما تعبدون:

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾:

هنا ﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾ أمرٌ إمرٌ هو أمرٌ من النهي حين لا يجدي نهي، بل ويهوى المنهي أن يُنهي أمر الناهي إلى ما انتهى إليه في إشراكه بالله العظيم.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ حقَّ الخسران كأن لا خاسر سواهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ لا فحسب بل ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ حيث يضلونهم كما هم «خسروا...» يوم القيامة ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد ﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ حيث يبين خسارة يوم الدنيا ويوم الدين.

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾:

﴿لَهُم﴾ تلمح بصالحهم، تنديداً أو تنكيداً أن لو كان لهم - لا عليهم - شيءٍ فهو ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ والظل هو الستر العالي

الشامل، و«من فوقهم ومن تحتهم» تعنيان الظل الظليل حيطة بهم دون إبقاء ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[١].

و﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب البعيد البعيد، المخيف المخيف ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ لكي يتقوا ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ حتى تتقوا ذلك العذاب المهين.

هنا انتقالة من مسرح الذين طغَوا إلى مسرح الذين اتقوا، وأين مسرح من مسرح؟:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ
(١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ
مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا
أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن
رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ
نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ
يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِي
بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
(٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ
(٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾:

الطغيان هو تجاوز الحد في العصيان، والطاغوت مبالغة الطاغي فهو المبالغ في الطغيان، فهو الطاغي على عباد الله وعلى الله، حيث يستضعف عباد الله، ويستكبر على الله إلحاداً في الله أو إشراكاً بالله، أو مساماةً ومساواة لله، أم ترفعاً على الله إذ يدعي أنه إله من دون الله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] فكلٌّ طاغوت على دركاتهم، ولأن الطاغوت صيغة مبالغة فاللام فيه تعني الموصول وهو صلته فيشترك فيه المفرد والجمع: الذي يطغى والذين يطغون، وقد استعمل هنا جمعاً لمكان «ها» وكما في غيرها:

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ...﴾[١] كما استعمل مفرداً: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾[٢].

ومن الغريب القريب تساوي العدد بين الطاغوت والمستضعف، ثمانية بثمانية، مما يلمح بأن لكل مستضعف طاغوتاً، ولماذا طاغوت الجمع يرجع إليه هنا ضمير المفرد الأنثى؟ ألأنها - فقط - الأصنام والأوثان التي لا تعقل؟ والطاغوت هو العاقل الذي يدعو إلى نفسه بديلاً عن الله، فلا طغيان فضلاً عن الطاغوت لغير العاقل!

أم لأن الطاغوت وهو عاقل، يكون من لا يعقل وأرذل منه حيث لا يعقل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣]؟ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٤] وهذا هو الحق في أنوثة الطاغوت، وما ألطفه تعبيراً عن كيانهم الضئيل، وذكر الطاغوت هنا من واجب الاجتناب ذكر لأنحس ما يُعبد من دون الله، فغيره مطويٌّ معه، ولا سيما أن الإنابة إلى الله تقتضي رفض كل الآلهة من دون الله.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ...﴾ مواصفات ثلاث لمن يعبد الله مخلصاً له الدين مهما اختلفت الدرجات، ابتداءً بالسلب: ﴿اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ...﴾ وتوسطاً في الإيجاب ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وانتهاءً إلى مسك الختام: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وهكذا يكون دور الحياة لمن يؤمن بالله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ثم مَن دونهم دركات وجاه الدرجات، وبين عليا الدرجات ودنيا الدركات متوسطات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٠.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٥.

ليست الهدى واللب - فقط - السلب: ﴿ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ ما لم يلحقه الإيجاب: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كما ليست هي الإيجاب ما لم يسبقه السلب، فلا ينفعك «لا إله» إلَّا أن يلحقها «إلا الله» ولا «إلا الله» إلَّا أن يسبقها «لا إله» إيجاباً موحِّداً مخلصاً بعد سلب مطلق.

فقد تَسلب ثم لا إيجاب كمن لا يعبد إلهاً ولا يعبد الله، أم قد توجب ولا تسلب كمن يشرك بالله، إذاً فكلمة الحق الهدى هي «لا إله إلا الله».

وعبادة الطاغوت دركات، كما الإنابة إلى الله درجات، فقد يُعبد الطاغوت كما الله، طاعة مطلقة، فعبادة التأليه من دون الله هي أنحس دركات العبادة للطاغوت، وقد يُطاع دون تأليه ولا طاعة مطلقة فهي أيضاً عبادة للطاغوت مهما كنت مسلماً «ومن أطاع جباراً فقد عبده»[1] وبينهما متوسطات.

فإذا تركت عبادة الطاغوت وطاعته عقائدياً وعملياً فهنالك الإنابة إلى الله، رجوعاً إليه بعد فِصال، حيث الفطرة ومعها العقل تحكم بعبادة الله لا سواه، فإذا تُرك الطاغوت فإنابةٌ إلى الله.

وهنالك بشارتان اثنتان، أولاهما للذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله، أنّ ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ والثانية لهم حين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أترى ما هو القول الذي يستمعون وما هو أحسنه؟ هل إنه مطلق القول سيئاً وحسناً وأحسن؟ ولا حُسنَ للسيىء حتى تعمه ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾! ولماذا يستمعون عبادُ الله الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله، يستمعون سيئَ القول وهو ألغى اللغو ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[2] لا يرونه ولا

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٨١ عن المجمع روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية أنه قال: أنتم هم ومن أطاع جباراً فقد عبده، وفي أصول الكافي بسند آخر عن أبي عبيدة الحذاء عنه عليه السلام في حديث طويل حول الآية «والعبادة طاعة الناس لهم».

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

يسمعونه ولا يتبعون! حتى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[١] فكيف إذاً يستمعون؟! اللهم إلَّا سماعاً أو استماعاً للرد والنقض، وله أهله الخصوص دون عامة المؤمنين، والآية تتحدث عن كُتلة الإيمان ككل دون خصوص أهل النقض الحافظين لشرعة الله.

إنّ استماع القول لأولي الألباب لا بد أن يعني معنىً إيمانياً، بين تكامل باتباع أحسن القول وهو يعمهم، وبين نقض لسيّىء القول وهو يخص العلماء منهم، فإذا لا يعني لا هذا ولا ذاك فلُغيه الوقت وتهدّره، أم ضلالٌ عن الهدى وتكدُّره وهما بعيدان عن أولي الألباب، اللّهم إلَّا أن يعنى من استماع سيئ القول استحكام حسنه وأحسنه عنده إن كان من أهله.

ولا يختص ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ بتلقي السمع الأذن، إذ يعني تلقي القول والرأي وأكثرُه بسمع الأذن، فقد يُتلقى القول بكتابة أو إشارة أماذا، فالمقصود تفتيش الآراء الحسنة بُغية الحصول على أحسنها فاتِّباعها علمياً وعقائدياً وعملياً أماذا؟ ولا يتأتى اتباع الأحسن إلَّا بعد تمييزه باجتهاد في تفصيل أو إجمال، فالاجتهاد - إذاً - فرض على أية حال! فمن لا يستمع القول، حاصراً اتباعه بما يعقله في نفسه، فكثيرة أخطاؤه، وعظيمة بلاؤه، فما هو من أولي الألباب، ويقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٢] فلا تكفي رؤية الآيات الأنفسية لتبيُّن الحق، ومن الآيات الآفاقية آيات الرسالات التي هي لزام الهدى لأولي الألباب.

والإنسان أيّاً كان - سوى المسدد بالعصمة الإلهية - هو في معرض الأخطاء حين يستقل برأيه، فعليه استماع مختلف الأقوال كشورى بينه وبين

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

أصحاب الأقوال، ثم يتبع الأحسن، فإن في تفتيش الآراء تنبيهات على موارد الخطأ والصواب، بل قد ينتبه الإنسان للأحسن حينما يسمع غير الأحسن بل والسيّيء، فحينما يفيد استماع القول السيىء اتباع الأحسن، يُعتبر السيء من الحَسَن طريقاً إلى انتباه الأحسن.

ومن يستمع إلى كل قول سيِّئاً وسواه، دون أن يعني نقضاً أو يقدِر عليه، فمتهدرة أوقاته وهو على أشراف الضلال، وحين عناية النقض فخارج عن نطاق الآية لمكان «فيتبعون».

ومن يستمع إلى حسنة الأقوال ولا يتبع أحسنها فما هو من أولي الألباب، ولا يبتغي الحسن لحسنه، وإلّا فلماذا ترك الأحسن إلى الحسن وهو جِنَّة وسوءة الاتِّباع أو صدفة لهوىً ومصلحيَّة.

وأما من ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ اتباعاً للحق ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وحسن القول هو حقه الصواب، أم حكاية عن الحق الصواب، أو قريباً إلى واقع الحق الصواب.

فأحسنه في هذا المثلث هو أحقه وأحكاه وأقربه إلى الحق، والأخير هو محور البحث عن كيفية التقليد وشروطه، وكيان الاجتهاد بشروطه.

قد تكون لك القدرة على استنباط الأحكام باتِّباع أحسن الأقوال تمييزاً علمياً بمحور الكتاب والسنَّة فعليك اتباع أحسنها وإن كان خلاف الشهرة أو الإجماع، حيث الميزان الأول والأخير في شرعة الله هو كتاب الله ثم سنّة رسول الله ﷺ وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام: «العلم ثلاثة كتاب وسنة ولا أدري»[1] فهما أحسن القول واقعاً، والأقرب إليهما والأشبه بهما هو الأحسن تقديراً وهو الأوفق لهما تفسيراً.

---

(١) المحجة البيضاء للفيض الكاشاني بسند عنه عليه السلام.

وقد لا تسطع على استنباط الأحكام بتفصيل، فهنالك استنباط الإجمال أن تتعرف إلى الأعلمَ الأتقى، فإن قوله أحسن القول لأنه أقرب إلى الحق الصواب، فعليك تقليده.

وقد تقتسم الأحكام إلى اجتهاد وتقليد إن لم تسطع على الاجتهاد المطلق، فالقول عن اجتهاد هو أحسن من القول بتقليد، إضافة إلى ما تحمله آية الذكر ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] فلا سؤال تقليداً إن كنت تعلم اجتهاداً.

وقد تقتسم التقليد - حيث الأعلمية نسبية - بين المسائل، فتقلد مثلاً في أبواب العبادات الأعلم فيها والأتقى، وفي أبواب المعاملات والسياسات أمّا هي من أبواب أو مسائل - تقلد الأعلم فيها والأتقى.

فعلى المؤمن على أية حال اتِّباع الشرعة عن اجتهاد بتفصيله أم إجماله مهما يسمى إجماله تقليداً، فإنه اجتهاد في الحصول على الأعلم الأتقى.

وعليه التحري الدائب في المسائل غير الضرورية ليحصل على الواقع أو الأقرب إليه والأحرى بالاتباع، حركة دائمة نحو التكامل علمياً كما هو نحوه عملياً، فيجنح بجناحَي العلم والعمل المتكاملين إلى الأجواء الأحرى والأرقى من الكمال الذي تعنيه الشرعة الإلهية.

والقول المستمَع أعم من الإخبارات والإنشاءات، ومن أصول الدين وفروعه، ومن كتابات الوحي وسواها، فعلى غير المتشرع أن يستمع إلى مختلف الوحي فيتبع أحسنه في ميزان الفطرة والعقل، ألا ذلك هو القرآن العظيم، وعلى المتشرع أن يستمع إلى مختلف المذاهب للشرعة فيتبع أحسنه في ميزان الكتاب والسنَّة.

وعلى المتمذهب المذهبَ الأحق الأحسن أن يستمع إلى مختلف القول

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

في أصول الدين وفروعه فيتبع أحسنه، وفي كلٍّ الفرضُ هو المستطاع من الاستماع واتباع الأحسن.

ومن اتباع أحسن القول فيما يرتئيه أصحاب الشوراءات فيما تحق فيه الشورى من أمور فردية أو جماعية، شورى فتوائية أم سياسية أماذا، وليس الأحسن فيها الأكثر قائلاً إلّا فيما تدل الأكثرية على الأقربية إلى الحق، فقد يكون الأحسن رأياً الأقل بمن فيهم الأعلم الأورع، اللهم إلا إذا تساووا ولم تعرف رجاحة لرأي الأقل، ولم يبق في البين مرجحٌ إلا كثرة العدد، فهنا الأحسن رأي الأكثر بنفس السند الدائر السائر للترجيح وهو كونه الأوفق والأشبه بالواقع حين لم يبق مرجح إلّا هو.

فليست الشهرة والأكثرية لهما دورٌ في الاتِّباع إلّا أن تحملا برهاناً على أنهما أقرب إلى الحق، إلّا فيما استأصلت البراهين إلّا الأكثرية لأهل الشورى وهم أهل الرأي، المتوفر فيهم صلاحيات الشورى كما فصلناها في آية الشورى.

إلى هنا اتباع الأحسن من المفروض الذي لا محيد عنه، وقد يجري دون فرض في الواجبات والمندوبات التخييرية، فاتِّباع الأحسن فيها أحسن وليس لزاماً يؤثم بتركه ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[(١)].

ومن اتباع أحسن القول - بعد العلم والعمل والعقيدة - نشره كما استمع «فيحدث به كما سمعه ولا يزيد فيه ولا ينقص منه»[(٢)] وقد تعنيه ﴿أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ فيما عنت، أنه أحسن الاتِّباع بعد أحسن القول[(٣)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٤٨٢ ح ٣٤ علي بن إبراهيم بسند عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزُمَر: ١٨] قال: هو الرجل يسمع الحديث فيحدث. . . وفي نقل آخر زيادة: جاؤوا به كما سمعوه - ذيلاً - وهم المسلمون لآل محمد - صدراً.

(٣) ففي ﴿أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ المعنيان - أحسن القول وأحسن الاتباع مهما كان الثاني على هامش الأوّل.

هؤلاء ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ وهم «عبادِ» ببشارة بعد الأولى و﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ بُشريان بَعدهما سمة العبودية ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ثم الهداية الإلهية ﴿هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ ثم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

وهذه الخمس ليست لمن سواهم، استمعوا القول ولم يتبعوا أحسنه، أم لم يستمعوا أمَّن ذا من الخارجين عن هذه الشروطات الخمسة، وإن لم يكونوا سواء في الضلالة وسقوط الألباب.

فهذه الآية هي الوحيدة في سائر القرآن بياناً لفرض الاجتهاد والتقليد كلٌّ على شروطه، يجمعهما ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ولا تدل آية الذكر إلَّا على مطلق السؤال ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلتقيَّد بآية الأحسن، ثم لا حاجة إلى تكلُّفات عقلية أم روائية، ضعيفة الدلالة، متعارضة الأدلة، فإنما العلم ثلاثة كتاب وسنة ولا أدري!

والتقليد الأعمى دون حجة شرعية، ولا سيما إذا كان خلاف الكتاب والسنة، هو من زمرة عبادة الطاغوت، وإن لم يكن المقلَّد طاغوتاً، حيث التقسيم الثنائي يخرجه عن اللب والهدى، فهو داخل في عبادة الطاغوت مهما اختلفت دركاتها.

أم إنه بين عبادة الطاغوت وبين اتباع أحسن القول، فالتقسيم إذاً ثلاثي أماذا؟

وخلاصة القول في الآية أنها تحريضٌ على الاجتهاد في الحصول على أحسن القول حسب المستطاع، وتحريك للمسلمين بحركة دائبة نحو الحسنى في المعارف والعقائد والأعمال!.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩)﴾:

الرسول ﷺ كان حريصاً على هدى الضالين والمنحرفين وهم مصرون على ما هم وهو متحسِّر، وهنا الله يريحه عن عبثه ويسقط عنه تكلّف الدعوة

حين لا تثمر ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ دونما بداءٍ منه ولا من الله - أنت تتكلف في هداه ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ حيث يعيش نار الضلالة فإلى نار الجحيم؟

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠)﴾:

أهل الطغوى حقت عليهم كلمة العذاب، ولأهل التقوى كلمة الثواب، ومن ذلك «لهم غرف مبنية من فوقها غرف» في جنات الخلود ومن قبلها في جنات البرزخ، والغرفة هي المنزل الرفيع، وما أجملها إذا كانت ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ قصوراً طباقاً عالية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ومن فوقها الأشجار، أتراها بماذا بنيت ومن ذا يبنيها؟ يبنيها الله برحمته كما تبناها أهلوها بتقواهم، تُبنى لهم كما يشتهون ولديه مزيد ﴿. . . وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾(١) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾(٢).

وبماذا يبنيها الله تعالى، نسمع الرسول ﷺ يقول: «بناها الله لأوليائه بالدر والياقوت والزبرجد سقوفها الذهب محبوكة بالفضة. . .»(٣) ﴿تَجْرِي مِن

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٨.

(٣) نور الثقلين ٤ : ٤٨٢ ح ٣٦ القمي في الآية قال حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن محمد ابن إسحاق عن أبي جعفر عليه السلام قال: سأل علي عليه السلام رسول الله ﷺ عن تفسير هذه الآية بماذا بنيت هذه الغرف يا رسول الله ﷺ؟ فقال: يا علي تلك غرف. . . لكل غرفة منها ألف باب من ذهب على كل باب منها ملك موكل به وفيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة حشوها المسك والعنبر والكافور وذلك قول الله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] فإذا دخل المؤمن إلى منازله في الجنة وضع على رأسه تاج الملك والكرامة وألبس حلل الذهب والفضة والياقوت والدر منظوماً في الإكليل تحت التاج وألبس سبعين حلة حرير بألوان مختلفة متوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الأحمر وذلك=

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في أرض الجنة رحمة فوقية وأخرى تحتية خلاف ما لأهل الطغوى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار! ألا فانظروا ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ترون ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأيٍّ من زمر الجنة وزمر النار، كسنة دائبة دون تخلف قيد شعرة، خلاف وعد الشيطان حيث يخلف وعده في الدنيا وفي الآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾:

﴿أَنزَلَ﴾ هنا دون «ينزِّل» تدل على نزول سابق، فهو نصيب الأرض من ماء السماء حينما كانت يابسة عطشى، فروِّيت بماء السماء: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[1].

ورؤية ذلك الإنزال هي علمية كشهود، تخص حضرة صاحب الرسالة العظمى ﷺ ثم تعم كل من يعلم أن ماءَ الأرض كله من السماء، على ضوء الوحي، أم الكشوف العلمية التي أثبتته.

﴿أَنزَلَ . . . فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والسلوك هو النفوذ في الطريق، وقد نفذ الماء في الأرض فأصبح ينابيع تنبع من تحتها ماءً صافياً ضافياً بلا كَدَر ولا ضرر، بعدما أخذ من الأرض بفضائها كل ضرر وكدر، فالأرض مِصفاةٌ لمياهها.

= قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فَاطِر: ٣٣] فإذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحاً فإذا استقرت بولي الله منازله في الجنة استأذن عليه الملك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله إياه فيقول له خدام المؤمن ووصفاؤه مكانك فإن ولي الله قد اتكى إلى أريكته وزوجته الحوراء العيناء قد ذهبت إليه فاصبر لولي الله حتى يفرغ من شغله قال: فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمتها تمشي مقبلة وحولها. . . .

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

وهذه الينابيع بين فوارة أرتزية، وفائرة فوق الأرض، أم تتكشف آباراً تحت الأرضية، ويد الله تمسكه فلا يضيع ويذهب في الأغوار البعيدة بحيث لا تنال الأيدي البشرية!

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ بذلك الماء المنزل من السماء(١) من عيونه وآباره وأنهاره وأمطاره، دون خصوص الينابيع حيث لا تكفي ولا تتوفر في كل أكناف الأرض ومناكبها.

أم إنه الينابيع للأغلبية الساحقة من تروية الأرض بها ولا حصر هنا ينافي تروِّيها بالأمطار، ولكنه لا يناسب إفراد الضمير إلَّا بتأويل ماء الينابيع وهو عليلٌ.

وهل إن ﴿زَرْعًا﴾ يخص نبتاً على غير ساق؟ وهو يُخرج كلَّ نبت بساق ودون ساق! والزرع لغوياً هو مطلق الإنبات! إلَّا أن في مقابلته بالأشجار دليلاً على اختصاصه بغير الأشجار كما في آيات عدة(٢) ولكنه دون مقابل قد يعم الأشجار، كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، اللهم إلَّا الأشجار حيث لا تعم النبت دون ساق، وعلى أية حال فلا ريب في أغلبية استعمال الزرع في غير الأشجار ولكن قرينة الموقع هنا وعدم اختصاص اللغة بغير الأشجار يعممانه للأشجار، ولكنما الموقع يخصصه مهما عمَّت اللغة لمكان الهَيْج والاصفرار والحطام المتواصل ولا يناسب إلَّا غير الأشجار ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ بماء واحد وتراب واحد مهما اختلف الحب والنوى، أفلا يدل ذلك على تصميم قاصد من إله واحد؟ ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجف لحد النهاية في اليبوسة ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد اخضرار ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ

---

(١) رجوعاً لضمير المفرد إلى «ماء» دون «ينابيع».

(٢) ﴿يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ [النحل: ١١] ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرعد: ٤] ﴿جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ [الأنعام: ١٤١] ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢] ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨].

حُطَٰمًاۗ﴾ : فتاتاً من تبن وحشيش: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ تذكرهم بحكمة واقتدار ورحمة متواصلة، وأن الدنيا دار بلاء وامتحان وممرٌّ إلى مقر فخذوا من ممركم لمقركم، وأن الموت هو النهاية، ومن ثم حياة، كما الزرع يموت ثم يحيى على طول الخط، والماء هنا مثلٌ للحياة المبتلاة بزرع واصفرار وحُطام ولكنه باق لا يفنى فكذلك الحياة مهما تغيرت الأحوال باخضرار واصفرار!

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أولو الألباب هم الذين شرح الله صدورهم للإسلام فهم على نور من ربهم، كما استناروا بأنوار فِطَرهم وعقولهم، آيات أنفسية ومن ثم الآفاقية، ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ حيث قست فما تنورت لا استنارة منهم ولا إنارة من ربهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ يُبين بمظاهر الأقوال والأفعال.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ. . .﴾ خير أم القاسية قلوبهم من ذكر الله؟ لا يستويان! ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ حيث تقسو فلا تلين منه فتطمئن.

الصدر هو برّانية القلب، كما العقل هو برانية الصدر، فإذا كمل العقل تم اللب، وإذا تم اللب انشرح الصدر، وإذا انشرح الصدر تنور القلب وهو آخر المطاف في السلوك إلى الله.

وكما القلب هنا وفي أمثاله هو قلب الروح، كذلك الصدر واللّب والعقل، مهما كان كلٌّ في مكانه من سَمِيَّاته، فالعقل في المخ واللب في عمقه، والصدر في الصدر والقلب في القلب، وكلٌّ من جنبات الروح حيث يعمها ويحلِّق عليها وهي درجات فوق بعض.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

واردات القلوب هي من صادرات الصدور، تصدر عنها إليها فتقلّبها، إنْ خيراً فنورٌ وإن شراً فظلام، فانشراح الصدر بالحق هدىً وضيقه عن الحق ضلال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

فكما ينزِّل الله من السماء ماءً فينبت لهم به زرعاً مختلفاً ألوانه، كذلك ينزل ذِكراً ونوراً تتلقاه الصدور المنشرحة فتلقيها إلى القلوب الحية، دون الصدور الحَرِجة الضيقة، والقلوب المقلوبة القاسية، فأين قاسية مظلمة من منشرحة نيِّرة؟

أترى ما هي علامة الانشراح والنور؟ إنها على المروي عن الرسول ﷺ: «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت»(٢).

فـ «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن إبعد الناس من الله القلب القاسي»(٣).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤٨٥ ح ٤٠ عن روضة الواعظين للمفيد روي أن النبي ﷺ قرأ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ...﴾ [الزُّمَر: ٢٢] فقال ﷺ: إن النور إذا وقع في القلب انفسخ له وانشرح، قالوا: يا رسول الله ﷺ! فهل لذلك علامة يعرف بها؟ قال ﷺ: التجافي...
وفي الدر المنثور ٥: ٣٢٥ أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قالوا: يا رسول الله ﷺ! فهل ينفرج الصدر قال: نعم قالوا هل لذلك علامة؟ قال: نعم التجافي...
وفيه أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فقلنا: يا رسول الله كيف انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسخ قلنا فما علامة ذلك؟ قال: الإنابة...

(٣) الدر المنثور ٥: ٣٢٥ - أخرج الترمذي وابن مردويه وابن شاهين في الترغيب في الذكر والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: لا تكثروا... وفيه أخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: يورث القسوة في القلب ثلاث خصال حب الطعام وحب النوم وحب الراحة.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾:

أترى تدافعاً بين هذه التي تحكم بكون الكتاب متشابهاً كله، وبين التي تعمِّم الإحكام له كله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1] وثالثة هي آية التقسيم: ﴿... مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ...﴾[2]؟ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[3]!

الإحكام والتشابه أمران نسبيان، فالقرآن محكم كله قبل تفصيله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[4] - ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ...﴾ فهو إحكام وِجاه تفصيل وقبله، ثم وحكيمٌ كله جملةً وتفصيلاً: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[5] ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حكمة في كيانه أياً كان وأيان، في تفصيله وقبله، في لفظه ومعناه ومغزاه، في بلاغه وبلوغه وحُكمه، وفي أي حقل من حقوله، دون أن يتسرب إليه أمر غير حكيم، أو يتدخل فيه حكيم أو غير حكيم، فحكمة القرآن هي أفضل برهان على رسالة من جاء به ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...﴾[6]!

ثم وهو متشابه كله - وِجاه التهافت والتدافع - تشابُه المثاني: المعاطف، عطفاً لبعض على بعض، وانعطافاً مع بعضه البعض، حيث يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض ويشهد بعضه لبعض.

---

(١) سورة هود، الآية: ١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٤) سورة يونس، الآية: ١.
(٥) سورة القمر، الآية: ٥.
(٦) سورة يس، الآيتان: ٢، ٣.

وهو محكم في أمه، متشابه في سواه، إحكام الدلالة على مغزاه تفهماً، وتشابهها لغير البالغ فهمه، دون قصور في الدلالة، ولا عضالة في التعبير، إلّا جزالة لأعلى قمم الفصاحة والبلاغة، ولكنها الأفهام درجات، والقرآن يحلّق على كافة الدرجات، فآية واحدة هي محكمة لمستفسر وهي متشابهة لآخر وما هي إلّا هيه، على حدِّ المروي عن الإمام الرضا عليه السلام: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله»!

إنه متشابه المثاني كله، ومتشابه المعاني بعضه، ومحكم المعاني كله، فإنه أحسن الحديث، وقصور الدلالة من أقبح الحديث، وتناقض الأبعاض من أقبح الحديث ولكن:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، لا سواه، وكل حديث الله أحسن من سواه، وكما الله نفسه حديث أحسن من سواه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾[١] ولكن أحاديث الله في مختلف الرسالات بين حسن وأحسن، وهذا القرآن هو أحسن الحديث بقول مطلق، لا يوازى ولا يسامى طول الزمان وعرض المكان ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم...﴾[٢].

ولقد عبر عن القرآن بالحديث في اثني عشر موضعاً أخرى في الذكر الحكيم[٣] وهو ما يحدِّث عنه، فمنه ما يَحدُث كسائر الكون، ومنه ما يُحدِث ولا يَحدُث كمكون الكون، يتحدث عن كل محدَث بلسان حال أو مقال وعلى أية حال، فلسان الفطرة والعقل يحدثان عنه، ولسان التكوين

(١) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٥.
(٣) وهي هنا و: ٤: ١٤٠ و٦: ٦٨ و٧: ١٨٥ و١٨: ٦ و٤٥: ٦ و٥٢: ٣٤ و٥٣: ٥٩ و٥٦: ٨١ و٦٨: ٤٤ و٧٧: ٥٠ و١٢: ١١١.

والتشريع محدثان عنه، ويتلوه أحسن الحديث، فهو حادث يحدِّث عن كل شيءٍ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] ويحدِّث عنه كل من كملت عقولهم، إذاً فهو ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾: «نوراً لا تُطفأ مصابيحه وسراجٌ لا يُخبؤ توقُّده، وبحرٌ لا يُدرك قعره، ومنهاج لا يَضِل نَهْجه وشعاع لا يُظلم ضوؤه، وفرقان لا يُخمد برهانه وبنيان لا تهدم أركانه»...

ولأنه ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ بقول مطلق فهو - إذاً - آخر حديث من عليا الوحي، لا حديث بعده، فلا شرعة ولا رسالة بعده.

﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ بعضه ببعض، في ألفاظه ومعانيه، في أغراضه ومغازيه، دونما اختلاف ولا قيد شعرة فإنه ﴿مَّثَانِيَ﴾: مَعاطف، فآياته كلها لِصقُ بعض، في مواصلات دون أية مفاصلات، وفي تجاوبات دون تهافت وتفاوت، فقد «نَزل القرآن ليصدق بعضه بعضاً فلا تجعلوه يكذب بعضه بعضاً نثراً لآياته نثر الدقل»![2].

ومن تشابه أبعاضه مع بعض انسجام أحكامه ومعارفه في وحدة جامعة تناسب الأجزاء ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[3] فأحكامه الفردية تُجاوب الجماعية، وأحكامه العبادية تناسب السياسية، وأحكامه الاقتصادية تناسج هذه وسواها، دون أي صدام والتطام بين حقوله المختلفة صورةً، الواحدة سيرةً! ومتشابهاً مع قضية الفطرة والعقل، وحاجيّات العالمين أجمعين إلى يوم الدين دون إبقاء.

ومتشابهاً مع سائر الوحي مهما كان أحسن منه فإنه ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ويؤيده ويبشر به سائر الوحي الأصيل.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٢) من الخطبة ١٩٣ عن الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة وقد أوردناها بتمامها في مفتتح المجلد الثلاثين.

(٣) سورة الملك، الآية: ٣.

ومتشابهاً مع محكمه في هذا التفصيل ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[(١)] نسخة طبق الأصل.

﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ وترى ما هي الصلة بين جمع المثاني صفة لمفرد الكتاب؟ علَّها صفة لآياته في مَثْنَياتها كلها، وصفة للكتاب كله في مثانيه كلها، فـ«المثاني» جمع المثنية، تعني المعطوف، لانعطافها كلها مع بعض، ولا سيما التي تتحدث عن موضوع واحد، فهي تفسر بعضها بعضاً وتنطق بعضها على بعض، وهي تلائم بعضها بعضاً في مختلف حقولها، مَثْنِيَة هنا في اثنتين.

وهي جمع المَثْنى لأنها تثنى على مرور الأوقات وكرور الحاجات فلا تُدرس - ولا تنقطع - دروس سائر الكتب، كما وهي تجدد حالاً بعد حال في فوائده وإشراقاته، فالقرآن يجري كجري الشمس، لا غروب لإشراقه، ولا أفول لإضاءته.

وقد نزلت آياته مثنى، واحدة نزولاً وأخرى تأليفاً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[(٢)] ولا جمع إلَّا بعد نزول.

وهي جمع مثنى الثناء، فالقرآن مُعارِض للثناء عليه في كله بكله، لـ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[(٣)] ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾[(٤)]! وهو في مثانيه المكرورة، وعلى تجدد الحالات والحاجات المعروضة عليه، المستضيئة به، وفي مثاني معاطفه تفسيراً لبعضها البعض، وموافقةً لبعضها البعض، وفي مثنى تأليفه الأليف، هو في كل ذلك مثاني ومجالات للثناء، وما أجملها خماسي المعاني للمثاني، مما يحضُّ على الثناء.

---

(١) سورة هود، الآية: ١.
(٢) سورة القيامة، الآيتان: ١٦، ١٧.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٧٧.
(٤) سورة البروج، الآية: ٢١.

فالقرآن العظيم كله مثاني بكل هذه المعاني، مهما كانت لـ ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ منزلتها الخاصة بين سائر المثاني ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾(١).

﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خوفاً مما قدمت يداهم فهم في وجل وارتعاش وقشعريرة الجلود كخلفيَّة لاقشعرار القلوب ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فهم بين خوف مما قدمت أنفسهم، ورجاء مما عرفوا من رحمة ربهم، يعيشونهما طول حياتهم.

فطالما قلب المؤمن يضطرب وجلده يقشعر من الكتاب المتشابه المثاني حين يرى نفسه قاصرة عما يتوجب عليها تجاهه، ويسمع ربه العظيم يكلِّمه، فيغشى قلبه خاشعاً ويقشعر جلده خاضعاً خائفاً وجِلاً.

ولكنه يطمئن بعد ذلك إلى ذكر الله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٢) فهم عندما سمعوا آيات العظمة والجلال طاشوا، وإذا سمعوا آيات الرحمة والجمال عاشوا، فهم بين طيش وعيش، وخوف ورجاء، حيث القرآن آخذ بأزمَّة قلوبهم، و«قد سئل الرسول ﷺ عن تفسير الترتيل فقال ﷺ: حركوا به القلوب» أجل و﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ...﴾(٣)! فالغالب على من يستمع القرآن الخشية والخشوع، مهما لان قلبه وجلده إلى ذكر الله، ولكنه بعد ما مُلِئَ خشيةً وانقلاباً «ثم تلين»! فلا تعني الخشيةُ الصعقةَ «إنما هو اللين والرقة والدمعة والوجل»(٤).

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٧.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٤) «تفسير البرهان ٤: ٧٤ عن الكافي بسند عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: «إن قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حدثوا به صعق أحدهم حتى يرى أن أحدهم لو قطعت يداه ورجلاه=

ترى لماذا هنا ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وليس كما هناك ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؟ قد تكون «إلى» لامحة إلى وقت اللين بعد الاضطراب، إنها تضطرب مقشعرة بكلام الله، فلما سلكوا به إلى ذكر الله، فملئت به قلوبهم، لانت بعد اضطراب، فراراً منه إليه، وفراراً من كلامه إلى ذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾!

أنت تزور عظيماً يكلمك بما يتوجَّب عليك، فتأخذك الهيبة والرهبة لأوَّل وهلة، ثم بعد هنيئة تستكن إليه وتنعطف بعطفه ولطفه، فيلين قلبك بعد اضطراب، وتفرح بعد اكتئاب!

كذلك الله وأحرى بكلامه وفوق خلقه قدر ما يفوق خلقه، يقشعر منه جلدك ثم تلين إلى ذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾!

و«إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقها»(١).

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ولكن هدى الله وإضلاله ليسا فوضى جزاف، فإنما يهدي الله من يهتدي توفيقاً له في هداه، مزيداً واستمراراً، ويُضل من ضل تركاً له فلا يوفقه ويذره في طغيانه يعْمَه وفي غيه يتردَّد.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

في الاتقاء بالوجه وجهان قد تعنيهما الآية، اتقاءٌ في الدنيا فيوم القيامة ظرف لسوء العذاب، واتقاءٌ يوم القيامة فهو ظرف الاتقاء.

= لم يشعر بذلك فقال: سبحان الله ذاك من الشيطان ما بهذا نعتوا إنما هو اللين والرقة والدمعة والوجل» أقول: يعني عليه السلام من الخشية عواناً بين الغشية واللينة، وإلا لكان الأئمة غير خاشين أو هم مغشي عليهم في جميع أحوالهم حيث يعيشون القرآن فيها.

(١) المجمع روى عن العباس بن المطلب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: . . .

والوجه الأول هو كل الوجه قلباً وقالباً أن يتقي الإنسان يوم الدنيا سوء العذاب يوم القيامة بوجهه الظاهر والباطن، في كل مواجهة لنية واعتقاد أو عمل أماذا، فهو يتقي سوء العذاب بوجهه في كل وجوهه ومواجهاته، هل يستوي هو ومن لا يتقي فهو ظالم ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾!

والوجه الثاني هو وجه القالب، فلأنه أشرف الأعضاء، مظهر الحُسن والحِسِّ وصومعة الحواس، فإذا اتجه إلى الإنسان عذاب اتقى بيده وسواها من أعضاء وجهَه، حفاظاً على الأشرف الأعلى، حيث فيه حفاظ عليها كلها، ففيه سمعه وبصره وفمه ولسانه، وإذا تعطلت الأعضاء أو عُطِّلت، فاليدان مغلولتان إلى العنق أمّاذا لغيرهما، فهو - إذاً - يتقي بوجهه سوء العذاب حين يُلقى في النار: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1] حيث يلقى فيها مكتوفاً فأول ما تمس النار وجهه، فيتقي بوجهه سوء العذاب وهو الإلقاء مهاناً في النار.

وما أخطره موقفاً ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾[2] ومع هذا الهول في زحمة العذاب يتلقى كلمة التأنيب عذاباً فوق العذاب: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بوجوهكم وكل الوجوه! والمعنيان علّهما معنيّان مهما كان الثاني أوجه، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه، ومن الأحسن الجمع بين الحَسَن والأحسن، فإنه أحسن من ذلك الأحسن، اللّهم إلّا أن يختص الحسن بعناية التفسير فغير حَسَن.

ثم يلتفت من مشهد الحاضرين إلى مشهدٍ من الغابرين ليدل على سنة الله في الكافرين، غائبين وحاضرين ليصبح أهل الذكرى من فعلتهم حاذرين.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٤٠-٤٢.

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾:

إن عذاب الدنيا أياً كان ليس إلَّا ذوقاً للخزي والعذاب، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأخزى «لو كانوا» في الحياة الدنيا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فسنة الله في المكذبين ماضية، ومصارع القرون الغابرة شاهدة، ويكفي هذا الذكر لمن يذَّكر والله من ورائهم محيط.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾:

لا يبقي القرآن ولا يذر مثالاً للذكرى إلَّا ويضربه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أمثلة فطرية وعقلية وحسية وكونية أمَّا ذا من أمثال واقعية، دون اختلاق لما لا يكون أم يستحيل.

و«الناس» هنا مَثَلٌ لأفضل محور لوحي القرآن ويتبعه الجن أمَّن ذا من المكلفين، إذ ليس القرآن - فقط - كتاب الناس، فلا أقل من أنه للجنة والناس، ومهما كان هناك من المكلفين من هو يوازي الناس، فلأن صُراح الخطاب في القرآن موجَّه إلى الناس، فلا ضير أن يصبح الناس فيه هم الأساس.

﴿قُرْءَانًا﴾ يُقرأ، وما أسهله تناولاً معجزةٌ تُقرأ ﴿عَرَبِيًّا﴾ واضحاً بيناً لا تعقيد فيه، لا تفهُّماً فتصديقاً، ولا تطبيقاً طول الزمن، فهو عربي في كافة الحقول، تحويه كافة الفطر والعقول ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ في قرآنه وعربيته ﴿عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ على مر العصور، فلا يُخلق على الرد ومُضيِّ الزمن وتقدُّم العلوم والعقول، وتوسُّع الحاجات في مختلف الحقول، وقد يعنيه ما يروى عن الرسول ﷺ تفسيراً لـ ﴿عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ «القرآن كلام الله غير

مخلوق»[١] وهو حجة تحكم ولا يُحكم عليه وكما يروى عن علي عليه السلام «ما حكمتُ مخلوقاً ما حكمتُ إلَّا بالقرآن»[٢] ﴿عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولا يطغون، ومن أمثال القرآن:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

الشُّكوس هو العسر وسوء الخلق، فالمتشاكسون هم المتعاسرون المتشاجرون لشِكاسة خُلُقهم، فمِن الشركاء مَن هم العدول المتنافسون وليست إلَّا في حقٍّ، ومنهم من هم شركاء متشاكسون وليست إلَّا في غير حق، ويضرب الله هذا المثل الأمثل لرجل الشرك ورجل التوحيد، فالمشرك هو كعبد يملكه شركاء متشاكسون، موزَّعاً بينهم فيه يتخاصمون، حائراً لا يستقر على منهج، ومائراً لا يقر على مدخل واحد ومخرج، لا يملك إرضاءهم أجمع فهم عليه ساخطون.

وهكذا يكون دور المشرك في اتجاهاته ولا سيما بين الطواغيت، يعيش عيشة متناقضة متباغضة، لا يدري من أيٍّ إلى أيٍّ.

ويتلوه الذي يعبد نفسه ويعبد ربه إلهين اثنين، مهما كان موحِّداً في التأليه، فإنه مشرك بالفعل في أعماله واتجاهاته لا يهدف هدفاً واحداً.

ثم المرائي الذي يعبد ربه رئاءَ الناس ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣] فثالوث الإشراك منحوس حسب مختلف دركاته، في حياة رذيلة مضطربة تُخرج الإنسان عن وحدته إلى كيان ممزَّق مفرَّق.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٢٦ - أخرج الديلمي في سند الفردوس عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال: . . . أقول: و«غير مخلوق» علّه من الاختلاق أم الخلق العتيق، ألّا يخلق على مر الدهور!

(٢) المصدر أخرج ابن أبي حاتم في السنة والبيهقي في الأسماء والصفات عن الفرج بن زيد الكلاعي قال قالوا لعلي عليه السلام: حكمت كافراً ومنافقاً فقال: . . .

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

والموحد هو كعبد سَلَماً لرجل، إذ يملكه سيد واحد، عالماً طلباته، متوجهاً إلى مرضاته، فهو في راحة عن تناقض الحياة وتضاد الطلبات، فالقلب المؤمن بحقيقة الإيمان هو الذي يقطع رحلات الحياة على هدى واضحة، إذ لا يعرف ولا يهدف إلَّا مصدراً واحداً ومصيراً ومسيراً واحداً منحاً ومنعاً، فتستقيم اتجاهاته في مختلف الحقول إلى هذا المبدأ المصير، عابداً له وحده، ومطيعاً له وحده، ومعلِّقاً آماله وأعماله عليه وحده، معلِّقاً يديه بحبل واحد يشد بكل إمكانياته عروته، يعيش في الأرض متطلعاً إلى إله السماوات والأرض، رافضاً سواه وراءه ظهرياً.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ حتى يستويان ممثَّلاً؟ فذلك في جحيم الحياة الدنيا قبل الآخرة، وهذا في جنة الله هنا قبل الآخرة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ على وحدته وأمره بتوحيده توحيداً لاتجاهات الحياة نحو الكمال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مدى نحوسة الشرك واكتئابه، وطيبة التوحيد واكتسابه.

وترى إذ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فمرفوع عنهم تكليف التوحيد حيث «رُفع ما لا يعلمون»؟ كلَّا! حيث الجهل هنا متجاهِل عامد، ومتعاضِل شارد، وكيف لا يعلمون وهذا من أوضح موارد العلم لمن له مُسكة حتى المجانين، فضلاً عن العقلاء العارفين، ولذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1]!

وكما الإشراك بالله - أياً كان - فيه نحو سته وانجرافه، كذلك الإشراك برسول الله ﷺ أن يسوّى به مَن دونه، فيطاع كما يطاع، وقد يروى عن علي عليه السلام قوله: أنا ذلك الرجل السَّلَم لرسول الله ﷺ[2] ثم من يحملون

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤٨٥ عن المجمع وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن علي عليه السلام أنه قال... وفي معاني الأخبار بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام مثله.

رسالة الله كما هو من الأئمة المعصومين عليهم السلام [(١)] ثم العلماء الربانيون، مهما كان الإشراك في هذا المربع دركاتٍ حسب الدرجات.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾:

«ميت وميتون» في صفة مشبهة دالة على ثبات، دلالة على أن الموت لزام لهم كلِّهم لا يفلت عنه فالت مهما كان نبياً وحتى أنت يا سيد الأنبياء[(٢)].

ولا يعني الموت هنا الفوت، وإنما موت الأبدان حقيقة بخروج الأرواح، وذوق الموت للأرواح تخلصاً عن الأبدان وهي أحياء في البرزخ ثم في القيامة الكبرى، وهناك فارق بين «من شاء الله» وسواهم، أنهم لا يَصعقون ويَفزعون يوم الصعقة الموت عن البرزخ، فإنه كموت الأرواح: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٣)].

ليس الموت آخر المطاف في رحلة الحياة، إنما هو حلقة بعدها أصل الحياة ﴿يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[(٤)] وهنالك اختصام العباد المشركين كما كانوا يختصمون في الدنيا في مواليهم وفيما بينهم: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٨﴾[(٥)] ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ

---

(١) المصدر عن روضة الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: أما الذي فيه شركاء متشاكسون فلأن الذي يجمع المتفرقون ولايته وهم في ذلك يلعن بعضهم بعضاً ويبرأ بعضهم من بعض فأما رجل سلم لرجل فإنه الأول حقاً وشيعته...

(٢) المصدر ٤٩ في عيون الأخبار بإسناده قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠] قلت: يا رب أتموت الخلائق كلهم وتبقى الأنبياء؟ فنزلت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العَنكبوت: ٥٧] أقول: لا يبقى بعد نص الآية الأولى شك في أنه صلى الله عليه وآله وسلم يموت مع الباقين حتى يزول بعموم الآية الثانية، فالحديث إذاً مركوس أو معكوس أن الثانية نزلت قبل فسأل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سؤاله فنزلت الأولى نصاً أنه يموت.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

(٥) سورة الشعراء، الآيات: ٩٦-٩٨.

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾[(١)] و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[(٢)] اختصاماً متصلاً بين الحياتين دون إمهال ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[(٣)].

العُبَّاد مَن دون الله يختصمون فيما بينهم وكما يختصم المعبودون، ثم ثالث ثلاثة اختصام العُبَّاد والمعبودين، ثالوث منحوس، ثم اختصامٌ بين الرسل والمرسل إليهم، وبين كلِّ الدعاة والمدعوين: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[(٤)] وأين اختصام من اختصام؟!

ومن الاختصام ما هو بين الأمة مع بعض في ظلامات «في الدماء»[(٥)] وسواها، ثم لا خصام بين العدول إلَّا مع سواهم حجاجاً عليهم وتبكيتاً، وحتى الظالم والمظلوم بين الدواب والأنعام[(٦)] فضلاً عن سائر المكلفين كالزوجين والخَدَمة والمخدومين وأهل الأسواق[(٧)] والجارين[(٨)] والأمراء

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٨. (٢) سورة ص، الآية: ٦٤.
(٣) سورة يس، الآية: ٤٩. (٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.
(٥) الدر المنثور ٥: ٣٢٧ أخرج عبد بن حميد عن الفضل بن عيسى قال لما قرئت هذه الآية قيل: يا رسول الله فما الخصومة؟ قال: في الدماء، وأخرج عن الزبير بن العوام قال لما نزلت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ. . .﴾ [الزُّمَر: ٣٠] قلت يا رسول الله ﷺ أينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: نعم لينكرن ذلك عليكم حتى يؤدّى إلى كل ذي حق حقه.
(٦) المصدر ٣٢٨ أخرج أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ليختصمنّ يوم القيامة كل شيء حتى الشاتين فيما انتطحتا.
(٧) المصدر ٣٢٨ - أخرج الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ قال: أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل وخادمه بمثل ذلك ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثمّ دوانق ولا قراريط ولكن حسنات هذا تدفع إلى هذا الذي ظلم وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يؤتى بالجارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار فوالله ما أدري يدخلونها أو كما قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريَم: ٧١].
(٨) المصدر - أخرج أحمد الطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: أول خصمين يوم القيامة جاران.

والرعايا[١] وحتى الأرواح مع الأجساد[٢] فالخصام هناك واقع بين كل ظالم ومظلوم من الجنة والناس والحيوان أمَّاذا؟

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

من كذب على الله أن له شركاء أم لم يوحِ إلى أحد أمَّاذا من أكاذيب، ثم كذب بالصدق إذ جاءه وحياً وموحى إليه بآياتهما البينات، فمن أظلم منه، إنه في الدرك الأسفل من الظلم كذباً على الله وتكذيباً بما جاءه عن الله، مهما كان له أمثالٌ في دركه.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

لعل ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وِجاه ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هو الذي جاء الله بكل صدق، صادقاً به وبتوحيده وبأقواله.

كما الذي «صدَّق به» وِجاه مَن ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾، هو المصدق لما جاءه عن الله من وحي بمن جاء من رسل، تخاصماً بينهما في بعدين فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

ولماذا «أولئك»؟ و«الذي» مفرد؟ علَّه لأن «الذي» يعم الرسول والمرسل إليه، وكلُّ عِدَّةٌ تعم المكلفين المصدقين أجمعين فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾!.

(١) المصدر - أخرج البزار عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: يجاء بالأمير الجائر فتخاصمه الرعية.

(٢) المصدر أخرج ابن منده عن ابن عباس قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى يختصم الروح مع الجسد فيقول الروح للجسد: أنت فعلت ويقول الجسد للروح أنت أمرت وأنت سولت فيبعث الله تعالى ملكاً فيقضي بينهما فيقول لهما إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير دخلا بستاناً فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثماراً ولكن لا أصل إليها فقال له الضرير: اركبني فتناولها فركبه فتناولها فأيهما المعتدي؟ فيقولان كلاهما فيقول لهما الملك فإنكما قد حكمتما على أنفسكما يعني أن الجسد للروح كالمطية وهو راكبه.

فالرسول ﷺ جاء كمَن قبله بالصدق عن الله، وصدَّق بما جاء به وبما جاء به مَن قبله، والمرسل إليه جاء إليه بالصدق في كيانه ووحيه، وصدق بالصدق الذي جاءت به رسله، فهما على - جمعيتهما - معاً معنيان فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ثم احتمال ثالث أن ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ هو الرسول ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو المرسل إليه[1].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

لهم عند ربهم في مقامات القرب والزلفى ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ مشية مختارة وليست محتارة، و﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ. . .﴾ أتراهم إن شاؤوا رؤية الله، أم شاؤوا أن ينالوا درجات الأنبياء، أم شاؤوا زوجات المتقين الآخرين فلهم كل ذلك حيث ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾؟

كلّا! فليسوا ليطلبوا المحال، وهم على علم أن رؤية الله مستحيلة، ومن المجيء بالصدق والتصديق به تصديق أنه لا يُرى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[2].

ثم ولأنهم يعرفون درجاتهم ليسوا ليطلبوا فوقها مما يخص مَن فوقهم فإنه طلب لغير العدل، والطالب ما فوقه من مكانة إما ظالم متطاول، أو جاهل متعاضل، وهم عن هذه الظلامات والجهالات مُبعَدون.

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٢٨ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [الزُمَر: ٣٣] قال رسول الله ﷺ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزُمَر: ٣٣] قال علي بن أبي طالب ؓ، وفي المجمع أنه المروي عن أئمة الهدى من آل محمد ؑ، أقول ومنه ما في تفسير البرهان: ٤ : ٧٦ محمد بن العباس بسند عن أبي الحسن ؑ قال قال أبو عبد الله ؑ في الآية وذكر مثله. أقول: ولقد أخرج الحفاظ وأرباب المسانيد والمؤلفون مثله كابن المغازلي في المناقب وابن عساكر في فلك النجاة والكنجي في كفاية الطالب ١٠٩ والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٥ : ٢٥٦ وأبو حيان في البحر المحيط ٧ : ٤٢٨ والسيوطي في الدر المنثور كما مضى، والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥١ والألوسي في روح المعاني ٣٠ : ٣ وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

ثم ولأنهم لهم ما يشاؤون من زوجات فلِمَ يشتهون زوجاتٍ آخرين، وهكذا تطلُّب عارم ناشئٌ إما عن فقدان ولهم ما يشتهون، أو عن طيش وعدوان: «ويخرج أضغانهم» ثم وكل هذه خلاف المجيء بالصدق والتصديق به!

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ مما يدلنا على أن المحور المعني في ﴿جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هم المرسل إليهم الذين يجوز عليهم السوء والأسوأ حتى يكفِّر، دون المرسلين المعصومين، فـ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ هنا راجع إلى بعض المعنيِّ من ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ إن كان يشمل الرسل.

ثم و﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ هو الإشراك بالله قبل الإيمان، حيث المجيءُ بالصدق والتصديق به أحسن الأعمال فيكفِّر الله به أسوأ الأعمال فضلاً عن سوئها، وهذه سنَّة ثابتة بالنسبة للأسوأ قبل الإيمان، ثم وبعده ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[1] دون توبة، ويكفر كذلك كبائر السيئات بتوبة وشفاعة، فهذا المثلث من الأسوأ مكفَّر لكرامة الصدق والتصديق به، ثم ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2] وهو الصدق والتصديق، ففيهما الأجر العظيم والتكفير العظيم، وكل ذلك من فضله العميم.

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴿٣٧﴾﴾:

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

من أسباب النزول أنهم قالوا للنبي ﷺ لتكُفَّن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتُجنِّنك فنزلت(١).

إن الله يكفي عباده الصالحين من نبيين ومتقين - على درجاتهم - من بأس الكافرين المتربصين بهم دوائر السوء، فأكفى الكفاية - إذاً - هو لأكفى النبيين ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢) ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٣).

إن هناك معركة مصيرية بين الداعية إلى الحق والقوى المضادة المرجفة لقلوب خوت أم تكاد، والله واعدٌ عباده الصالحين أن يكفيهم في كل بأس ينال من ساحة الرسالة والإيمان مهما كان برحمة الاستشهاد.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾! وكل من سواه ليس إلَّا دونه، وعبد الله لا يخاف في سبيل الله إلَّا الله دون مَن دونَه و«من خاف الله أخاف الله منه كلَّ شيءٍ ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»(٤).

أترى بعدُ أن هناك كافياً إلَّا الله، والكفاية تعني الاعتناء لحد عدم الحاجة إلى غير الكافي؟ كلَّا! إنما الكافي هو الله دون سواه حيث الكفاية تعني تمام الربوبية ولايةً ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾(٥) وعلماً ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾(٦) ووكالة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(٧) وشهادة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(٨) وخبرة وبصيرة

---

(١) المصدر أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال قال لي رجل قالوا للنبي ﷺ: . . . وعنه قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ليكسر العزى فقال سادنها وهو قيمها: يا خالد إني أحذركها لا يقوم لها شيء فمشى إليها خالد بالفأس وهشم أنفها.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٧. (٣) سورة الصف، الآية: ٨.

(٤) عيون أخبار الرضا عنه عليه السلام.

(٥) سورة النساء، الآية: ٤٥.

(٦) سورة النساء، الآية: ٧٠.

(٧) سورة النساء، الآية: ٨١.

(٨) سورة النساء، الآية: ٦٩.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[(١)] وحساباً ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[(٢)] وهداية ونصرة: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[(٣)] وقوّة وعزة: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[(٤)] وشهادةً على كل شيء: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٥)].

أترى هذه الصفات الأثنتي عشرة التي هي لزام الكفاية، توجد في غير الله، وحتى محمد ﷺ والأئمة الاثني عشر عليهم السلام حتى يصح الدعاء المختلَق «يا محمد يا علي اكفياني فإنكما كافياي» مهما صح «وانصراني فإنكما ناصراي» حيث الكفاية أخص من النصرة! إن ذلك لا يشبه شِرعة القرآن وسنة نبي القرآن، فـ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[(٦)]!



(١) سورة الإسراء، الآية: ١٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣١.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

يَسْتَهْزِءُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾:

هذا من أسؤلة الحجاج على المشركين المقرين أن الله هو خالق السماوات والأرضين، فلماذا - إذاً - يدعون مِن دون الله من يُخلق ولا يَخلق، ولا يكشف ضراً يريده الله، ولا يمسك رحمة يرسلها الله ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ في كشف ضر وإرسال رحمة، وكفاني الله عن كل بأس وزحمة و«عليه» لا سواه ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

فلماذا يخاف عبد الله ومن ذا يخاف وهو في سبيله إلى الله؟ فقد انقطع الأمل عن سواه وانقطع الخوف والجدل، إذ ليس له بدل إلا جنابه المتعال، فهو كاف عبدَه، وهو الرقيب على عبده، وهو الوكيل لعبده، وهذه هي الطمأنينة دون خيفة، والثقة دون زعزعة، والمضي في سبيل الله حتى النهاية دونما تخلف قيد شعرة.

ولفظة غير ذوي العقول «ما» وضمير الجمع المؤنث الراجع إليه «هن» تعريضان بأن ما يدعى من دون الله لا يَعقل، وهو في الأصنام والأوثان

مشهود، وفي الطواغيت معهود، حيث الطغيان على الله خلاف العقل، ثم في الملائكة والنبيين مردود، فإنهم لا يتقبلون أن يُعبدوا من دون الله، فكأنهم لا يعقلون عبادتهم إذ هم ناكرون! هم كانوا يخوِّفون الرسول ﷺ بمَن دون الله، وهو يخوِّفهم ونفسه بالله ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ...﴾؟ ثم يرسلهم إلى مكانتهم أن يعملوا على حدها هذه:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ضدي وخلاف ما أوحي إلي وأرسلت به إليكم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: منزلتكم وإمكانيتكم(١).

﴿ٱعْمَلُوا۟...﴾ فـ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي، معاركةً صاخبة كلٌّ على مكانته، رغم أني وحدي وأنتم كثرة، أنتم لكم أموال وليست لي أموال... ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عين اليقين، وليس بعد الموت فحسب بل وفي الدنيا ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ منا ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هو عليه لِزام دون فكاك.

وهذه مباهلة عملية مع الذين لا تنفعهم الدعوة بأيّة حجاج إلّا مزيد لجاج، وهذه نهاية المطاف لداعية الحق حينما تبلغ الحجاج ذروته، ولا يتقبل المدعو أية برهنة إلّا رداً بقوله الزور، وانتفاجةِ الغرور.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾:

﴿أَنزَلْنَا﴾ إنزالاً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ عليك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالحق، كتاب حق بإنزال حق على نبي حق ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بمثلث الحق ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ دون أن

(١) المكانة هي المنزلة وهي الإمكانية، وكلما كانت المنزلة أقوى فالإمكانية أوسع، فهذا تحدٍّ ذو بعدين أن كرِّسوا إمكانياتكم على مستوى منزلتكم علماً ومالاً وقوة أمّاذا.

ينتفع به الله ورسوله ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا على الكتاب الحق ورسول الحق والمرسل الحق ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تجرهم إلى الهدى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(١). إلى صراط مستقيم

و«للناس» هنا كما في غيرها دليل أنه «هدىً للناس» فهم - إذاً - قادرون على تفهُّمه فـ «للناس» تعلُّمه و«للناس» تطبيقه و«للناس» نشره، وأنت رسول الله إلى الناس بكتاب الله «للناس».

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

هذه هي الآية الأمّ دلالة على حقيقة الموت والحياة البرزخية بعد الموت، وتجاوبها بعض الشيء آية الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

أترى أن بينها وبين التي تجعل التوفي لملك الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ...﴾(٣) والتي تجعله لسائر الملائكة الرسل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾(٤) وأضرابها: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾(٥) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾(٦) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾(٧).

هل إن هنالك تهافتاً ثلاثياً؟ كلّا! فالمتوفى الأصيل للأنفس كلها طيبةً

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٥) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٦) سورة النحل، الآية: ٢٨.
(٧) سورة محمد، الآية: ٢٧.

وظالمةً هو الله، والموكَّل لذلك كعامل بأمر الله هو ملك الموت حيث يدير شؤون الأموات، ثم الموكَّلون تحت إمرته بأمر الله هم رسلٌ من الله! فلا محيي ولا مميت إلَّا الله، دون واسطة، أم بوساطة هو في غنيّ عنها، ولكن المتوفى لا يأهل أن يتوفاه الله دون وسيط.

فقد يتوفى الله دون وسيط من هو أرقى من ملك الموت وأعلى محتداً كالرسول الأقدس ﷺ ومن حذى حذوه، وليس حضور ملك الموت بمحضره حين التوفي إلَّا تشريفاً والمتوفى هو الله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[1].

«أما ملك الموت فإن الله يوكله بخاصته ممن يشاء من خلقه ويوكل رسله من يشاء من خاصته ممن يشاء من خلقه يدبر الأمر كيف يشاء وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس لأن فيهم القوي والضعيف ولأن منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله إلَّا أن يسهِّل الله له حمله وأعانه عليه من خاصة أوليائه وإنما يكفيك أن تعلم أن الله المحيي والمميت وأنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم»[2].

هنالك ثلاثية التوفي، من الله للرعيل الأعلى، ومن ملك الموت بإذن الله لمن يتلونهم الخاصة، ومن سائر الملائكة بدرجاتهم لسائر الناس بدرجاتهم أو دركاتهم، وإن كان الله هو المتوفى فيها كلها!

ترى وكيف يصح هذا التقسيم وآية ملك الموت تخاطب ناكري البعث: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ...﴾[3] ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٦.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤٨٩ ح ٦٥ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله: - ثم ذكر الآيات المذكورة في المتن - فإن الله تبارك وتعالى يدبِّر الأمر كيف يشاء ويوكل من خلقه من يشاء بما يشاء، وأما ملك الموت...

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٠.

﴿ٱلْمَوْتِ. . .﴾؟ ولكنه يعني التوفي بوسيط وليس إلَّا تحت رئاسة ملك الموت بأعوانه الملائكة الآخرين ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أو ﴿. . . ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فإنهما تفسران توفي ملك الموت أن ليس كله بيده دون وسيط، وكما تفسران مع سائر الآيات ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أن ليس كل توفيه دون وسيط.

إذاً فالمتوفى لأطيب الطيبين هو الله، وللخصوص منهم بعدهم هو ملك الموت، ولسائر الطيبين سائر ملائكة الموت، وللظالمين أنفسَهم أدنى الملائكة مهما كانوا كلهم معصومين فـ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

ثم ما هو التوفي، والأنفس المتوفاة هنا؟

ليس التوفي هو الإمامة نفسها، بل هو أعم منها حيث هنا يطلق على الإماتة: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وفي أخرى على أخذ الروح والجسم دون إماتة ولا إنامة عن هذه الكرة الأرضية إلى غيرها: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟. . .﴾[2] مع العلم أن المسيح حي يرزق حتى الآن: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[3] وحتى الآن ما آمن به المسيحيون كلهم فضلاً عن أهل الكتاب كلهم، فليكن حياً حتى الآن.

فالتوفي في معنى جامع لهذه الثلاث هو الأخذ وافياً، مهما كان المأخوذ هو الإنسان بروحه وجسمه كما في المسيح عليه السلام أم بروحه ككل كما في الإماتة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾[4] والموت لا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥.

يميت، أم بروحه بعضاً كما في الإنامة، فإيفاء الأخذ في كلٍّ بحسبه، إيفاءً للمأخوذ كوناً وكياناً، أجراً وجزاءً، دونما إبقاء هنا أو هناك، وكذلك الله يتوفى حين يتوفى وبعده، إيفاءً دون إبقاء.

والأنفس هنا ليست هي الأرواح بالأجساد، مهما كان المجموع نفساً، كما كل نفس، اللهم إلّا توفياً لهما بعد توفي الانفصال، فإنهما معاً في حفظ الله دون أن يضل منهما شيء: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ. . .﴾ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1] فلولا تعني توفي الجسم مع الروح لما كانت إجابة عن إشكال: ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ يعنون ضلال البدن بأجزائه.

فهنالك عند الإماتة توفِّيان متداخلان فـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ إذ يفصل الروح بكامله عن البدن، ويحفظهما بكاملهما عن الضياع والضلال، وقد لا تعني آية التوفي هذه إلّا الأول، ولا سيما أن النوم أيضاً هنا توفٍ ولا يؤخذ فيه الجسم.

إذاً فالأنفس في توفي الإماتة هي الأرواح بكاملها دون إبقاء، من إنسانية وحيوانية ونباتية، فهي تموت بذلك التوفي ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ ولا يعني موتها فوتَها، وإنما انفصالها عن أجسادها وبطلان تصرفاتها فيها، وإلّا فهي أحيى مما كانت في الحياة الدنيا، كما أن موت البدن - وهو ميت في نفسه - يعني انفصال الحياة عنه وبطلان انصرافه بتصرفات الروح، وأين موت من موت؟

النفس تذوق الموت لانفصال ولا تموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2] فما موتها هنا وفي أمثالها: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3] إلّا

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

ذوقاً للموت، أو يعني موت أبدانها اللّهم إلّا هنا حيث ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾: الأرواح ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾.

﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ كذلك الله يتوفاها، ولكنها ليست النفس الروح بتمامها، بل هي الروح الإنسانية المديرة المدبرة لحياة اليقظة، ثم تبقى الحيوانية والنباتية إبقاءً لأصل الحياة نمواً وانهضاماً لغذاء وتنفساً دون تحسُّس، فمعنى توفي النفس النائمة - إذاً - هو اقتطاعها عن الأفعال التميزية والحركات الإرادية كالعزوم والصعود وترتيب القيام والقعود وسائر الأفعال الاختيارية.

ويدمج النباتية في الحيوانية، وهي لزامها - فلأقل تقدير - لكل إنسان نفسان متحدتان متمازجتان في حياة، ثم تنفصل الإنسانية في حياة النوم، برزخاً مؤقتاً حتى اليقظة، وتنفصلان عنه عند الموت فتعيشان دون هذا البدن في الحياة البرزخية، وفي القيامة حياة أرقُّ وأرقى!

ثم بالنسبة لهذه التي لم تمت في منامها ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰٓ﴾ يمسك النفس الإنسانية المتوفاة لكيلا تنجذب إلى الحيوانية المُبقاة، حيث الإمساك يلمح إلى التجاذب بينهما للالتحام، تداوماً للحياة الدنيوية، فلولا الإمساك لانجذبت الإنسانية إلى الحيوانية، وبالإمساك ينعكس الانجذاب: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰٓ﴾.

فالتلاحم بين نفسي الإنسان لزامُ حياتهما هنا وفي البرزخ، فلا تعيش الإنسانية دون الأخرى، كما لا تعيش الأخرى دون الأولى، فـ«ما من أحد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس وإن أذن

الله في رد الروح أجابت النفس الروح...»[(١)] وسبب كشعاع الشمس أحسن تعبير عن التجاذب بينهما على فصال، فضلاً عن حالة الاتصال!

فكما ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ بتمامها، كذلك يتوفى ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ لأولاها ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وحتى يتم الموت ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ رجوعاً إلى الحياة، فقد يتحقق الموت في وصال للنفسين كحال اليقظة، أم في فصال لهما كحال الموت، يتوفى الأولى أولاً بالإنامة والثانية ثانياً بإمساك الأولى حتى تنجذب الثانية إليها.

إذاً فـ«النوم أخ الموت» ومثلٌ له يمثّله كبراعة إستهلال، فإنه تَوفٍّ كما هو، مهما افترقا بتوفي الروح كله أو بعضه فـ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ

---

(١) تفسير العياشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من عبد... وهو قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ فمهما رأت في ملكوت السماء فهو مما له تأويل وما رأته بين السماء والأرض فهو مما يخيله الشيطان وليس له تأويل (البرهان ٤ : ٧٧). وفي نور الثقلين ٤ : ٤٨٩ ح ٦٤ عن كمال الدين وإتمام النعمة بإسناده إلى داود بن القاسم الجعفري عن محمد بن علي الثاني عليه السلام قال: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم ومعه الحسن بن علي عليه السلام وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين متّكٍ على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلم على أمير المؤمنين فرد عليه السلام فجلس ثم قال: يا أمير المؤمنين أسألك عن ثلاث مسائل إن أخبرتني بهن علمت أن القوم ركبوا من أمرك ما أقضي عليهم أنهم ليسوا بمأمونين في دنياهم ولا في آخرتهم وإن تكن الأخرى علمت أنك وهم شرع سواء فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : سلني عما بدأ لك قال: أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى؟ وعن الولد كيف يشبه الأعمام والأخوال؟ فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام فقال: يا أبا محمد أجبه فقال عليه السلام : أما ما سألت عنه من أمر الإنسان إذا نام أين تذهب روحه فإن روحه معلقة بالريح والريح معلقة بالهواء إلى وقت ما يتحرك صاحبها لليقظة فإن أذن الله عزّ وجلّ برد تلك الروح على صاحبها جذبت تلك الروح الريح وجذبت تلك الريح الهواء فرجعت الروح فأسكنت في بدن صاحبها وإن لم يأذن الله عزّ وجلّ برد تلك الروح على صاحبها جذب الهواء الريح وجذبت الريح الروح فلم ترد إلى صاحبها إلى وقت ما يبعث...

وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى...﴾[١] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فحين نفكر في النوم والموت نجد بينهما تقارناً بفاصلٍ يخص الموت، فالنوم - إذاً - آية حسية مكرورة طول الحياة تدل على إمكانية الحياة مع الموت وبعده، معه حيث النائم ميت في نفسه حيٌّ في روحه، حياةً برزخية أولى، فلتكن في الموت حياة برزخية ثانية بعده وكما النائم يبعث باستيقاظ، كذلك الميت يبعث للحياة الأخرى بنفخ الصور.

وإرسال النفس بعد توفِّيها في المنام قضاءً لأجلها، آيةُ إرسالها بعد موتها قضاءً لأجرها.

واليقظة بعد النوم آية أن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وآية للرحمة المتواصلة الإلهية تقطع عن الإنسان معاذيره كيلا يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ...﴾[٢].

وكما أن راحة النوم عن حركات التعب ونهضات النصب آية أخرى تُخجل الإنسان أمام ربه إذ يذكِّرها، فليراقب أعماله بعده، وكما ترى في منامك رؤياءات صادقة لمكان تجرد أكثر مما في اليقظة، وهناك تنفتح لك شعبة من الوحي فترى ما لا تراه في اليقظة، كذلك - وبأحرى - بعد الموت حيث تتجرد أكثر من النوم، داخلاً في عالمِ تمامه الصدق، فترى ما لم تكن تراه في حياتك الدنيا يقظةً ونوماً، حيث تُكشف عنك غطاؤك كلها: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ...﴾[٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

اتخذوا من دونه آلهة ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ يشفعون لهم عند الله إذ يقولون: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»؟ «قل أ» تتخذونهم شفعاء ولو ﴿كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ لأنفسهم فضلاً عمن سواهم ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فكيف - إذاً - يملكون؟

ثم وليس كل من يملك شيئاً ويعقل هو يملك الشفاعة عند الله، فإن ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ في شرعة وتكوين، و﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

فهو الذي يُمَلِّك الشفاعة من يَمْلِكها على شروطها التي هو قرَّرها لا سواه، فكيف ترجون الشفاعة ممن ليس يملك شيئاً ولا يعقلون، وحتى إذا ملكوا وعقلوا و﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢) ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾(٣)!

فإنما الشفاعة في مُلك الله وعباده لمن يملك السماوات والأرض ثم إليه يرجعون، وليس إلَّا الله وحده لا سواه، فـ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ من أيٍّ كان، لأنه المَبدأ المبدع وإليه المعاد، فكيف يحق لأحد أن يشفع في ملكه وعنده إلَّا بإذنه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾(٤)؟.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

كلٌّ من الاشمئزاز والاستبشار غاية في بابه، : امتلاء القلب غماً تظهر آثاره في الوجه مغبراً، وامتلاءه سروراً تظهر آثاره في الوجه متهلِّلاً!

وهب هم يشركون بالله ما لم يأذن به الله، فلماذا يشمئزون من ذكر الله وحده ويستبشرون من الذين من دونه، تلك إذاً قسمة ضيزى، اشمئزازاً من الإله الأصيل الخالق، واعتزازاً بالشريك المختلَق، ذلك بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلهم ما يشتهون فيما يعبدون، وفي الحق ما هم بمشركين كما يدعون، بل هم موحدون لعبادة شركائهم، رافضون لعبادة ربهم، فهم - إذاً - أنحس من الملحدين الناكرين لله، العابدين لغير الله.

لا تقل إنهم مشمئزون - فقط - من توحيد الله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ ومستأنسون إذا ذكر مع شركائه، فإنهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ فهم يرفضون ذكر الله وحده ومع شركائهم، وإذا ذكروه معهم فإنما الهدف الأصيل شركاؤهم.

وهكذا نرى جماعة من الموحدين، أنهم لا يستأنسون بذكر الله استيناسهم بذكرى رسله وأوليائه، كما لا يأنسون بكتاب الله أنسهم بخليط الأحاديث من الغَث والسمين والخائن والأمين، وهذا شرك خفي في المؤمنين بالله قد يصبح ركاماً فيجلو: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾(١)!

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

الحاكمية بين المختلفين تتطلب حيطة علمية بسائر شروطها المتعاضلة المتفاضلة، ولذلك لا يحكم بين عباد الله أصالة إلّا الله، والرسول رسالةً

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

والأئمة ولايةً، والعلماء الربانيون - الأقرب منهم فالأقرب إلى ساحة العصمة القدسية - خلافةً عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما هو أعلم بهما ومَن فيهما كوناً وكياناً وفعلاً وافتعالاً، وهو ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الحاكم الوحيد القهار بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، حكماً في الدنيا بشرعته المبينة للحق، وحكماً في الآخرة ولا رسالة هناك ولا كتاب، اللهم إلَّا كتاب الشرعة والأعمال.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هنا المشركون والناكرون لحياة الحساب فالثواب والعذاب حيث ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ...﴾ كل ظلم و﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ...﴾[2]

فهم الذين لم يستجيبوا لربهم فـ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[3].

وهم الذين كفروا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٤، ٤٥.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٨.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[2] وملء الأرض ذهباً هي كل ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ فهذا مَثَل لعظيم الفداء يوم القيامة الكبرى، و﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ أيضاً في آيتها تعني المثال ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ...﴾[3] فلا تنافي بين مثلث الآيات: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ ... وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ و﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ حيث الكل أمثال عن كثرة الفداء.

ثم هنا استحالة في قبول الفداء من بعدين، فـ«لو» تحيل أن يكون لهم ما في الأرض، ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾[4] تحيل قبول أي فداء منهم مهما كان أطول الأضلاع في مثلّثه، هول ملفوف في ثنايا التعبير الرهيب لا حِوَل عنه بأية فداء وإن في صوَرها المستحيلة وحتى ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾[5].

ومع رد الفداء - لو كان - وبعده ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ من حق المبدأ والمعاد ووحيه الرابط بين المبدأ والمعاد، فلم يكونوا يحتسبون ذلك المستقبل العتيد الشديد، والاحتساب حكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، وهو خلاف الحساب فإنه افتعال من الحساب، وتكلُّف كاذب يناقض الحساب، وقد كانوا يحتسبون أن الحياة هي الدنيا، فلم يكونوا يحتسبون أن بعدها أخرى هي أحرى قضيةَ الحساب.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩١.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩١.
(٥) سورة المعارج، الآيات: ١١-١٤.

ثُم ومن ثَم ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ بعد ما كانوا عنها غافلين عمين: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

يوم الدنيا كانت سيئاتهم في احتسابهم حسنات، أم ما كانت سيئات إذ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[2] ثم في يوم الحساب يُكشف الغطاء عما عملوا ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إذ كانوا يستهزئون بالعذاب الحساب، فنزل بهم ما كانوا يحتسبون! مربع من ركام العذاب دون تفلُّت عنه ولا تلفُّت.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾:

هذه طبيعة الإنسان وسجيَّته، نسيان الله وذكر من سواه، فإذا مسَّه ضُرٌّ ولما يحلّ به - حيث المس ذريعة الحلول - هناك ﴿دَعَانَا﴾ أن نكشف الضر عنه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾[3] و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾!.

فرغم أن ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ هي مخوَّلة غير مملَّكة، فهي عطيةٌ مؤقتة فتنة ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ وهي «منا» لا منه، لا ذاتاً ولا استحقاقاً، بالرغم من كل ذلك ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حاصراً هذه العطية الربانية أنها آتية «على علم» مني وخبرة واستحقاق ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أكثر المُنعمين لا يعلمون أن نعم الله فتنة وكما أن نقمه فتنة ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٨.

إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ . . .﴾(١).

ومِن ثَم قليلٌ منهم يعلمون أنها فتنة، أترى أنهم المؤمنون حقاً فلا يغترون بنعمة، ولا ييأسون بنقمة، فهما لهم أمام الله على حدّ سواء، فهم راضون بمرضاة الله؟ وهناك من يعلم أنها فتنة ولكنه يفتن بها! ومنهم قلة قليلة يعلمون ولا يفتنون، ثم و«لا يعلمون» في الأكثر ليس إلَّا جهل التجاهل والغفلة، جهلاً عامداً دون قصور، حيث الجاهل القاصر معذور.

وليسوا هم بدعاً من قائلي هذه القولة فـ ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من أضرابهم وهم الأكثرية الساحقة في التاريخ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ على هذه القولة الجوفاء الخواء ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾ إصابة يوم الدنيا وأخرى يوم الدين ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الحاضرين وإلى يوم الدين ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ على سواء ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ الله.

نجد هذه الآية وأضرابها تكشف عن الفِطَر والعقول رُكام الأهواء الهاوية والشهوات الخاوية، تعريةً من العوامل المصطنعة، وتجريداً للإنسان في ضلاله عن كل حجة، ضارباً إلى أعماق التاريخ في الغابرين، ورابطاً بينهم وبين الحاضرين والذين يستقبلونهم إلى يوم الدين، حيث الكفر ملة واحدة، وفي علة واحدة، فإلى جهنم وبئس المصير.

وإنها تلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين، مَن هم أشد مِنهم قوة وأكثر آثاراً في الأرض وعماراً ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

ألم يعلموا بعدُ أنَّ نعم الله بلايا وامتحانات قد تبوء إلى امتهانات، فهي من الله على جهلهم لا منهم ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ منهم؟ فإن لم يعلموا:

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ١٥ - ١٧.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

وهذا أمر ملموس أنه هو الذي يبسط الرزق وهو الذي يقدر، فكم من كادٍّ في طلب الرزق الواسع، وعالم كيف يكسبه وقد قُدِر عليه رزقه، وكم من متبطِّل جاهل يأتيه رزقه واسعاً رغداً من حيث لا يحتسب.

وليس هذا التقدير استجاشة للبِطالة والعُطالة، وتجميداً للطاقات البشرية، فإنما أمرٌ بين أمرين، فلا أن بسط الرزق وقدْره رهينان - فقط - لسعي الإنسان أو همولِه، ولا أن الله يبسط الرزق ويقدر كفوضى جزاف تعمية للمساعي وهو القائل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

إنما عليك أن تسعى قدر الحاجة والاستطاعة، دون تحتيم على ربك أنه رازقك قدَر سعيك، أو يقتر عليك إن لم تسعَ قدر حاجتك وطاقتك، فإنما عليك السعي وعلى الله التكلان في منتوجات السعي.

سعة الرزق هي حصيلة معدات ليست كلها بيدك، فقد يعدها لك ربك إن رآه صالحاً لك أو في كل النظام، أم لا يعدها لخلوه عن صالح هنا أو هناك، ثم يسع الرزق لمن سعى دونك حيث يعدُّ له معداته الخارجة عن سعيه، إذاً فهو الذي يبسط وهو الذي يقدر، رغم واقع المساعي بمختلف درجاتها، إذاً فعليك الحركة قدر المستطاع وعلى الله البركة كما يشاء، زائدة على سعيك أم ناقصة عنه، فإن لم تسعَ اتكالاً على رازقك فما لك إلَّا ما لغير الساعين من جوع أم بُلغة الحياة أماذا؟

وفي تخلف المسببات عن أسبابها المعدة لها دليل صارم لا مرد له أن

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

في الغيب مسبِّباً للأسباب ليس لينتظم في خِيرَتنا تحت الأسباب، إلهاً واحداً يسبب الأسباب أم يبترها عن كونها أسباباً، وهو الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[1] رغم ظواهر الأسباب، تنظيماً للكون كأصلح ما يكون، وتدليلاً أن هنا مكوناً واحداً قديراً عليماً فوق الأسباب، خفياً وراء الأسباب.



(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾

هنا بعد الهول الرهيب للذين ظلموا وتقطّع الآمال، وتميّز الحال واضطراب البال، لا يغنيهم أي فداء عما ظلموا بما أسرفوا على أنفسهم، يفتح الله أبواب التوبة والأوبة والغفران بمصاريعها، حتى ليطمع أهل الكبائر العظائم في رحمة الله غير قانطين عنها، ولكنها فرصة متاحة بشروطها في أوانها قبل إفلاتها وفوات الأوان! حالة وسطى بين الخوف المطلق فإياس وإبلاس، وبين الرجاء المطلق فاللّامبالاة والارتكاس:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ . . . وَٱتَّبِعُوٓاْ. . .﴾:

وإنها أرجى آية في كتاب الله وأوسعها[١] تنزل في وحشي بن حرب وكل حرب ووحشي حين يُدعى إلى الإسلام، وهو يسترخص رسول الله ﷺ بما أسرف، فتنزل ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢] فلا يقنع لأنه شرط شديد فلعلي لا أقدر على هذا، فتنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٣] فكذلك الأمر «فلا يُدرى يغفر لي أم لا فهل غير هذا» فأنزل الله آية الإسراف هذه فأسلم فقال الناس يا رسول الله ﷺ: إنا أصبنا ما أصاب وحشي قال ﷺ: بلى للمسلمين عامة[٤].

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٣١ - أخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال قال علي أي آية أوسع فجعلوا يذكرون آيات القرآن ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ. . .﴾ [النساء: ١١٠] ونحوها فقال علي عليه السلام: ما في القرآن أوسع آية من ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ. . .﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٤) المصدر أخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند لين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه: يا محمد كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله ﴿إِلَّا مَن تَابَ. . .﴾ [مريَم: ٦٠] فقال وحشي هذا شرط شديد ﴿إِلَّا مَن تَابَ. . .﴾ فلعلي لا أقدر على هذا فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ. . .﴾ [النّساء: ٤٨] فقال وحشي هذا أرى بعد مشيئته فلا يدري يغفر لي أم لا فهل غير هذا فأنزل الله: ﴿يَٰعِبَادِيَ. . .﴾ [الزمر: ٥٣] قال وحشي هذا فهم فأسلم. . .

وفيه أخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن وحشي قال: لما كان من أمر حمزة ما كان ألقى الله خوف محمد ﷺ في قلبي خرجت هارباً أكمن النهار وأسير الليل حتى صرت إلى أقاويل حمير فنزلت فيهم فأقمت حتى أتاني رسول رسول الله ﷺ يدعوني إلى الإسلام قلت: وما الإسلام؟ قال: تؤمن بالله ورسوله وتترك الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله وشرب الخمر والزنا والفواحش كلها وتستحم من الجنابة وتصلي الخمس قال: إن الله قد أنزل هذه =

وما أحبها إلى الرسول ﷺ حيث يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية فقال رجل: يا رسول الله ﷺ فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ قال: ألا ومن أشرك ثلاث مرات[١] وظاهره الإشراك بعد التوحيد[٢] رغم أنه ارتداد ملياً أو فطرياً، ولا يتنافى وجوب قتل المرتد كما يقتل القاتل أمن ذا وتقبل توبته، وقتله من كفارته، فالآية - إذاً - تشمل مثلث الإشراك بالله دون سواه، فالله لا يغفر الإشراك لمن مات مشركاً، ويغفره لمن كان مشركاً ثم آمن، أم أشرك بعدما آمن، تقية أم ارتداداً.

ولأن ﴿ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تعم كافة الذنوب شركاً فما دونه فـ«يا عبادي» تعم كافة المذنبين مشركين ومَن دونهم، حيث ينظر إلى واقع العباد فينسبهم إلى نفسه، لا إلى عبادتهم حتى تختص بالعابدين وليس لهم الذنوب جميعاً، فالآية عامة في منطوقها، مهما كان المؤمنون أحرى بها.

ولأن الذنب هو الآخذ بذَنَب الشيء وهو كل فعل يُستوخَم عقباه، فلا يخص الصغائر، ولا الكبائر دون الشرك والكفر، والإسراف على النفس - وهو تجاوز الحد عليها - يشمل ثالوث الذنب دون إبقاءٍ، وقد عد الله تعالى التبنّي وما فوقه من دركات الكفر من الذنوب: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ...﴾[٣] وخرافة البنوة الإلهية

= الآية ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فصافحني وكناني بأبي حرب.

(١) المصدر أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أحب...

(٢) المصدر أخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة ووليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه فنزلت هذه الآيات وكان عمر بن الخطاب كاتباً فكتبها بيده ثم كتب بها إلى عياش والوليد والى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٨.

وسائر كفرهم من ذنوبهم، وكما ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[1]، وكل هذه وأضرابها إسرافٌ من المسرفين على أنفسهم لا على الله إذ لا تُنال ساحته بما يفتعله خلقه.

أترى كيف يغفر الشرك بين الذنوب جميعاً و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2]؟

إنه الغفران المطلق للشرك، أن يغفر من مات على الشرك كما قبله، لا مطلق الغفران حيث يُغفر الشرك قبل الموت، وآية الإسراف تعني مطلق الغفران، لا سيما وأن موردها التوبة عن الشرك قبل الموت، دون آية الشرك حيث تعني بعد الموت، ثم و﴿مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بلا فوضى جزاف.

أترى آية الإسراف تُسرف في غفران الذنوب دون شروط، من توبة أو شفاعة أمّا هيه من مكفراتها؟ وآية الشرك تربطه بمشيئة الله وقد تعني شروطاتها المسرودة في آياتها!

كلّا فإنها إضافةً إلى سائر آيات الغفران، المحدِّدة حدودَه، المقرِّرة شروطه، هنا تأمر بالإنابة إلى الرب، والإسلام له، واتباع ما أمر به، مما يجمع جملة شروطات التوبة ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾ ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً...﴾. إضافة إلى ذكر أمد التوبة أنه قبل الموت لا بعده، فإطلاق آية الإسراف مربوط بالتوبة أم أي مكفر قبل الموت، ولا سيما بالنسبة لذنب الشرك[3].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) الدر المنثور ٥: ٣٣٢ - أخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز لاحق بن حميد السدوسي قال: لما أنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿يَا عِبَادِيَ...﴾ [الزمر: ٥٣] قام نبي الله ﷺ فخطب الناس وتلا عليهم فقام رجل فقال: يا رسول الله والشرك بالله؟ فسكت فأعاد ذلك ما شاء الله فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] أقول: استثناء الشرك يخص بما بعد الموت لمن مات مشركاً.

وترى أنها تغفر حقوق الناس بجنب حقوق الله؟ وحقوق الناس لا تغفر إلّا بعد أن يغفر الناس! حيث «الذنوب ثلاثة فذنب مغفور وذنب غير مغفور وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه، ومن الذي لا يغفر مظالم العباد...»(١).

إنها مغفرة على شروطها المسرودة في محالها، وهذه هي الآية المطلقة الأمُّ في باب الغفران، تلميحاً إلى مثلث من شروطه جملة والتفصيل في سائر آيها دون إهمال ولا فوضى جزاف.

وآيها تمنع عن القنوط من رحمة الله ما كان للغفران مجال ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(٢) ولكن أكثر الناس ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾(٣).

وليست رحمة الله على سعتها تصيب إلَّا مَن يأهلها، قريباً أم بعيداً بدرجاتها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤) و﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٥).

إن الغفران رحمة لمن أسرف على نفسه ما لم تكن ظلماً على الصالحين، وتشجيعاً للإسراف يوم الدنيا وتعطيلاً للحساب يوم الدين، فلا تشمل - لأقل تقدير - الشرك وسائر الكفر لمن مات كافراً، مهما شملت ما دونهما بشروطاتها العادلة والفاضلة يوم الدنيا ويوم الدين.

والرواية القائلة: «والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون فيغفر لهم»(٦) حيث تُشجِّع على الخطأ معروضة على

---

(١) نور الثقلين ٤: ٤٩١ ح ٧٥.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٦) الدر المنثور ٥: ٣٣٢ - أخرج أحمد وأبو يعلى والضياء عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ =

القرآن والسنة القاطعة، فمضروبة عرض الحائط، كالتي تؤيس عباد الله عن رحمة الله[١] فما هو إلّا عواناً بين الخوف والرجاء، دون ترسُّل اللّامبالاة في الأخطاء رجاءً فوضى، ولا تمحُّل القنوط عن رحمة الله خوفاً مطلقاً، فإنما هو كما قال الله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ . . . وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ . . . وَاتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم. . .﴾.

و﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ تذكير بأنهم ليسوا إلّا عباد الله، و﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إسرافاً في التخلف عن عبودية الله نكراناً لله، أو إشراكاً بالله، أو كفراً بآيات الله ووحيه، أم تركاً لشِرعة الله كُلًّا أو بعضاً، إسرافاً يُقنط العبد عن رحمة الله ويهبطه يأساً إلى نقمته، ولكنه على إسرافه في أيَّة دركاته يبشَّر برحمة الله بعد ما ينهى عن القنوط منها، وقد ولج في العصيان ولجَّ في الطغيان، شارداً عن الطريق، مارداً عن الحق الحقيق، ويا لها من رحمة واسعة نَدِيَّة رخيّة، ولكنها ليست بفوضى رديَّة، فهناك الإنابة والإسلام للرب واتباع أحسن ما أنزل.

﴿وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

فلولا الإنابة قبل الموت فالعذاب بالباب وقد تقطعت الأسباب وحارت

= يقول: والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا . . . وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول: لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم.

(١) المصدر أخرج ابن الضريس وأبو القاسم بن بشير في أماليه عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: إن الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصيه ولم يؤمنهم عذاب الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره أنه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا خير في علم لا فهم فيه ولا قراءة لا تدبر فيها.

الألباب، والإنابة هي الأوبة إلى أفياء الطاعة بعد ما أسرف في تركها، رجوعاً إلى الله نوبة بعد نوبة مرة بعد أخرى.

ثم إسلاماً لله بعد إسلامه لغير الله، إسلاماً بقلبه وقالبه، بجوارحه وجوانحه، فلا يبقى من كونه ولا كيانه إلّا إسلامٌ لله، فأمّا أن يلفظ بالإنابة والإسلام وقلبه ساه وعمله واه، فما هي بإنابة وما هو بإسلام! ولماذا الإسلام بعد الكفر وأحرى منه الإيمان؟ لأنه بعد الطغيان فيناسبه الإسلام وهو قبل الإيمان ومعه وبعد الإيمان، درجات ثلاث من الإسلام ترجى على رِسلها بعد الإنابة، وأقلها التسليم في المظاهر خروجاً عن الطغيان.

فهيّا أيها المسرفون قبل فوات الأوان ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فإنما النصرة الرحمة قبل الموت ولمّا يأت العذاب.

فهيّا هيّا إلى الإنابة والإسلام، فالوقت غير مضمون، والرب غير ضامن، وقد يحل الموت وهنا الفوت ولات حين مناص، وقد أفلت الخلاص ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إذ لا توبة بعد الموت ولا أوبة بعد الفوت.

ثم كما ليس الغفران إلّا بشروط، كذلك الإنابة والإسلام هما على شروط:

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

وإنه القرآن ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ واجب الاتباع علمياً ومعرفياً وعقائدياً وعملياً ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ هنا أم بعد الموت ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ واجب الاتباع أو واقع العذاب، وقد تلمح بغتةُ العذاب بأنه عذاب الاستئصال ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾[1] أم ومعه عذاب البرزخ ومن ثم القيامة وأجمعُه

(١) سورة غافر، الآية: ٨٥.

ثالوث العذاب، وأيقنه الآخران، وأتقنه الأخرى، فاشعروا الإنابة الإسلام الاتباع ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً﴾ فلا يفيدكم شعور بعده إلَّا عذاباً فوق العذاب:

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾:

تفريطاً في طاعة الله وعبادته حيث ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أو تفريطاً في الإنابة والإسلام والاتباع، تقصيراً ذا بعدين ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ يتحسر عليه بعد فوات الأوان.

والجنب هو جانب الشيء إنساناً وسواه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ...﴾(١) ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾(٢) وقد يستعاد للسمت القريب والناحية: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾(٣) ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾(٤) أو يجرد عن القرب أيضاً كما عن العضو ويبقى السمت والسبيل ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾(٥).

ولأن الله سبحانه يتعالى عن الجَنبِ العضوِ، والسمت الناحيةِ، وحتى لو كان له هذا الجنب استحال التفريط فيه واقعياً وفي الإسراف على النفس، فلم يقل «أسرفوا على ربهم» إذ لا يُنال من ساحته أبداً! فجنبه - إذاً - قربه وسبيله ووجهه وجهته، تجريداً عن الزمان والمكان وكما في كل فعل أو صفة بجنبه سبحانه حيث يجرد كما يناسب التجرد الإلهي السامي.

إذاً فـ﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ هو قربه، وهو طاعته وعبادته المقربة إليه(٦) وهو

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٦. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٢. (٤) سورة النساء، الآية: ٣٦.
(٥) سورة الصافات، الآية: ٨.
(٦) كما في نور الثقلين ٤: ٤٩٦ ح ٩٤ في محاسن البرقي عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا العدل ثم خالفوه وهو قول الله عز وجل: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٦].

القريب لديه، وهو السبيل إليه، والمسرف على نفسه، مفرِّط في قرب الله فإنه قريب، وأقرب إليه من حبل الوريد، أفإسرافاً في عصيانه بمحضره؟ وهو مفرِّط في طاعته وعبوديته، وهو مفرط في رسله وأوليائه، الدالون إليه الحاملون أوامره، وهو مفرِّط في السبيل إليه رسولاً ورسالة وطاعة وعبادة.

إذاً فكل تخلف عن شرعة الله، أصلية وفرعية، إنه تفريط في جنب الله، إن في توحيده، أو رسالته، أمَّن يحملون رسالته وهم درجات.

فكما أن نكران الله والإشراك بالله وترك طاعته وعبادته تفريط في جنب الله، كذلك نكران الرسول القريب لديه، الدال إليه، تفريط في جنب الله، ذلك ونكران وصيه الولي وأوصيائه الأولياء تفريط في جنب الله وكما يروى متواتراً «جنب الله أمير المؤمنين عليه السلام» أو «نحن جنب الله»[(1)] بياناً لمصداق من جنب الله مختلف فيه بين الأمة، إلحاقاً له بجنب الرسالة المتفق عليها، مصداقاً ثالثاً من جنب الله بعد الله ورسوله.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٤٩٤ ح ٨٢ في خطبة لعلي عليه السلام وأنا جنب الله الذي يقول: . . . وفي المناقب لابن شهر آشوب أبو ذر في خبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبا ذر يؤتى بجاحد علي يوم القيامة أعمى أبكم يتكبكب في ظلمات يوم القيامة ينادي﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ وفي عنقه طوق من النار، وفي الكافي عن موسى بن جعفر عليه السلام في الآية: جنب الله أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك ما كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهي الأمر إلى آخرهم والقمي عن الصادق عليه السلام نحن جنب الله ورواه العياشي عن الباقر عليه السلام، وفي المناقب عن الصادق والباقر والسجاد والرضا عليهم السلام جنب الله علي، وفي بصائر الدرجات عن الصادق عليه السلام قال: أنا شجرة من جنب الله فمن وصلنا وصله الله ثم تلا هذه الآية، وفي كفاية الخصام ص ٤٣٧ يرويه من طريق إخواننا عن محمد بن إبراهيم النعماني عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وعن صاحب مناقب الفاخرة في العترة الطاهرة عن أبي بكر وعن إبراهيم بن محمد الحمدويني بإسناده عن خثيمة الجعفي عن الصادق عليه السلام، ويرويه من طريق أصحابنا عن محمد بن يعقوب عن موسى بن جعفر وعن أمير المؤمنين عليه السلام وعن أبي عبد الله وعن ابن بابويه عنه عليه السلام وعن محمد بن عباس الماهيار عنه عن آبائه وعنه عن الباقر عليه السلام وعن الرضا عليه السلام وعن الشيخ في مجالسه عن الباقر عليه السلام وعن ابن شهر آشوب عن زين العابدين والباقر والصادق وزيد بن علي عليهم السلام وعن الطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام ومحمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات والى سبعة عشر سنداً عنهم عليهم السلام.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ . . . وَأَسْلِمُواْ . . . وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ حذار ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ مسرفة غير منيبة ولا مسلمة ولا متبعة ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ. . .﴾ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ للدين والدينين(١).

وهذه قولة صادقة من المسرفين الساخرين، وقد تكون لهم أخرى كاذبة يكذبون بها ويعذبون:

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

وقد استحالوا تقواهم بما استحالوا هداهم من الله، قولة جارفة في بُعديها، إنهم كانوا مضطرين في إسرافهم، وكان مستحيلاً على الله هداهم ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى. . .﴾! وقولة ثالثة هي ترجٍّ للمحال ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

فإذا بجواب صارم عن هذه وتلك.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾:

﴿بَلَىٰ﴾ إنني هديتك و﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ التي بها يُهتدى ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ أنت في خيار دون إجبار ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ عنها بكل إصرار ﴿وَكُنتَ﴾ أمام هذه الآيات ويجنب الله ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم وجواب الكرَّة هنا أن لا جواب، أم ﴿قَدْ جَآءَتْكَ. . .﴾ من زمرة الجواب، وقد فصل في غيرها ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾(٢) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(٣) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ

(١) إن هنا مخففة عن المثقلة أي وإنني كنت لمن الساخرين.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[١] فـ ﴿قَدْ جَآءَتْكَ...﴾ إجمال عن هذين الجوابين وما أجملَه! فالمسرفون على أنفسهم هم متحسرون في ثالوثه المنحوس، بين متحسر على ما فرَّط في جنب الله، ومتقوّل على الله ما هو منه براء ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ ومترجٍّ مستحيلاً له على الله ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ والجواب لفظياً هو الجواب ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي...﴾ وعملياً:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

وقد تلمح ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بعد هذه القيلات، أنها قبل يوم القيامة، حين يرون عذاب الاستئصال، وحين الموت دون استئصال، وهما بداية رؤية العذاب المحتوم حين لا يرجون عنها إفلاتاً ولا محيداً، وقد يؤكده أن قولة الكذب على الله يوم القيامة غير مسموحة ولا ممنوحة، فكيف تقول نفس: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي...﴾ اللهم إلا سماحاً لمزيد العذاب، ليكون عذاباً فوق العذاب، وقد تلمح ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ أن هذه القولة الثالثة لنفس القائل الأول والثاني، بفارق أنها حين ترى العذاب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] والثانية قبل رؤية العذاب حالة الحساب، والأولى قبل الحساب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[٣] قولات ثلاث في حالات ثلاث لكل نفس مسرفة عليها.

ولأنهم واجهوا آيات الله بوجوه منكرة كافرة مستكبرة فهم يوم القيامة

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما سودوها قبلها ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؟ وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: «يُجاء بالجبارين والمتكبرين رجالاً في صورة الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله حتى يقضي بين الناس ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار، قيل: يا رسول الله ﷺ وما نار الأنيار؟ قال: عصارة أهل النار»[1] أتراهم - فقط - المتكبرين على الله؟ كلّا وهم في دركات حسب الدركات، من مستكبر على الله، أو على رسول الله، أم على أئمة الهدى أمناء الله، فـ«من ادعى أنه إمام وليس بإمام وإن كان علوياً فاطمياً»[2] هو ثالث ثلاثة بين المتكبرين، ومن ثمّ كل من ادعى مقاماً روحياً ليس له، كأن يحتل المرجعية العليا وفي العلماء من هو فوقه، مهما اختلفت عذاباتهم بحساباتهم، فمنهم مَن يخلد في النار مهاناً، ومنهم من يخرج بعد ما قضى منها وطَره، ومنهم من لا يدخلها.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾:

وكما يعذب الله الذين طغوا بطغواهم، كذلك ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بتقواهم، حيث فازوا بها فوزهم العظيم، فهو - إذاً - ينجيهم ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ دون أية فوضى هنا أو هناك، مهما كان هنا قضية الفضل وهناك قضية العدل ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3]!

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٣٣ - أخرج أحمد في الزهد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: . . . وفيه بسند عن النبي ﷺ قال: يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يشربون من عصارة أهل النار طينة الخبال، وفيه عن أنس عنه ﷺ: إن المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توابيت من نار يطبق عليهم ويجعلون في الدرك الأسفل من النار.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤٩٦ في كتاب اعتقادات الإمامية للصدوق وسئل الصادق عليه السلام عن هذه الآية قال: من زعم أنه إمام وليس بإمام، قيل وإن كان علوياً فاطمياً؟ قال: وإن كان علوياً فاطمياً، أقول: هذا من باب الجري والتطبيق على المصداق المختلف فيه، ورواه مثله في ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ﴾ لا سواه لا استقلالاً ولا مشاركة أو معاونة ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ﴾ جملة وتفصيلاً، جماعات وفرادى، وإحياء الأموات أمَّاذا من خلق يظهر على أيدي الرسل، كل ذلك من خلق الله يبرزها على أيديهم تدليلاً على اختصاصهم بالله ورسالاتهم عن الله ﴿وَهُوَ﴾ لا سواه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ خلقه ﴿وَكِيلٌ﴾ يكل أمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

وخالقيته لكل شيء مما أجمع عليه الموحدون، بل والمشركون أيضاً وكما سئلوا فأجابوا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ...﴾[2] وعلى حدّ المروي عن الرسول ﷺ: «ليسألنكم الناس عن كل شيءٍ حتى يسألوكم هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟ فإن سُئلتم فقولوا: كان الله قبل كل شيء وهو خالق كل شيء وهو كائن بعد كل شيء»[3] وإنما المسؤول عنه «مَنْ خَلَقه» هو المخلوق، لا كل شيءٍ لأنه شيءٌ، فالله الأزلي الذي هو قبل كل شيءٍ، والأبدي الكائن بعد كل شيءٍ، ليس من الشيءِ المخلوق حتى يسأل عنه «مَن خلقه»؟

فـ ﴿كُلِّ شَىْءٍۖ﴾ بقرينة ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ﴾ يعني كل شيءٍ مخلوق، ولو أنَّ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٨.
(٣) الدر المنثور ٥: ٣٣٣ - أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ...

كل شيء بحاجة إلى خالق، خالقاً ومخلوقاً، استحال وجود كل شيءٍ، حيث لا ينتهي إلى خالق غير مخلوق، إذاً فكل شيء أصبح مخلوقاً دون خالق، أم لا يوجد أي شيءٍ!

هذا السؤال المتعنت هو نظرية البعض من فلاسفة الماركسية، زاعماً أن الوجود - أياً كان - لا يستغني عن علة تعاصره، وافتراض موجود دون خالق يناقض هذه الضابطة.

وقد تغافلوا عن أن الحاجة إلى خالق ليست قضيةَ الوجود بما هو وجود، وإلَّا كانت المادة الأولية الأزلية على زعمهم بحاجة إلى خالق، وإنما هو الوجود الحادث المادي، يسأل عمن خلقه لأنه مخلوق، وهذا يهدم صرح أزلية المادة ويبني صرح الخالق الأزلي وراء المادة.

فوِجاه قولتهم «مَن خلق الله إذا كان هو الخالق لكل شيءٍ»؟ نقول: من خلق المادة الأولية إذا كانت هي المتطورة والمطوِّرة لكل شيءٍ. وجوابهم: إن المادة خالقة غير مخلوقة لأنها أزلية، هو جوابنا وبأحرى: إن الله خالق غير مخلوق لأنه أزلي كما برهن به الرسول ﷺ في حجاجه المنيرة، وإذا كان الله خالق كل شيءٍ، فكل شيءٍ فقير إليه لا يملك لنفسه شيئاً، إذاً ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يكل أمره فيما يكلُّ في أمره، ولولا وكالته على كل شيءٍ، إيكالاً لها إلى أنفسها، لزال كلُّ شيء، أو كلَّ كل شيءٍ فيما يُصلحه ويدبر أمره.

أترى ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ هنا وهناك يعم أفعال العباد؟ إذاً فهم مسيَّرون فيها لا حيلة لهم، فلماذا يثابون أو يعذبون؟! أقول: لا ونعم، لا - حيث الشيءُ يعني شيءَ الذات، لا وشيءَ الفعل مما له فعل، وحيث يعنيهما أيضاً فلا - حين يُعنى خلقاً لها ينافي التخيير، ونعم - حين يُعنى أنه الخالق للمختار واختياره وفعله بالاختيار.

فالفعل المختار له نسبة إلى الفاعل المختار حيث اختاره دون إجبار، ونسبة أخرى إلى خالق كل شيءٍ، إذ لولا إرادته بعد إختيار المختار لما حصل الفعل المختار، فإنه «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» وبعد كل ذلك فالخلق هو التقدير وهو منه على أي تقدير، في شيءِ الذات وشيءِ الفعل دون أن ينافي الاختيار، فالله هو المقدر تخييراً دون تسيير حيث يحضِّر مقدمات الأفعال إبقاءً لحال الاختيار وحولِه.

ثم ترى كلُّ ممكن شيءٌ لإمكانية وجوده، فليُخلق ما أمكن إيجاده، ولكنه لم يُخلق إلَّا ما يصلح في تقدير الحكيم دون سائر ما أمكن؟

نقول: كل شيء هو كل ما يوجد أم وجد أو هو موجود، وهو بطبيعة الحال صالح لأن يُخلق، لا كل ما يمكن إيجاده، إلا بتأويل أن بإمكانه وفي قدرته أن يخلق كل ممكن، ولكنه لحكمته لا يخلق إلَّا ما يصلح في نظام التكوين!

وليس - فقط - خالق كل شيءٍ وكيلاً عليه ثم لغيره تدبير كل شيءٍ أم بعض الشيءِ، بل و:

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿لَّهُۥ﴾ دون «وله» تلميحة إلى أن ذلك لزام خالقيته لكل شيء ووكالته على كل شيءٍ، ثم وتقديمه على «تقاليد. . .» يحصرها له دون سواه، فليست مقاليد السماوات والأرض لمن سواه استقلالاً أم مشاركة أم معاونة.

والمقاليد واحدها مِقليد، كما الأقاليد واحدها إقليد وهما بمعنى، أهو المفتاح؟ ولفظه «مفاتيح» كما آيتها، بل هو من القَلد الفتل، والمِقلاد مبالغة الفتل، وهو أبلغ تطويق لما ينفصم بطبعه.

فالسماوات والأرض بأمورهما، المنفتلة في ذاتها، هي منفتلة لأبلغها

بارادة الخالق لكل شيءٍ، الوكيل على كل شيءٍ، والسماوات والأرض، صيغة أخرى عن كل شيءٍ.

فكما أن الله هو خالقهما، كذلك له مقاليدهما صداً عن الانفلات، وسداً عن الانفراط، وحجزاً عن التفريط والإفراط.

فله - لا سواه - رتقهما وفتقهما، وله فتح أبوابهما بخيراتهما وبركاتهما من إدرار الأمطار وإيراق الأشجار وسائر وجوه المنافع وعوائد المصالح، مادية ومعنوية أمّا هيه.

فـ ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾(١) ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾(٢) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ...﴾(٣) مقاليد ومفاتح وخزائن من الغيب والشهود، فهو الذي يرتق وهو الذي يفتق فـ ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ...﴾(٤).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في هذا البين، فإن لهم كل رين وشين، إذ لم يفتحوا صفحات قلوبهم ووجوههم إلى آيات الله فيعتبروا بها ويتبصروا.

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

فبعد أنه الخالق لكل شيء، الوكيل على كل شيء، وله مقاليد كل شيء، ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ أن ﴿أَعۡبُدُ﴾ خلقه ﴿أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ الغافلون المتجاهلون، عرضاً سخيفاً سحيقاً نابعاً عن الجهل المطلق المطموس والقلب المركوس

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٧.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢.

المعكوس، تأمروني أن أعبد غيره وأتركه، أو أن أشرك به غيره في عبادته، وهذه وتلك إذاً قسمة ضيزى وضلال مبين، وكما سوف تعترفون حينما أنتم في النار تسجرون: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾(١).

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾:

الشرك أياً كان ومن أيٍّ كان وأيان يحبط العمل إلَّا إذا كان قبل العمل الصالح النابع عن إيمان لاحق، ومن الشركِ الرئاءُ، فإنه يُحبط العمل المراءى فيه حتى وإن كان الرئاء بعده، أم قبله ولمَّا يتوب عنه، وكما يستفاد ذلك الإطلاق من آية الكهف ﴿... فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٢) آيتان تتجاوبان في ذلك، ولكن الثانية خاصة بالإشراك الرئاء، والأولى تعمُّه والإشراكَ بالله.

فالإشراك بالله أم في عبادة الله لا يقبل المصلحية، أن يشرك الداعية مغبة أن يميل المدعو إلى توحيد الله ولن، إذ لو كانت نيته صالحة لما تطلَّب من الداعية إشراكاً يميل - كما يدعي - إلى تركه، وحتى إذا صدق في قولته فلا مبرر أن يفسد الداعية نفسه لإصلاح غيره فـ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾(٣).

أترى النبي - على توحيده القمة الصارمة - يشارف أو يقارف إشراكاً بالله حتى يُتهدد ومَن قبله من المرسلين ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾؟ إنه - لو كان - لم يكن إلَّا مصلحياً ظاهراً جذباً للمشركين إلى توحيد الله كما تطلبوه إليه، أم

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

هو من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة»[١] لكي يسمعه المشركون عن هذه الإذاعة القرآنية فيقطعوا آمالهم فلا يطلبوا إليه مشاركتهم في إشراكهم لفترة، ويسمعه المسلمون فيعلموا أن إشراكهم بعد الإيمان أحرى بالإحباط، إذا كان النبي ﷺ على محتده يحبط عمله لو أشرك ولن[٢]، فلا يعني «إياك أعني واسمعي يا جارة» أنه ﷺ ليس هو المعني بالخطاب، بل يعني تعميم الخطاب لغيره بالأولوية حين يعنيه[٣] وهذا لا ينافي العصمة حيث الخطاب يعني مثل قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[٤] فالعصمة ليست لتنافي التكليف بالواجب وترك الحرام مهما لن يترك الواجب ولن يفعل الحرام.

ففي ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ إذاً ثلاث واجهات، تكليف النبي استمراراً لترك

---

(١) نور الثقلين ٤: ٤٩٧ ح ١٠٠ عيون الأخبار عن ابن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله ﷺ أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول الله – إلى أن قال -: فأخبرني عن قول الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] قال الرضا عليه السلام هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله بذلك نبيه وأراد به الأمة وكذلك قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٧٤] قال: صدقت يا بن رسول الله ﷺ.

(٢) ومما يقرِّبه ما في مناقب ابن شهر آشوب عن صحيح الدارقطني أن رسول الله ﷺ أمر بقطع لص فقال اللص: يا رسول الله قدمته في الإسلام وتأمره بالقطع؟ فقال ﷺ: لو كانت ابنتي فاطمة فسمعت فاطمة فحزنت فنزل جبرائيل بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥] فحزن رسول الله ﷺ فنزل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبيَاء: ٢٢] فتعجب النبي ﷺ من ذلك فنزل جبرائيل وقال: كانت فاطمة حزنت من قولك فهذه الآيات لموافقتها لترضى، أقول: هذا من باب الأولوية أن لو أخذ النبي ﷺ بإشراك وسواه فغيره أحرى دون أن ينظر إلى محتده ومنزلته.

(٣) القمي عن الصادق عليه السلام أن الله عز وجل بعث نبيه بإياك أعني واسمعي يا جارة والدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٦] وقد علم الله أن نبيه ﷺ يعبده ويشكره ولكن استعبد نبيه بالدعاء إليه تأديباً لأمته.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

الإشراك، وقطعاً لآمال من يريدون منه الإشراك مغبة إيمانهم، وتهويلاً للمؤمنين أنهم مأخوذون بالتكاليف الإلهية وبأحرى حين يؤخذ النبي بها، فـ«إياك أعني» في الواجهة الأولى «واسمعي يا جارة» في الأخريين! يبدأ صراحاً بالأنبياء عليهم السلام - وهم لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً - تنبيهاً لمن سواهم إلى تفرد ذات الله بالعبودية له وتوحُّد الخلق في مقام العبودية بمن فيهم الأنبياء دونما استثناء، والتأكيد في «ليحبطن ولتكونن» يؤكد التهديد بالنسبة للآخرين إذا كان يشمل الرسول ﷺ لو أشرك!

والإشراك بالله هو القمة المعنية هنا في إحباط العمل، ويتلوه الإشراك برسول الله ﷺ وخلفائه المعصومين سلام الله عليهم أجمعين في التأويل والمصداق الخفي المختلف فيه[1]، وكما تختلف دركات الإشراك الظلم فكذلك دركات الإحباط حسبها.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾:

لا تعبد غير الله ولا تشرك بالله ﴿بَلِ ٱللَّهَ﴾ لأنه الله الواحد ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾ ﴿وَكُن﴾ في توحيد العبادة ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله.

فلو سُمِح لك أو أُمِرتَ أن تعبد غير الله وأنت أعلى وأرقى من كل مَن سوى الله، لحبطت منزلتك، ولو كان على مستواك كان ترجيحاً عليك دون مرجح، وحتى لو كان أعلى منك كان ظلماً للحق، بل إن هذا الثالوث كله من الشرك ظلم فإن الشرك لظلم عظيم وضلال مبين ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ...﴾[2].

---

(١) المصدر في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحكم بن بهلول عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: يعني إن أشركت في الولاية غيره ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٦] يعني بل الله فاعبد بالطاعة وكن من الشاكرين إن عضدتك بأخيك وابن عمك.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

إذاً فاترك غير الله ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ في أن أمرك بتوحيده، وفي عبادته، فأين التراب ورب الأرباب، فلأنه أكرمنا وسمح لنا - بل وأمرنا - أن نعبده لا سواه، لنستظل بظل رحمته ونخطو خطوات، لذلك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ في ألوهيته وهم يشركون به بعض خلقه، ولا يعبدونه حق عبادته، ولا يطيعونه حق طاعته متجاهلين عظمته ومحتده.

ثم ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في ربوبيته ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ...﴾[١] وعلى الجملة ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٢] فقوته وعزته تقتضيان توحيده وإنزال وحيه بياناً لكيف يوحدون ويعبدون؟

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ حيث يرجعون إليه في قيامته ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾.

فنكران توحيد الله تضييع لقدره، ونكران وحيه تضييع لقدره، ونكران قيامته تضييع لقدره، وكل ذلك من الإشراك به ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾!

وقدْر الشيءِ منزلته المتميز بها عن غيره، ولكل شيءٍ قدر محدود جعله الله له ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[٣] ولكن الله ليس له قدر مجعول ولا محدود، فباطلُ قدرِه أن يقدَّر بقَدَر المخلوقين كما يفعله المشركون وأدنى، وحق قدْره أن يوحّد في كونه وكيانه، في ألوهيته وربوبيته، وفي أنه المبدأ وإليه المعاد، وله ما بين المبدأ والمعاد.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٤.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ علّها هذه الأرض جميعها؟ أم جنس الأرض بسبعها المستفادة من آية الطلاق: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(١) وهي أحرى، حيث المقام مقام الجمع في قيامة التدمير والتعمير يوم الجمع، فلماذا تفلت الأرضون الستة الأخرى عن هذا الجمع، وقد لا تشملها السماوات أم يبعد؟ ثم التأكيد ﴿جَمِيعًا﴾ لا يأتي إلّا للجمع، فلا يقال جاء زيد جميعاً.

وترى ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ ليست قبضته يوم الدنيا حتى تكون ﴿قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ...﴾؟ إنه أقبض الأرضَ عبادَه يوم الدنيا عارية مضمونة، دون أن يتخلى عنها في مِلكها، ولكنها يوم الأخرى تخرج عن هذه القبضة العارية، فهي هنالك له مِلك خاص قد ارتفعت عنها أيدي المالكين من بريته، والمتصرفين فيها من خليقته، وقد ورث تعالى عباده ما كان أودعهم من ملكها يوم الدنيا، فلم يبق مِلك ولا مالك إلا بطن.

وليست قبضته - فقط - ملكَه، بل وجمعها بعد بسطها، وتدميرها بعد تعميرها، وكما ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ جمعاً لأقطارها، وطياً لانتشارها: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾(٢) فـ«يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض»(٣).

وإنها ليست القبضة الإلهية قبضة اليد الجارحة، كما ليس طي السماوات بيمينه الجارحة، وإنما هي القدرة اللّامحدودة، فمن قال إنها قبضة الأنامل ما قدره حق قدره(٤).

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٣) الدر المنثور عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . .

(٤) الدر المنثور أخرج عن ابن عباس قال: مرَّ يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس قال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع السماوات على ذه وأشار بالسبابة: والأرضين على ذه والجبال=

فـ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ عن اليد الجارحة بأناملها ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عن أن يشرك به غيره أو يشبه بغيره ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[١]:

هذه أصرح آية في الجمع بين نفختي الإماتة والإحياء، ثم لا نرى صريحة فيهما إلَّا لإحداهما، والأخرى هي الأكثر، ومن الأولى وهي الأقل منها: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ...﴾[٢] وقد عبر فيهما عن الموت الناتج عن النفخة الأولى بالصعقة والفزع.

والنفخة هي الصيحة وهي كما هي مرتان للإماتة والإحياء، طالما بينهما معاكسة في قلة الذكر وكثرتها في الذكر الحكيم، فالنفخة أكثرها في الإحياء والصيحة في الإماتة.

و﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ هنا دليل على أن الأولى هي نفخة الإماتة وصيحتها، والتعبير عنها بالصعقة، علَّه تلميح أنها صعقة الروح حيث الجسم لا يصعق، والموت بخروج الروح عن البدن - وهو حي في برزخه - ليس صعقة، لا للجسم ولا للروح، ثم و﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حيث

= على ذه وسائر الخلق على ذه كل ذلك يشير بأصابعه فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] أقول: وأخرجه مثله عن مسروق عنه ﷺ وخلافه المروي عن ابن مسعود عنه ﷺ مضروب عرض الحائط أنه جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ وما قدروا الله...

أقول: ضحكه كان تنديداً وكما تندد به الآية.

(١) راجع الجزء ٣٠ من الفرقان تجد تفاصل النفخ في الصور.

(٢) سورة النمل، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

تعم الأحياء هنا وفي البرزخ وهم أمواتٌ عما هنا، لمحة كدلالة ثانية أن الأرواح هي المُصعقة وفَزِعة كما في آية النمل.

ففي النفخة الصيحة، ليست لتموت - فقط - الأبدان، فإن أهل البرزخ منهم قد ماتت أبدانهم من ذي قبل، ولأن الأرواح يغشى عليها دون موت، لأنها نفخة الإماتة ومِن ثَمَّ الإحياء، بل إنها تموت في غشيتها وصعقتها، فلا أن لـ«مَن في السماوات والأرض» صعقة دون موت ولا موتة دون صعقة.

وإنما جمع بين الأمرين، طالما الأحياء - إذاً - لا برزخ لهم، والأموات تموت أرواحهم في البرزخ كما الأحياء هنا دون برزخ، فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حس ولا محسوس...[1].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حيث يظلّون دون صعقة ولا فزعة، سواء الأحياء منهم - حينئذ - والأموات، فلا موت لهم بمعنى الفوت في هذه الفترة لكرامتهم على الله، ولأنهم وجه الرب ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2] فكما الله حي لا يموت، كذلك وجه الرب، ومنه هؤلاء الأكارم الذين كانت حياتهم في كل وجهاتها وجنباتها في وجه الرب، فهم - إذاً - باقون ببقاء الله، لا تصعقهم الصعقة ولا تفزعهم الفزعة.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٥٠٢ ح ١١٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل: أفتتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟ قال عليه السلام: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور - فعند ذلك... ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها وذلك أربعمائة سنة تسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين، وقد يقربه ح ١١٥ عن إرشاد المفيد ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وآله من تبوك إلى المدينة قدم عليه عمرو بن معدي كرب الزبيدي فقال له النبي صلى الله عليه وآله: أسلم يا عمرو يؤمنك الله من الفزع الأكبر فقال: يا محمد! وما الفزع الأكبر فإني لا أفزع! فقال: يا عمرو! إنه ليس كما تظن وتحسب أن الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت إلا نشر ولا حي إلا مات إلا ما شاء الله ثم يصاح بهم صيحة أخرى فينشر من مات ويصفون جميعاً...

أقول: النشر الأول هو موت الأموات بأرواحهم، والنشر الثاني هو حياتهم بالصيحة الثانية.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

أترى من هم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؟ لا ريب أن منهم الرعيل الأعلى من أصفياء الله، وهم الواحد والاثنان والخمسة والأربعة عشر(١) المعصومين المحمديين صلوات الله عليهم أجمعين.

وعلَّ منهم سائر أولي العزم وكما في المسيح عليه السلام ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٢) فإن الحي لا يبعث حالة الحياة إلَّا أن يكون من ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وإلَّا كان حق القول «أبعث ميتاً» فـ ﴿أُبْعَثُ حَيًّا﴾ انتقالة من الحياة البرزخية إلى الآخرة، ومن ثم يحيى عليه السلام كما فيه: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(٣) بنفس الدلالة، أمَّن ذا من أضرابهما بين النبيين.

وإذا كان الشهداء ممن شاء الله كما يروى(٤) فأحرى بالنبيين والصديقين وهم أفضل منهم أن يكونوا ممن شاء الله، وقد تلمح آيتا حياتِهم عند ربهم أنهم ممن شاء الله، فلتكن حياةً تخصهم بين الأموات فإن لهم حياةً عامةً يصعقون عنها إلَّا من شاء الله.

وإذا كان الشهداء وهم الدرجة الثالثة من الأصفياء ممن شاء الله، فليكن منهم جبرائيل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش وكما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٥) كما منهم كافة النبيين فإنهم قبل الشهداء بدرجتين اثنتين.

---

(١) الواحد هو الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاثنان هو وعلي، والخمسة هما وفاطمة والحسنان، والأربعة عشر هم والتسعة من ذرية الحسين عليه السلام.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٣.

(٣) سورة مريم، الآية: ١٥.

(٤) كما في الدر المنثور ٥: ٣٣٦ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: سأل جبرائيل عن هذه الآية... (من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم)؟ قال: هم الشهداء مقلدون بأسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة عليهم السلام يوم القيامة بنجائب من ياقوت...

(٥) المصدر أخرج الفريابي وعبد بن حميد وأبو نصر السجزي في الإبانة وابن مردويه وأنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾ ونفخ في الصور فصعق... قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله؟ قال: جبريل و...

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا قد تلمح أن ليس الفصل بين النفختين بقليل، و﴿يَنظُرُونَ﴾ هي نظر العيون ونَظِرة القلوب، حيث ينتظرون ماذا يؤمر لهم من رب العالمين بعد نفخة الإحياء، حالات متتابعة لا تدافع بينها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[1] مسرعين ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[2] فإنهم بعد نسْلهم إلى ربهم أفواجاً لموقف الحساب، قيامٌ ينظرون حسابهم، وهنا:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩)﴾:

الأرض هذه ليست هذه الأرض، حيث ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾[3] ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[4] وإنما هي أرض القيامة الساهرة ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[5] وهي أرض الحشر الحساب، ومن ثم أرض الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[6] أم أرض النار.

وترى أن ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ هو ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[7] كما في آية النور؟ وهذا كائن منذ خلق الله الخلق ما هي كائنة! ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ هي إشراقة بعد النفخة الثانية! ونور الله أعم من نور الرب حيث تضمن ربوبيته! اللهم إلّا

---

(١) سورة يس، الآية: ٥١.
(٢) سورة النبأ، الآية: ١٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٤.
(٥) سورة النازعات، الآية: ١٤.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٧) سورة النور، الآية: ٣٥.

نور الهداية الخاصة زمن الدولة الأخيرة الإلهية بالقائم المهدي عليه السلام حيث تتجمع أنوار الرسالات الإلهية فتشرق الأرض بعد ظلامتها حيث تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً[١]؟ ولكنه قبل القيامة الكبرى، وإن كان من مصاديق ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ جرياً وتأويلاً.

أم هي نور ربوبية الحساب عدلاً وفضلاً حيث يكشف الغطاء عن الأبصار: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢] وعن المبصَرات والمسموعات: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[٣] نور مطلق لا ظلام معها حيث ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٤] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[٥] ولكي يتم نور الربوبية لأهل الحشر في الحساب: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: كتاب الشرعة ميزاناً وكتاب الأعمال ليوزن به.

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ سؤالاً عن رسالتهم ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٦] واتقاءً لشهادتهم: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[٧] ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ بعدهم من الصديقين

---

(١) نور الثقلين ٤: ٥٠٣ ح ١٢١ عن القمي بسنده عن المفضل بن عمر أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول في الآية: رب الأرض يعني إمام الأرض، قلت: فإذا خرج يكون ماذا؟ قال: إذاً يستغني الناس عن ضوء الشمس ونور القمر ويجتزون بنور الإمام، ورواه مثله في إرشاد المفيد عنه عليه السلام: إذا قام قائمنا...

أقول: لأن النور هنا هي نور الهداية التي يحملها القائم عليه السلام فقد يصح نسبتها إلى الإمام مهما كانت من الله تعالى.

(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٧) سورة النحل، الآية: ٨٩.

المعصومين كأئمة الدين: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ. . .﴾[1] [2].

فالأئمة عليهم السلام شهداء من الرسول على الناس، وشهداء لأعمالهم تلقياً وإلقاءً، وشهداء في سبيل الله، فمَن أحرى منهم - إذاً - في حظيرة الشهادة، وقد تعم الشهداء كل مستشهد في سبيل الله حيث هي جمع الشاهد والشهيد، فلتعهما معاً: الشاهد الشهيد وغير الشهيد.

وكذلك سائر الصديقين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ. . .﴾[3]. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾[4].

ومن الأرض بأكنافها وفضائها ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾[5] ومن الأعضاء: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[6] أمَّن ذا وماذا من شهداء؟

وهنالك. . . وقد تمت شروطات القضاء العدل محكمة وشاهداً ومشهوداً عليه وأعمالاً، حيث ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ الناصع الخالص دونما تخطٍّ ولا خطأ قيدَ شعرة ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ نقيراً ولا فتيلاً.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) تفسير البرهان ٤ : ٨٨ ح ٤ القمي قال قال في الآية الشهداء الأئمة والدليل على ذلك قوله في سورة الحج: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ. . .﴾ [الحج: ٧٨].

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

(٥) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.

(٦) سورة النور، الآية: ٢٤.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾:

وهنا ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ دون «جزاء ما عملت» دلالة واضحة على أن الأعمال - خيراً وشراً - هي بنفسها الجزاء، بما تظهر في ملكوتها وحقائقها، حيث ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ و﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]؟.

ثم - وكل هذه الشهادات بحذافيرها ليست لتثبت شيئاً عند الله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ بل ولكي يعلم العاملون أن الله كان عليماً بما يعملون، ويعلموا هم ما ربما كانوا ينسون أو يجهلون فلا يكذّبون.

هنالك يصدر حكم الرب دون نقاش وجدال، فإنه مشهد النور والظهور، بشاهد العدل والرب النور، فلا كلمة تقال، ولا صوت يرتفع، فمن ثم:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾:

هنا زُمَر النار ومن ثم زمر الجنة، فليس كلٌّ زمرةً واحدة، حيث الكفر دركات فزمر النار دركات، كما التقوى درجات فزمر الجنة درجات. للنار ﴿سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[2] وللجنة ثمانية.

والزمرة هي الجماعة، فهنا جماعات وهنالك جماعات بفارق مختلف الدركات والدرجات، ولأن النار طباق سبعة ولها سبعة أبواب فعلّ أهلها سبع جماعات، بفارق مختلف الشيطنات.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

من شيطان - وبقر - وثعلب فهذه ثلاث، ومن شيطان بقر، أو شيطان ثعلب - أو ثعلب بقر وهذه ثلاث أخرى، ومن شيطان ثعلب بقر، جامعاً ثالوث الشيطنات فإنه في الدرك الأسفل من النار[١] فلكلٍّ درك شيطانه، يدخل من بابه فادخلوا ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ...﴾ وقد تكون أسماؤها المأثورة تناسب دركاتها[٢] وسوق هؤلاء الزمر إلى جهنم سوف يكون مهاناً ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[٣] ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[٤].

أترى الذين كفروا تشمل أصحاب الكبائر غير التائبين ولا المشفع لهم؟ وهم بين مسلمين ومؤمنين أمّن هم مِن غير الكافرين! وليسوا هم من الذين كفروا مستكبرين وفي جهنم خالدين والآية تعنيهم!.

أم هم من الذين اتقوا؟ وقد طغوا هؤلاء وبغوا، وأين الذين اتقوا من هؤلاء الذين طغوا مهما كانوا في زمرة المؤمنين أو المسلمين!

إنهم عوانٌ بين هؤلاء وهؤلاء، فلا هم من أهل الجنة بهكذا تكريم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ...﴾[٥] ولا من أهل النار مستكبرين وخالدين، فإنهم آخر مصيرهم الجنة مهما دخلوا النار، أم عُذبوا قبل النار، فإنه قضية العدل جزاءً وفاقاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ فأبوابها مغلقة - إذاً - قبل أن يجيئوها، خلاف أهل الجنة، فإن أبوابها مفتوحة قبل أن يجيئوها لمكان

---

(١) وهذه خصائل الإنسان المرذولة المقسمة إلى سبع.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٠٤ عن المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام أن جهنم لها سبعة أبواب إطباق بعضها فوق بعض ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال هكذا، وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنم وفوقها لظى وفوقها الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية.

(٣) سورة الطور، الآية: ١٣.

(٤) سورة مريم، الآية: ٨٦.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[١] حيث الواو حالية تعني أنها مفتوحة حين مجيئهم إياها: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[٢].

﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ ولمَّا يدخلوها ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم، فالرسالة المجانسة برسول مجانس للمرسَل إليهم هي الحجة البالغة عليهم وكما في يّس وغيرها ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ...﴾[٣]. فرسول الإنس من الإنس ورسول الجن من الجن، وكذلك التجانس في سائر الأجناس وراء الإنس والجن.

﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَ...﴾ فإنما هي إتيان الرسالة المجانسة وتلاوة آيات مبشرة ومنذرة كحجة بالغة، فلا موقع لأبعاد الزمان والمكان والقوميات والإقليميات والعنصريات، وإنما رسالة إنسان إلى إنسان أم جن إلى جن أمَّن ذا، سواء أكان الرسول - بالفعل - فيهم، أم قضى نحبه ورسالته حاضرة، أو هو الذي يتلو عليهم آيات الله، أمَّن يحملون عنه رسالته، فإنما هي الحجة البالغة الإلهية الواصلة كالرسول، يَبلغُ دون زائدة ولا ناقصة، اللهم إلَّا فرعية لا تصطدم أصل الحجة، كالزمن بعد كل نبي وإمام معصوم حجة، ولا سيما إذا كان كتاب شرعته حاضراً دون زيادة أو نقيصة كما القرآن العظيم.

فالركن الركين في الدعوة الإلهية تلاوة آيات الله المبشرة والمنذرة: ﴿... يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾: يوم السوق إلى جهنم...

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل منا يقصون علينا آياتك وينذروننا لقاء يومنا

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

هذا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنهم كفروا بآيات ربهم، لا أنها حقت فكفروا.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ...﴾ ولماذا ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ والباب يدخل منها دون أن تُدخل هي بنفسها ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾[1]؟.

هناك ثانية (١٦: ٢٩) وثالثة (٤٠: ٧٦) مثلها، قد تعني كلها دخول كل زمرة من باب، وكما الدخول في الأرض المقدسة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ...﴾[2] ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾[3]، وقد تعني أن هناك دخولين، دخول كلٍّ بابَه، ثم دخوله دْركه من بابه.

ولكن الجنة ولها أبواب دون طباق، لا يفترق دخولها عن أبوابها، ولا يتفرق زمر المتقين الداخلين فيها دخولاً من أبوابها، وكلٌّ يعرف قدره ومقامه، وهم يتعارفون في منازلهم على مختلف درجاتهم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

هب إن هناك سوقاً للذين كفروا إلى جهنم لأنهم لا يجيئونها دون سوق، فلماذا يساق الذين اتقوا إلى الجنة، ولهم إليها شوق دون سوق؟

هذا سوق الاحترام وذلك سوق الاخترام وأين سوق من سوق، حيث يساقون إليها بكل تبجيل وتجليل، ولأن ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4] فلا يرضى أحدهم ان يسبق الآخرين مهما كان حقه السباق، فهم - إذاً - يساقون مع الرفاق حيث لا يرضون السباق.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٨.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

أم ولأن ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ في إطلاقها هم الرعيل الأعلى، الذين لا يعذبون أبداً، هم - حينئذ - غارقون في مشاهدة جلال ربهم وجماله، حيث يعيشون منذ بعثهم جنةَ الرضوان، فلا تهمهم جنة الجُثمان، لذلك وذاك وذيَّاك فهم يساقون إلى الجنة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ والحال أنها ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ من ذي قبل، تهيئة لهم وتهنئة ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ. . .﴾ وهناك لا خبر عن الخبر لـ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا. . .﴾ حيث فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لذلك فهنالك لا خبر عن الخبر إلَّا ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ - طِبۡتُمۡ - فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[(١)].

«يساق المتقون إلى الجنة و(قد أمِنوا مِن العذاب وانقطع العتاب وزحزحوا عن النار واطمأنت بهم الدار ورضوا المثوى والقرار، الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية، وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشعاً واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً، فجعل الله لهم الجنة ثواباً وكانوا أحق بها وأهلها في ملك دائم ونعيم قائم»[(٢)].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ هنا كما سلمتم هناك لربكم ﴿طِبۡتُمۡ﴾ هناك فطبتم هنا ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾ الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ وأين خالدين من خالدين؟

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

والأرض هنا - كما أسلفناها - هي أرض الجنة، و﴿حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ ليست إلَّا حيث يشاء الله، إذ ما يشاؤون إلَّا أن يشاء الله، وكلٌّ عارفٌ درجته

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٨.
(٢) في نهج البلاغة من خطبة لعلي عليه السلام لما قرأ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾.

ومنزلته ومنزله ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ دون - فقط - المؤمنين، حيث العمل الصالح هو ركيزة الإيمان وثمرته.

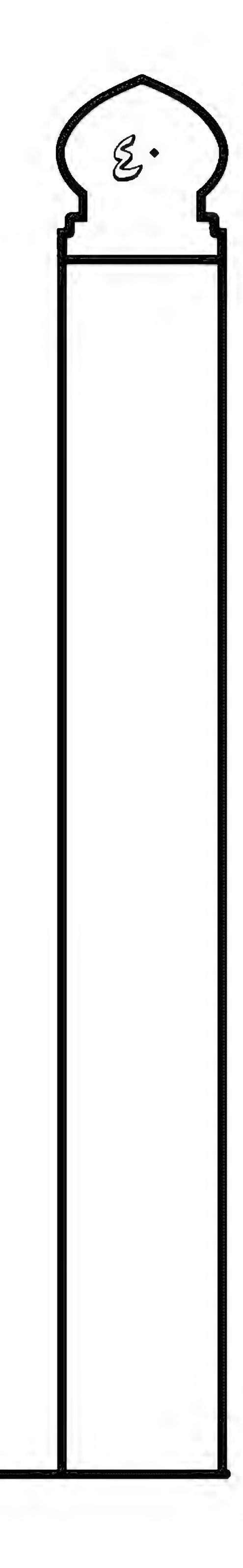
﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

العرش هنا مصدر الأوامر الربوبية لأهل المحشر، والملائكة - علّهم - حملة تلك الأوامر تنفيذاً لها وهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لمسك الختام كما في وعد البداية ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ المكلفين المتخلفين، وطبعاً ليس منهم الملائكة الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] أم قضي بين الصالحين، أنبياء وأئمة وملائكة أمّن هم؟ وبين الطالحين أياً كانوا ﴿بِالْحَقِّ﴾ في صُراحه ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من قائل إلهي أو ملائكي أم وأهل الجنة أجمعين ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].



(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠.



سُورَةُ غَافِرٍ



مكيّة وآياتها خمس وثمانون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

سورة تتسمى باسم رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، لأنه كان ثورة على الفرعونية الجبارة لصالح الإيمان، في حين لا تتسمى باسم الكثير من المرسلين في سائر القرآن إلّا إبراهيم ونوح ومحمد ممن دارت عليهم الرحى، ويونس وهود ويوسف ممن دونهم، ثم نرى مريم ولقمان والمؤمن تتسمى بأسماء هؤلاء الثلاثة وهم ليسوا من النبيين. والمؤمن هي أولى الحواميم السبع وهي كلها تاج القرآن[1] وديباج القرآن[2] وهي ثمرات

(١) نور الثقلين عن المجمع أنس عن النبي ﷺ قال: . . .
(٢) الدر المنثور ٥: ٣٤٤ عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: . . .

القرآن[١] وروضة من رياض الجنة[٢] ويا لها من سبع كالسبعة أبواب الجحيم تغلقها على القارئ المؤمن بها[٣] ولقد فضّل الرسول ﷺ فيما فضّل الحواميمَ[٤].

وتختص المؤمن من بينها بعد التنزيل بـ وهو ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ مما يوحي بأنها تحمل. عزة وعلماً، ومن العلم العزيز حمل العرش: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ وهم حملة عرش العلم فيما يحملون، ومن عزته عز المؤمن من آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ...﴾[٥].

ثم الكتاب بوجه عام يحمل من عزته تعالى وعلمه ما أمكن حمله للعالمين إلى يوم الدين، وإذا كان ﴿حمٓ﴾ نداءً لأحمد - محمد ﷺ مُنزِل وحي الكتاب من الله العزيز العليم، فـ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ مبتدأ بخبره، تناديه ﴿حمٓ﴾ أن تنزيل الكتاب يخص العزيز الحكيم، كما وأن اصطفاء مَحطّة الوحي ليس إلّا منه و﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾[٦]!.

أو أن ﴿حمٓ﴾ مبتدأ والجملة خبره، فأحمد - محمَّد ﷺ هو تنزيل

---

(١) المصدر أخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لكل شجرة ثمر وإن ثمرات القرآن ذوات حم من روضات مخصبات معشبات متجاورات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم...

(٢) المصدر أخرج الديلمي وابن مردويه عن سمرة بن جندب مرفوعاً:...

(٣) المصدر أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ قال: الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع تجيء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرئني.

(٤) أخرج ابن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله أعطاني السبع مكان التوراة وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي.

(٥) سورة غافر، الآية: ٢٨.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

الكتاب، حيث القابلية ظرف للفاعلية فكأنه هو التنزيل، أم أن محمداً هو القرآن والقرآن هو محمد منزَّلان ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾! وكما في «يس» ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾(١)! وليس «هو» هنا إلا «هو».

لتنزيل الكتاب مرحلتان أولاهما تنزيله نجوماً متفرقة، وأخراهما تنزيله مؤلَّفاً كما هو الآن، وكلاهما يحملان من عزته تعالى وعلمه ما أمكن ويليق بخاتمة الوحي.

ولأن الغالب على جو السورة هو المعركة الثورة بين الحق والباطل بأية صورة، حاملة معارض لمصارع الغابرين وعبرة للباقين، لذلك تبتدئ فيما تبدأ بوصفي العزة والعلم، ليعلموا ألّا غالب على كتابه بعزة أو علم، فـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾(٢) - ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾(٣) فلا طاقة به لمن سوى الله.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾:

هذه الست والعزيز العليم أوصاف ثمانية كأبواب الجنة الثمان، تفتتح السورة بها، مزيجة من صفات الجلال والجمال لتدلنا على أنه تعالى أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

وإنها مجموعة صفات ذات علاقات موضوعية بمحتويات السورة، فكل موضوعاتها تتعلق بهذه الثمان، التي تحمل بُعدي الجلال والجمال، المتوحدَين فيما تتوحد بذاته الواحدة، منحصرة فيه منحسرة عن سواه!.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤١.
(٣) سورة هود، الآية: ١٤.

والعطف بين غافر الذنب وقابل التوب لانعطافهما في أصل الرحمة مهما كان الثاني من مصاديق الأوّل، والذنب هو الأخذ بذَنَب الشيء ويُستعمل في كل ما يُستوخم عقباه، فإن كانت عقبى الأولى فهو من أحسن الصالحات وإن كانت الأخرى فمن أنحس الطالحات.

والغَفر هو الستر دفعاً أو رفعاً، فالغفر عن ذنوب المعصومين يختص بالذنب الصالح كما للرسول محمد ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . . .﴾[1] وهو بالنسبة للطالح، لهم دفع وصدٌّ أن عصمهم الله من الزلل وآمنهم عن الخطأ، وما استغفارهم إلا كالأوّل فكالأول أم كالثاني فكالثاني، دون رفع لخلفيَّة عصيان على أية حال.

والتَّوب هو الرجوع إلى الله، إما عن عصيان فهو قابله، أم عن نقصان بلا عصيان فبأحرى، أم لجأ إليه عما يعترضهم من بواعث النقصان والعصيان ولمّا، فأولى لهم ثم أولى، كما للمخلَصين من عباده، والمخلِصين أن يتقبلهم في حماه ويفتح لهم بابه بلا حجاب!.

إنه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ في موضع العفو والرحمة فضلاً وهو ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ في موضع النكال والنقمة عدلاً، غفراً وعقاباً على شروطها، المسرودة في الذكر الحكيم.

﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ ويا له من حفاوة وإكرام أن يحتف عقابه بغفره وطوله والطول هو المنة والإنعام الطائل، لا انقطاع له بانقطاع العبد عن ربه، فكلما استغفر بعد ذنب أم تاب يجد الله تواباً رحيماً، ثم لا انقطاع له إذا ركز في محلِّه اللائق، ومن طَوله أن يعفو عن شديد العقاب بعد ركزه بحقه إن لم يكن خلاف العدل بالنسبة لآخرين.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ في هذه وتلك أمّاهيه من اختصاصات الألوهية ومنها:

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لا سواه مهما كان ولياً أو نبياً فضلاً عن سواه، فهو المبدأ لا سواه، وهو المرجع لا سواه، وليس الأمر بينهما إلّا له لا سواه.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[1].

للذين كفروا تقلبٌ في البلاد بتغلُّب على أهل البلاد، بعدما جادلوا في آيات الله، طغياناً ذا بعدين: على الله وعلى عباد الله، ممَّا يغرّ مَن ينغرُّ بظاهر الحياة الدنيا، فـ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ...﴾ فإنهم كفروا في جدالهم في آيات الله وما هم بغالبين ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ...﴾[2] وليس لهم إلّا متاع قليل «وكل متاعب الدنيا قليل» ثم ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[3] لأنهم ركزوا على الكفر فلا رجوع حتى يتوب الله عليهم، فـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا يخصهم دون من يتوب فيتوب الله عليهم ويخفف عنهم.

فلأن جدال الكافر هو كافر الجدال وحجتهم داحضة فلا خوفَ منهم على آيات الله، ولأن تقلبهم قليلٌ مهما طال الأمد فلا تغلُّب في تقلُّبهم على الله مهما كان على عباد الله ولكنه ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ و﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هنا تعم التدوينية القرآن والتكوينية من نبي القرآن وبيناته وسائر الآيات آفاقية وأنفسية، والجدال فيها بالحسنى يأتي بالحسنى وبالسّوأى يأتي بالسّوأى، فالأولى جدال المؤمنين ليستحكموا عراها والأخرى جدال الكافرين ليستهدموا هُداها ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ ثم و«جدال في القرآن كفر»[4] وإن لم يكن عن كفر.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.

(٤) الدر المنثور ٥: ٣٤٥ - أخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال قال: رسول الله ﷺ: ... =

و﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ هو تطويرهم وتطوُّرهم من طور إلى طور ومن دور إلى دور، نعمة ودولة أماهيه من زخرفات حياة الغرور.

جدال الذين آمنوا في آيات الله يُخيف ويعز غير ثابتي الإيمان دون انتقاص فيها وانتقاض لها، ولكن المؤمن ما يجادل في آيات الله إلَّا استنباطاً لها، ولو انجرف إلى جدال بالباطل ومراءٍ أصبح كفراً عملياً كما نبه به الرسول ﷺ.

ولكن الذين كفروا هم وحدهم المجادلون في آيات الله إبطالاً لها، وإضلالا للمصدقين بها، فهم وحدهم يجادلون فيها دونما حجة لهم إلَّا داحضة ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ مهما تحركوا وملكوا واستمتعوا فإنهم إلى انحدار وبوار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[1] فـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[3].

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾! فذلك التقلب والتغلب «متاع قليل ثم إلينا يرجعون» فنعاقبهم بما كانوا يعملون.

= و: مراء في القرآن كفر وأخرج عبد بن حميد عن أبي جهم قال: اختلف رجلان من أصحاب النبي ﷺ في آية فقال أحدهما: تلقيتها من في رسول الله ﷺ وقال الآخر: أنا تلقيتها من في رسول الله ﷺ فأتيا النبي ﷺ فذكرا له ذلك فقال: أنزل القرآن على سبعة أحرف وإياكم والمراء فيه كان المراء كفراً، وفي كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: لعن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبياً ومن جادل في آيات الله فقد كفر قال الله عز وجل: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [غافر: ٤].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٩.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ...﴾ ولا تتضايق يا رسول الهدى فكم لهم من نظير ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾:

فهم داحضون كما حجتهم داحضة.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾:

فقد جمع لهم دحض يوم الدنيا التي دحض يوم الدين.



﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾:

من الذين يحملون العرش ثمانية: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[1] [2] ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٢) راجع ج ٢٩ من الفرقان تجد تفصيل البحث حول العرش وحملته الثمانية.

بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

حملة العرش يومئذ ثمانية، وما ندري قبله كم هيه، هل هم الثمانية أم زائدة أو ناقصة؟ ثم ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ ومنهم الملائكة، هل هم من هؤلاء الحَمَلة؟ فلماذا أفردوا عنهم إن كانوا من ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾! أم هم المحمولون مع العرش من حوله؟ وحمل العرش - فقط - هو المحور في آية الثمانية! إلَّا أن تدلنا على حملهم ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[(٢)] ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾!

وأين هي الدلالة إلَّا احتمالاً في آية ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ مع احتمال أنهم ممن ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مع ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ لا وأنهم المحمولون معه! إلَّا أن واضح التعبير عنه «الذين يحملون العرش يسبحون ومن حوله» ففي عطف من حوله - دون فصل وردفِه إيحاءٌ - على أقل تقدير - «إنهم محمولون مع العرش، وإن كانوا مع الحملة يسبحون ويؤمنون ويستغفرون...»[(٣)].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٣) البرهان ٤ : ٩٠ محمد بن يعقوب بسنده عن صفوان بن يحيى قال سألني أبو قرة المحدث أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته فأذن له فدخل فسأله عن الحلال والحرام ثم قال: أفترى أن الله محمول؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: كل محمول مفعول مضاف إلى غيره محتاج والمحمول اسم نقص والحامل فاعل وهو في اللفظ مدحة وكذلك قول القائل فوق وتحت وأعلى وأسفل وقد قال الله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ولم يقل في كتبه إنه المحمول بل قال: إنه الحامل في البر والبحر والممسك للسماوات والأرض أن تزولا والمحمول ما سوى الله ولم يسمع أحد آمن بالله وعظمه قط قال في دعائه: يا محمول، قال أبو قرة: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾، وقال: الذين يحملون العرش فقال أبو الحسن عليه السلام: العرش ليس هو الله والعرش اسم علم وقدرة والعرش فيه كل شيء ثم أضاف الحمل إلى غيره خلق من خلقه لأنه استعبد خلقه بحملة عرشه وهم حملة علمه وخلقاً يسبحون حول عرشه وهم يعملون بعلمه وملائكته يكتبون أعمال عباده واستعبد أهل الأرض بالطواف حول بيته والله على العرش استوى كما قال، والعرش ومن يحمله ومن حول العرش والله الحامل لهم الحافظ لهم الممسك القائم على كل نفس وفوق كل شيء وعلا كل شيء ولا=

وعلى أية حال فالحامل أفضل من المحمول وأكمل، فمن يُحمَلون مع العرش هم دون الحاملين، أفيبقى بعدُ احتمال أن استواءه تعالى على العرش جلوسه عليه وارتكانه فيحمل مع المحمولين، وقد كان ولا عرش ولا حاملَ له حيث «كان إذ لا كان»! ومن أفضل حملة عرش العلم والرحمة رسول الله ﷺ والأوصياء من بعده: وهم محمد وعلي والحسن والحسين ومن المحمولين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى[1].

وعلّهم حملة عرش العلم والرحمة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فهم دائبون في ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ . . .﴾. تسبيحاً بالحمد، لا حمداً فقط أو تسبيحاً فقط، حيث التسبيح سلب لما لا يليق بذاته المقدسة دون إثبات، والحمد إثبات في معرض الإحباط لقدسية الذات، ولكنما التسبيح بالحمد هو سلب بلسان الإثبات جامعاً بين السلب والإثبات، وهو الحري في توصيف الذات، فقولهم إنه عليم، تسبيح له عن الجهل بإثبات علم، وتسبيح له عن سائر العلم لسائر الخلق، يعني أنه ليس بجاهل على الإطلاق ولا بعالم كالعلماء!

= يقال محمول ولا أسفل قولاً مفرداً لا يوصل بشيء فيفسد اللفظ والمعنى، قال أبو قرة. فتكذب بالرواية التي جاءت أن الله إذا غضب إنما يعرف غضبه أن الملائكة الذين يحملون العرش يجدون ثقله على كواهلهم فيخرون سجداً فإذا ذهب الغضب خف ورجعوا إلى مواقفهم فقال أبو الحسن عليه السلام عن الله تبارك وتعالى فقد لعن إبليس إلى يومك هذا هو غضبان عليه فمتى رضي وهو في صفتك لم يزل غضبان عليه وعلى أوليائه وعلى إتباعه كيف تجتري أن تصف ربك بالتغيير من حال إلى حال وأنه يجري عليه ما يجري على المخلوقين سبحانه وتعالى لم يزل مع الزائلين ولم يتغير مع المتغيرين ولا يتبدل مع المتبدلين ومَن دونه في يده وتدبيره وكلهم إليه يحتاج وهو غني عمن سواه.

(١) تفسير البرهان ٤: ٩١ ح ٦ بسند عن محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في الآية يعني محمداً وعليًّا والحسن والحسين عليهم السلام ونوح وابراهيم وموسى وعيسى يعني هؤلاء الذين حول العرش، وفيه ح ١٦ شرف الدين النجفي قال وروي عن عمرو بن شمر عن جابر ابن يزيد قال قال أبو جعفر عليه السلام في ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧] يعني الرسول والأوصياء من بعده يحملون علم الله عز وجل ثم قال: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧] يعني الملائكة.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيماناً صارماً واصباً يناسب حملة العرش ومَن حوله وتسبيحهم بحمد ربهم، وقد تلمح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ على وضوح الإيمان لهؤلاء الكرام، إلى الرد على الذين يتخذونهم أرباباً من دون الله من ملائكة ونبيين، وهل الرب يؤمن بالرب مهما اختلفت الدرجات؟ أم ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ واحداً لا شريك له فلا يُعبد إلَّا هو، فهل يؤمن الشريك بالوحدانية لشريكه؟ وملامح الإيمان أياً كان ظاهرة في وحدة الكون وتناسقه، ووحدة التدبير وترافقه، ووحدة الوحي بتواتره، فليس لكلٍّ من هؤلاء ربوبية بعرشه الخاص، وانما حمل لعرش العلم والرحمة إلى من يشاء من عباده دون خِيَرة لهم ولا اقتداء، فإنما هم حملة مأمورون ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وليس لسائر المكلفين إذ لا يُغفر إلَّا للذين آمنوا، وليس لأنفسهم علَّه لأنهم معصومون لا يعصون، أو وأن من آداب الدعاء أن يدعو الداعي لغيره متناسياً نفسه، ثم الله يغفر له كما للمدعوين، ولكن ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] قد تطارده، والرسول وهو أفضل حملة العرش يؤمر بتقديم نفسه في الاستغفار، فقد تعني ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ...﴾ بعدما استغفروا لأنفسهم، ودعاءُ الاستغفار يختلف عن سائر الدعاء، فعلى الداعي أن يصلح نفسه باستغفاره لنفسه حتى يستصلح غيره باستغفاره لهم، مهما كان الاستغفار عن غير ذنب فإنه استصلاح الاستكمال والدفع عما يطرد، عصمةً عن كل وارد وشارد لا يناسب ساحة النبوة.

حملة العرش ومن حوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قائلين قبله ما يهيىءُ جو الغفران:

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا...﴾ قضيةَ سعة عرش الرحمة والعلم، فلا تسع الرحمة ما لم يسع العلم، ولا تفيد سعة العلم ما لم تسع الرحمة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١) فسعة العلم والرحمة معاً هي التي تسمح لمطلق الغفر والغفر المطلق عن أي ذنب كان، فلأنه واسع الرحمة والعلم، لذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾(٢).

ولأنك واسع العلم والرحمة فواسع المغفرة ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فليست التوبة لفظةً تقال، أم نية تُنال، أم عقيدةٌ كامنة، فإنها كلها ذرائع لاتباع سبيل الله، فلا غفران للذين تابوا ولم يتبعوا سبيل الله، إذ ليست التوبة إلّا عن انحراف السبيل.

وترى إذا كانت رحمته وسعت كل شيء كما علمه فلماذا يحرم عنها غير المؤمنين؟ إنها وسعت كل شيء إمكانيةَ الشمول دون ضيق أو مضايقة ولكن ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾(٣) ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾(٤).

وإذا تم الغفران بالتوبة فقد تمت الوقاية عن عذاب الجحيم، فما هو إذاً موقف ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ بعد «فاغفر»؟ علّها الوقاية دفعاً عن العصيان حتى لا يحتاج إلى توبة وغفران، أم وتعم الدفع والرفع عموماً بعد خصوص،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

اجتثاثاً صارماً لبواعث الجحيم، وقد تعم «السيئات» سيئات المسيئين سواهم ألا تلحقهم بخلفياتها وكما ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾(١) فإنها وقاية الدفع عما مكروا بموسى أن يفتكوا به ويقتلوه!.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾:

وإذا كانت الدعاء «للذين آمنوا وتابوا واتبعوا سبيلك» فـ«هم» في «أدخلهم» يعمهم، فما هو إذاً موقف ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ﴾ وهم داخلون في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إذ كانوا مؤمنين فإنهم ممن ﴿صَلَحَ﴾؟.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ﴾ تقيّد ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالمؤمنين الأصول، فتعني هي المؤمنين الفروع وكما في الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(٢) إلّا في آبائهم وأزواجهم في ظاهر اللفظ، ولكنما الذرية في الطور هي ذرية الإيمان فتشملهم من آباء وأزواج وأولاد، الذين عاشوا الإيمان على هوامش الأصول، حيث ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾(٣).

وعلّ الأزواج تعم الذكران والإناث كما تعم كافة القُرناء في الإيمان، واختص بالذكر الآباء والذريات لاختصاص قرابة الإيمان، فذرية الطور تشمل الثلاث هنا، والذرية هنا تقابل الآباء والأزواج، كما الأزواج هنا - علّها - تشمل كافة القرناء أنسباء وغير أنسباء.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٣) سورة الطور، الآية: ٢١.

ولماذا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في موضع الغفر والرحمة؟ لأنهما من لوازم وسعة العلم والرحمة، استشفاعاً بسعة رحمته وعلمه يضع العزة حيث تقتضيها الحكمة!

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾:

﴿وَقِهِمُ﴾ تعني الذين آمنوا كلهم من أصول وفروع، وظرف الوقاية هنا أعم من الدنيا والآخرة ولكن الأهم هي الثانية: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾.

والسيآت حين تُفرد دون مقابل تعني المعاصي كلها صغيرة وكبيرة، فوقايتهم إياها يوم الدنيا تعم الرفع والدفع، رفعاً بالتوبة لمن ابتلي بها، ودفعاً بالتسديد عمن هاجمت عليه ولمَّا يبتلى، وهذا يليق بأصول الإيمان وذلك يناسب فروعه.

ثم إذا تبقَّت سيئات عُملت دون توبة عنها أم توبة من الله عليه لعُظمها أماذا من مُنعة الوقاية، فبقيت لـ«يومئذ» القيامة الكبرى فـ ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ حين لا توبة هناك، وقاية بشفاعة أمّاهيه، ووقاية السيئة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ لا تعني السَّدَّ عن اقترافها، وإنما صدها عن بروزها، حيث الجزاء هو السيئة بنفسها فـ ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1] فالسيئة التي بقيت حتى (يومئذ) توقى وتمحى ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾:

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.

المقت هو أشد الكُره، فقد كرهوا أنفسهم بأشدها لمَّا دُعوا إلى الإيمان بحججه ولصالحهم في الدارين فكفروا، وقد خيِّل إليهم أنهم غالبون أحرار في شهواتهم وكفتهم حظوة الحياة الدنيا عن أية حياة، ولكن ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فإنه صُراح المقت دونما شبهة أو خفاء، فليس يعني عذاباً أكثر مما يستحق، بل هو أكبر في مظاهره بنصوعه وهم ماقتون أنفسهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً قصوراً عن تقصير.

أنتم تطَّلعون اليوم على مصيركم بكفركم دونما غفلة، وقد كنتم يوم الدنيا في غفلة، وما أوجع ذلك التذكير في التأنيب في ذلك الموقف الرهيب العصيب!

ثم الجواب منهم ليس إلَّا كلمة التباب للذليل البائس اليائس ﴿رَبَّنَآ﴾ وقد عاشوا نكران ربوبيته! إنهم يستعطفون الرب بعطف ربوبيته، وقضيتُها العذاب عدلاً للكافرين، كما أنها الثواب فضلاً للمؤمنين. ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ. . .﴾ وما هما الإماتتان والإحياءتان؟

ترى الإماتة الأولى هي الموتة الكائنة قبل الحياة الدنيا، فالإحياءة الأولى هي إحياؤها، ثم الإماتة الثانية هي عن الحياة الدنيا فالإحياءة الثانية هي عن البرزخ إلى الحياة الأخرى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]؟[2].

والموتة الأولى ليست عن إماتة، فإنما خلقت الأجنة ميتات ثم أُحييت! ثم ليست لهم في هاتين الموتتين ذكرى يعترفون بها بذنوبهم، مهما كانت لهم في الإحياءة الثانية فليكتفوا بها في اعتذارهم وذكراهم!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٢) الدر المنثور ٥ : ٣٤٧ - أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال: هي مثل التي في البقرة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ. . .﴾ [البَقَرَة: ٢٨] ومثله عن ابن عباس وقتادة.

أم أن الأولى إماتة عن الحياة الدنيا ثم الإحياء للبرزخ ثم الإماتة عنه والإحياء للأخرى، ولم يذكروا الإحياء في الدنيا إذ لم تكن لهم فيها ذكرى وسبب للإيقان بالأخرى، حيث ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ تفرّع اعترافهم بإماتتين وإحياءتين في كلها هذه الذكرى؟

والحياة البرزخية لا تحتاج إلى إحياء آخر بعد الإحياء في الأولى، فإنها استمرارية الحياة الدنيا، إذ لم يحصل بالموت إلا انفصال الروح ببدنه البرزخي عن بدن الدنيا! ثم ولا ذكرى في هذه الإماتة الاولى وقد كانوا معترفين بها ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾[1] وإنما هي في حياة بعدها، ثم موت وحياة أخرى للأخرى! أم أن الموتة الثانية هي عن إحياءَة الرجعة[2] ثم الإحياءة الثانية هي للأخرى، ولم تذكر الإحياءة للحياة الدنيا إذ لم تكن فيها ذكرى؟

وليست الرجعة إلَّا لمن محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، وليس الذين كفروا كلُّهم ممحضين للكفر محضاً، وهذه المقالة تحكي عن حالة عامة لأهل النار، كما هي لأهل الجنة، مهما استثني عن هؤلاء «إلا من شاء الله» ولكنهم داخلون فيمن يرجع فموتتان أيضاً، أو استثني الإحياء يوم الصعقة، والممحضون منهم إيماناً أو كفراً داخلون فيمن يرجع، فقليل هؤلاء الذين يموتون موتة واحدة وهم الأحياء يوم الصعقة، غير ممحضي الإيمان أو الكفر!

أم الأولى هي عن الحياة الدنيا، والثانية عن الحياة البرزخية، والإحياءة الأولى للأولى والأخرى عن الموتة البرزخية للحياة الأخرى، وفي مجموعها

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٣٥.

(٢) المصدر ح ١٩ القمي قال الصادق عليه السلام ذلك في الرجعة وفي البرهان ٤ : ٩٣ ح ٢ رجعة المعاصر عن الحسن بن محبوب عن محمد بن سلام عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: هو خاص لأقوام في الرجعة بعد الموت فتجري في القيامة فبعداً للقوم الظالمين.

الذكرى إن لم تكن في كلٍّ منها، فقد جبروا نكرانهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ باعتراف ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ ونكرانهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾(١) باعتراف ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ...﴾ ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؟

فآيات الصعقة في النفخة الأولى تعم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾(٢) وهم ليسوا ممن شاء الله فتشملهم صعقة الموت مع من تشمل إلّا من شاء الله، وإن كانت للأحياء يوم الصعقة موتة واحدة هي عنها ثم إحياءَة ثانية للأخرى، ولكنما الأكثرية الساحقة هم أهل البرزخ يوم الصعقة.

فمن الناس من له إماتات وإحياءات ثلاث، وهم ممن يرجعون يوم الرجعة وهم أموات يوم الصعقة وليسوا ممن شاء الله وقليل ما هم!

ومنهم من لهم إماتة واحدة وهم الأحياء يوم الصعقة من غير أهل الرجعة وليسوا ممن شاء الله، وقليل ما هم!

ومنهم من له إماتتان وإحياءتان، كسائر الناس وهم أهل البرزخ يوم الصعقة، فكثير منهم تأخذه الصعقة وهي إماتته الثانية، وقليل منهم هم ممن شاء الله، فموتتهم الثانية هي عن حياة الرجعة، وهل يوجد مَن هم أحياء يوم الصعقة وهم ممن شاء الله فلا يموتون بها، وما هم ممن يرجعون يوم الرجعة، فلا موتة لهم إلا إحياءة واحدة للحياة الدنيا وهي تستمر إلى الأخرى؟

كلّا! فـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾(٣) بين إماتة واحدة أمّا زادت، فـ «من شاء الله» كلهم ممن محّض الإيمان محضاً فراجعٌ يوم الرجعة ثم يموت، وما منهم من يظل حياً إلى يوم الصعقة فهي تأخذ أحياءها كأقل موتة.

فالضابطة العامة هي الإماتتان والإحياءتان، مهما شذ عنها أقل منهما أو

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

أكثر، وقد تزيد إلى أربع كالذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، إن لم يكن ممن شاء الله وهو من أهل الرجعة، فقد أميت عن الحياة الدنيا مرات ثلاث، ثم الرابعة يوم الصعقة، ولكنما الآية تتحدث عن الأغلبية الساحقة فإن لهم إماتتين اثنتين وإحياءتين، مهما كان موردها أهل النار، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ أياً كان وأيان ولو بعد ردح كثير من الزمن ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ أياً كان وعلى أية حال، فالمستدعى هناك سبيلٌ مّا إلى خروج مّا خروجاً عن أبد النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾:

﴿ذَٰلِكُم﴾ المقت الأكبر من الله ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ بوحدته ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بكثرته ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ إذاً في سبيلٍ من خروج سلباً وإيجاباً ﴿لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ﴾ عن الشركاء ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ عن الحاجة إلى الشركاء، وما حكمه إلّا ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[2]!

فـ ﴿إِذَا﴾ تُحقِّق موضوعه و﴿دُعِىَ﴾ تضرب إلى عمق الماضي تلميحاً إلى أن التوحيد سابق محقق أصيل طول الزمن، فإنه قضية العقل والفطرة، ودعوة الرسالة الدائبة، ومدلولة سائر الآيات آفاقية وأنفسية. ثم «إن» تُشَكِك و﴿يُشْرَكْ﴾ لطارئ المستقبل، لأن الشرك طارىءٌ مشكّك في تطاول من أهل الزمن! لا حجة له في أي حقل من الحقول، أم أي عقل من العقول، فيا لهم من حماقة معمَّقة، وتناس لكل موهبات الإنسانية والحيوانية أن يؤمنوا إن يُشرك ويكفروا إن يوحَّد!

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

الفهرس

سورة ص

سورة الزمر

سورة غافر